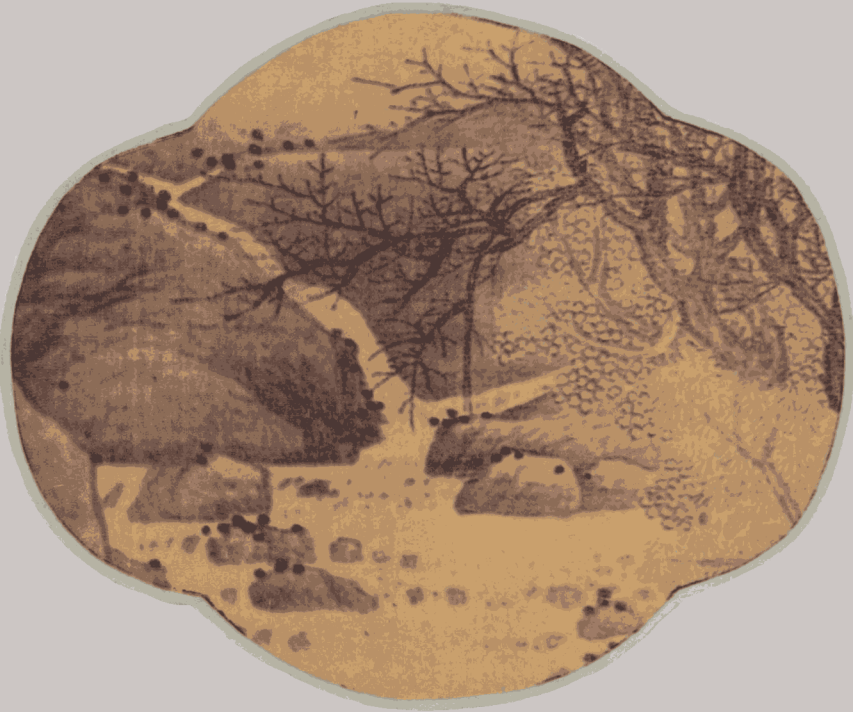


فد الفللفة الصلنة

لاوتسه / تشوانغ تسه
老子 / 庄子

كتاب التاا



ترجمة و دراسة

هادي العلوي

每 卷

دار الكنوز الأدبية

كتاب التاو

لاوتسه / تشوانغ تسه

كتاب التاو

ترجمة ودراسة

هادي العلوي

دار الكنوز الأدبية

كتاب التاو
لاوتسه / تشوانغ تسه
ترجمة ودراسة هادي العلوي
الطبعة الأولى ١٩٩٥
حقوق الطبع محفوظة
دار الكنوز الأدبية
ص.ب ٧٢٢٦ - ١١ - بيروت - لبنان

الإهداء

إلى نبيهة

رفيق التعاود القلق على تخوم التاو

تصدير

قد يفاجأ القارئ العربي حين يخوض في بحار الفكر الصيني بذلك العالم المجهول الذي ترجع اولياته الى القرن الثامن قبل الميلاد ليتساءل عن سر هذا الانقطاع عن ثقافة عريقة عاشت في جوارنا متزامنة مع مكتبة آشور بني بعل ثم مكتبات الكلدانين فالآراميين فالمسلمين. ولئن كان ما قبل الاسلام معدود في التاريخ المتقطع الذي يسم مدنيات وحضارات الغابر فإن القرابة القرية التي جمعت بين الحضارتين الصينية والاسلامية تزيد من عنصر المفاجأة ومن ثم التساؤل عن هذا السر الذي جعل المسلمين يبحثون عن مصادر اضافية لمعرفةهم فلا يجدون غير فلسفة اليونان. ان الجواب المعتاد في حالة كهذه هو الحاجز اللغوي، إذ لم يتهياً للفلسفة الصينية "سريان" يقومون بالوساطة بينها وبين الفكر الاسلامي. لكن السؤال يبقى مطروحاً للاجابة مع الاتصال الوثيق بالصين على جبهات السياسة والتجارة والعلوم ومع تدفق المسلمين على الصين بعد مدة وجيزة من وصول جيوش قتيبة الى كاشغر لترسم خط الحدود المشترك ما بين امبراطوريتي الارض في ذلك الحين.

أما بقاء هذه الفلسفة مجهولة عندنا في العصر الحديث فمفهوم. فالغزو الثقافي الذي اجتاحتنا في هذا العصر، كان من جهة واحدة هي أوروبا، التي غزت الصين في نفس الآن لتشكل بالتالي حاجزاً يزيد على الحاجز اللغوي ويمنع أهل الصين من غزونا بثقافتهم بوتيرة لو تمت لكانت معرفتنا الحديثة أكثر توازناً وربما اتراناً.

ان ما عرفناه من فلسفة الصين لا يزيد حتى الآن على هوامش مكتوبة على متون الاغريق والميديفال يمر عليها القارئ العربي من غير ان يعلق في ذهنه منها شيء ينافس مفردات الغزو الاوروبي . ولعلنا سننتظر ردها أطول من الزمن قبل ان ترحف الهوامش على المتون لتوفر مادة فاعلة تتماسك في الذهن العربي مع روافد ثقافته الاخرى. فما يزال عصرنا عصر الهيمنة الاوروبية المعتمدة أمريكياً وما يزال جمهرة مثقفينا تستريح لنبرة جان انكلش التي لازمتها طيلة القرنين المنصرمين، فلم تراحمها نبرة حتى من اغوار تاريخنا الحضاري المتصل في تأوجه بأواسط العصر الحجري الاوروبي.

على ان لكل اوج حضيض، تنعطف منه الاشياء الى مصائر مغايرة. وقد تأوجت الهيمنة الغربية الى حدود لم يعد بالمقدور تجاوزها الى ذروة اعلى واستكمل الغربيون حلقات حصارهم فقرضوا على المحصورين أن يبحثوا عن منافذ للافلات. ولعل هذا هو ما اراده كاتب صيني تنبأ بانحسار الثقافة الغربية وصعود الثقافة الشرقية ولكن في سياق ملتبس، متأثر في الجوهر، بتعميمات الغربيين انفسهم حيث

يستظهر الكاتب الصيني دخول الفكر العلمي الحسايني (علم الغرب) وفق الازمة، الذي سيفتح الباب لفاعلية الفكر الشرقي المتنافر مع جمود الحقائق العلمية... ولم يدخل العلم الغربي نفق ازمة فهو في نمو مطرد يتساق مع التطور الهائل في المدنية التكنلوجية.. وما نشكو من هيمنته علينا ليس العلم الغربي، اعني ليس آنشتاين او فرويد، بل الاديولوجيا الغربية، اعني مارغريت تاتشر وفرانسوا ميتران وبيل كلينتون وسلمان رشدي. كما ان ما يعيننا اليوم ليس الفكر الشرقي المتنافر مع جمود الحقائق العلمية بل الفكر الشرقي في تدامجه مع الطبيعيات وتراث الفكر الشرقي الذي اتسع لكونفشيوس وتساى لون كما اتسع للغزالي والخوارزمي. وسيخدم الكشف عن منابع جديدة لثقافتنا في اعماق آسيا هدف انفلاتنا من هيمنة الثقافة الغربية، التي نريدها ان تكون احد روافد ثقافتنا وليس النبع الوحيد الذي يتزاحم عليه الرواد. وسوف يساعدنا ذلك على تلقي منتجات الذهن الغربي بقدر اكبر من النقد بعيداً عن وسائل التلقين المستعملة في اوساط مثقفينا.

ترجع أولى محاولات العودة الى تراث الشرق الى الستينات حينما بدأ المؤرخ العراقي الماركسي فيصل السامر الكتابة عن العلاقات العربية الصينية ليضع القارئ العربي امام ساحة مجهولة من تاريخه، وقد نشر بعض هذه الدراسات في مجلة "كلية الآداب" ببغداد وكان من اساتذة التاريخ فيها. ثم عاد الى معالجة هذه المسألة في كتابه "الحضارة الاسلامية في الشرق الأقصى" ليوفر بذلك مرجع اساس لمن سينطلق

للبحث في هذه المجاهيل. وفي وقت لاحق اصدر عبد المعين الملوحي ترجمته للجزء الأول من "تاريخ الشعر الصيني" وكان ذلك عام ١٩٦٨ ثم الجزء الثاني عام ١٩٧٩. ويواصل الملوحي ترجمات الادب الصيني شعراً وقصة لنشرها في الدوريات الثقافية، وأصدر الكاتب المصري محمد شبل مجلداً عن "حكمة الصين". ويتصدى الطلاب والباحثون العرب المتصنيون والطلاب والباحثون الصينيون المستعربون لهذه القضايا في اطروحاتهم كما في كتاباتهم اللاحقة. ومن بين الاطروحات الهامة واحدة قيد الاعداد للطلاب السوداني جعفر كرار الذي اطلعني في بيجينغ على الفصل الأول منها. وهي مستوفاة وموسعة. وقد وقف الطالب المذكور على مراجع أمهات لم اطلع عليها عند معالجتني لنفس الموضوع. وردّ في اطروحته على مزاعم استشراقية سعت لتضييق نطاق العلاقات العربية الصينية ضمن اتجاه سائد في الغرب لإبقاء الحواجز القائمة بين طرفي آسيا. وتحت الطبع كتاب عن الادب الصيني للصدّيق زكريا الشريقي سفير سوريا السابق الى الصين. وفي رسالة من قريب لي ببغداد ان كتاباً صدر لطالب عراقي عن العلاقات الصينية العربية رجع بها إلى العصر البابلي وتضمن اضافات هامة على ماكتبه الرائد فيصل السامر. ولم يوزع الكتاب خارج العراق بسبب الوضع الاستثنائي القائم في وطننا العريق الذي ترادف صدام حسين والغريون على إبعادنا عنه منذ ثمانية عشر سنة خلت..

ضمن هذا الخط، المحكوم بهاجس التوجه المشروع نحو الشرق،

كانت دراستي للفلسفة الصينية التي اسفرت اولاً عن مباحث متفرقة في الدوريات الثقافية والسياسية تم عن ترجمة لكتاب التاو الأول تمت بالتعاون مع الدكتور سامي مسلّم وصدرت طبعتها الأولى ببيروت عام ١٩٨٠ . وتحت الطبع كتاب يتضمن دراسات ومنتخبات ثقافية عنوانه: "المستطرف الصيني" يصدر عن مركز الدراسات الاشتراكية الكائن بدمشق. ثم هذه الطبعة الموسعة لكتاب التاو في جزأيه الاساسيين اللذين يحملان اسم لاوتسه، مؤسس الفلسفة التاوية، وتشوانغ تسه معلمها الثاني. وقبل ان نقدمها لقارئنا نجد من المفيد أن نأخذ بهم في دروب التاو كي يستبصروه قبل ان يواجهوا مهمة قراءة نصوصه الاصلية كما نطق بها المعلمان العظيمان او استنطقهما اتباعهما اللاحقون.

هادي العلوي

دمشق اوائل تموز ١٩٩٤ م

اواخر محرم ١٤١٥ هـ

ويصادف منتصف الشهر السادس

من سنة الديك في التقويم الزراعي

الصيني

مدخل إلى التاوية

تنتسب المدرسة التاوية (تاوجيا) الى لاوتسه. وهو لقب التشريف للسيد لي تان المولود في دويلة تشو من اعمال مقاطعة هونان الجنوبية اليوم. وهو معاصر اسن لكونفشيوس يقال انه يكبره بخمسين سنة. وبهذا الاعتبار يتمسك الكثير من الدارسين الصينيين بكونه، لاوتسه، هو الفيلسوف الأول وليس كونفشيوس، وقد نجمت مع ظهور لي تان موجة فلسفية مديدة استمرت طوال عصر الفلسفة الاغريقية والهللينية فالعربية الاسلامية. ويضع العلامة فونغ يولان ثلاث أطوار للتاوية في تزمين ملتبس يكون فيه الفيلسوف ياو تشو العائش مع اختلاف تواريخه ما بين القرن الخامس والثالث ق.م. اول فلاسفة التاو ويكون فيه لاوتسه الذي عاش قبله ثانيي الفلاسفة. والخلاف كبير حول الزمن الذي عاش فيه الاثنان مع ان الميل السائد يتجه الى معاصرة لاوتسه لكونفشيوس كما ذكرنا. ومهما يكن فإن الاطوار الثلاثة التي تكلم عنها فونغ يولان تتقوم في طور الهروب من الناس واعتزالهم في الجبال والغابات على طريقة النساك خلاصاً من شرور الدنيا كما ترد عن ياوتشو، ثم في استظهار لاوتسه للنواميس الحاكمة في الاشياء بوصفها، اي النواميس، ثابتة والاشياء متغيرة. ودعوته الى فهم هذه النواميس وتنظيم حياة الفرد والمجتمع بموجبها لتجنب الاضرار التي نجمت

عن معاكسة الطبيعة من طرف الانسان المتمدن. وفي الطور الثالث يدعو تشوانغ تسه الى نسيان التمييز والفروق بين الاشياء والتمسك بالمساواة بينهما بما في ذلك المساواة بين الموت والحياة والمطابقة بين الذات والآخر من اجل تجاوز العالم الكائن إلى عالم آخر تتروحن فيه النفس البشرية من غير أن يحتاج المرء للهروب الى الجبال والغابات.

وللتاوية على أي حال اطوار اخرى يتأوج احدها مع الفيلسوف كوو شيانغ، الذي اوصل التاوية الى ذروة تطورها في القرن الثالث الميلادي كما سيشرح فونغ يولان في التذييل المركز الذي ألحقه بترجمة كتاب تشوانغ تسه.

وهناك طور آخر انقسمت فيه التاوية بين الفلسفة والدين، فكانت التاوية الفلسفية (تاوجيا) والتاوية الدين (تاو جياو). والآخر قام على اصول لاوتسه بعد تحويلها لتصبح طقوساً مشوبة بالعقائد والاساطير. ويتساءل جوزيف نيدهام عالم الصينيات الانجليزي الجليل عن السر الذي جعل فلسفة راقية تتحول الى دين. ثم يلتمس لها عذراً في رد الفعل ضد الدين الجماعي في الكونفوشية بقراينه وطقوسه المفرطة التي اتسعت مع اتساع الدولة فلم يعد مقدوراً لكل الناس ان يؤدوها فجاءت الديانة التاوية لتكون ديانة الخلاص الفردية لأهل الصين، فتحررهم من فروض الكونفوشية الباهظة وترفع عنهم الاغلال التي كانت عليهم^(١). لكنها وقد تحولت الى دين لم تعد قادرة على ان تفعل هذا كله ففزعت إلى الاباطرة وسلك لاهوتيوها للتأثير على هؤلاء الحكام سبل الشعوذة فاجترحوا اكسيراً لاطالة العمر شربه اربعة منهم فماتوا. وجربت التاوية ان تصبح دين الصين الوطني ضد البوذية المجلوبة من الهند ولما نجح التاوي تشاو قوي تشين* ان يستصبيء

الامبراطورين "تشنغ" و"وو" استطاع ان يحمل الآخر على تحريم البوذية
بمرسوم عدّد فيه ما فعلته ديانة الهند من تعطيل للانتاج وتشويش في عقائد
الناس واستغلال الثروات لبناء الاديرة والمعابد الفخمة التي عاش فيها الرهبان
مرهقين على حساب غيرهم^(٢). الاتهامات نفسها التي برزت في حملة
ماوتسي تونغ، وهي الثانية في تاريخ الصين، وانتهت بالثورة الثقافية الى
اغلاق المعابد. ولم تتوقف التاوجيا مع ظهور التاو جياو بل تزامنا في
ساحات منفصلة حتى النهاية.

وما يعيننا الآن هو التاوية الفلسفة وليس التاوية الدين.

ولكن من هو التاو؟ اصل الكلمة في اللغة الصينية هو الصراط ثم
استعملت في الفلسفة لتخرج من مدلولها الملموس الى مدلولها المطلق. وتبعاً
للفرنسي ويغر أخذ لاوتان هذه الكلمة من ارشيفات الوزارة الثالثة وهو
الفهرس الادبي لعتره الهان^(٣). وينمو التاو عند لاوتسه وتلامذته فيصبح
هو المبدأ والمآل. المبدأ الذي تأتي منه كل الاشياء والمآل الذي ترتد اليه كل
الاشياء. ويقول "محيط الكلمات الصينية" ان التاو هو القانون الطبيعي او
الكيان الذاتي للاشياء^(٤). أهو الجوهر اذن؟ ربما انطوى التاو على شيء من
ذلك فالمفاهيم التي اكتسبتها هذه المفردة تجعلها قابلة لتفسيرات شتى قام
بها التلامذة العظام وشراحهم وحاولها مؤرخو الفلسفة في هذا العصر. لكن
الاساس يبقى ان التاو هو مطلق التاويين: مبدأ الاشياء، جوهرها، طبيعتها
الذاتية، محرکها، وربما رانت عليه من بعض الوجوه ملامح روحانية توحى
بها بيانات الفلاسفة المشوبة بنزعة صوفية والمكتوبة بنفس شعري لكنه لا
يخرج في كل الأحوال عن مقتضى الكون والطبيعة الكونية. ولا يخفي
لاوتسه نفسه حيرته امام هذا المطلق اذ يقول^(٥).

مظلم، محير، عسير الوصف.

ولكي لا يتراجع للحيرة يعطي وصفاً عاماً يتناول منتجات التاو، افعاله، وآثاره:

النور جاء من الظلمة، النظام من اللصورة.. التاو ينتج الطاقة الحية وهي التي تعطي النفس للصورة العضوية.

أما تشوانغ تسه فيحد التاو دون ان يلمسه ^(٦):

”للتاو واقع ودليل، ولكن لا فعل له ولا صيغة. هو ممكن الارسال غير ممكن الاستلام، ممكن التحقق غير ممكن الرؤية”.

والتاو مجرد عن الاسم اي انه عار عن الصفات ويشبهه لاوتان بلوحة غير منقوشة: ”هو بداية كل الاشياء، وبداية البدايات، هو ليس شيئاً وانما بداية الاشياء” ^(٧).

التاو اذن هو البسيط الذي هو مبدأ كل الاشياء، إذا استخدمنا لغة الفلاسفة المسلمين. وهو بهذا التحديد يمكن ان يكون مقابلاً لـ: الباري، العقل الأول، المحرك الأول. مع فارق اساسي هو ان الفيلسوف التاوي لا يميل الى تحميله مطلقه بعداً مفارقاً لانه لا يتعامل مع الالوهية.

أيمكن ان يكون اذن هو القوة الكامنة في الاشياء؟ يحدد تشوانغ تسه ان التاو تنتج الملاء والخلاء لكنها ليست ملاء ولا خلاء، تنتج الذبول والهلاك لكنها ليست ذبولاً ولا هلاكاً، تنتج الجذور والاعصان لكنها ليست جذوراً ولا اغصاناً، وتنتج التراكم والفرق لكنها بنفسها ليست متراكمة ولا متفرقة.. اي شيء هنا غير القوة؟ التاو ليس شيئاً وهو مبدأ الاشياء ومبدأ الشيء هو طبيعته كما تقول الفلسفة الاسلامية، بمعنى آخر هو تلك القوة

السارية في الموجودات والتي تعطىها الحركة والسكون. واذا يكون قد وجد قبل التشكل وقبل البداية دون ان يكون قديماً، وفي اعلى الاشياء دون ان يكون عالياً وفي ادناه دون ان يكون سافلاً فهو ذلك الأمر الذي لا تتعين له جهة، ولازمان. وليس ذلك غير هذه القوة المنزهة عن الصفات ولكن القادرة على ان تتحقق، أي على ان تفعل. والنص على تحققها هو ما يعطيها صفة الفاعل دون قصد ومن هنا يرفض تشوانغ تسه ان يعطيها صفة الفعل رغم اضطراره الى استخدام العبارة المشعرة بذلك، وهو اضطرار ناتج عن محدودية اللغة.

يرى باحث غربي ان التاو قريب من لوغوس فيلون فيلسوف اليهود المعاصر للمسيح الذي تحدث عن روح إلهية، كونية غير متشخصة^(٨). وهو على جانب كبير من الصواب. لكن التاو يمكن كذلك ان يشبه "عقل" افلوطين الأول لأن المؤسس نص على تسلسل (فيضي؟) يولد فيه التاو واحداً، ومن الواحد يأتي اثنان ومن الاثنين ثلاثة ومن الثلاثة تأتي كل الاشياء. لكن التاوية تتحدث عن الصدور، عن المبدأ دون ان تدخل في متاهات "الواحد لا يصدر عنه إلا واحد" لأنها بصدد البحث عن الظهور المعلن للاشياء الطبيعية وليس عن الكائن البسيط المتميز الذي لا يصح له الاختلاط بموجوداته كما اراده افلوطين. وفي كل مرة يتحدث فيها التاويون عن تاوهم لا نجد هذا التوجس الذي سيطر على الافلاطونية الجديدة ومن بعدها على فلاسفة الاشرار المسلمين من ان يتكرر الواحد ويتركب البسيط فيفقد طبيعته الذاتية ويتوقف بالتالي عن ان يكون روحاً للكون او خالقاً او واحداً فياضاً، لأن التاو يستقر في صميم الكون، داخل الفلك وليس خارجه.

على أننا لا نلبث ان نصطدم بفكرة محيرة حين يتحدث التاوي هواي نان(١٢٢ ق.م) عن استجابة الاشياء تلقائياً للتاو^(٩) فهي تذكرنا بمحرك ارسطو الأول الذي لا يتحرك وانما تتوجه اليه الاشياء بحاسة العشق التي في داخلها. فهل يريد صاحب "التوهج العظيم" ان يقول بأن التاو معشوق الكائنات وان فعله لا يتجاوز هذا الدور السليبي؟ ليس لدينا جواب قاطع. لكننا نعرف من الجهة الاخرى ان التاو مبدأ في داخل الطبيعة يفعل فيها بالمباشرة والملامسة لا بالايحاء ولا بالعشق. ومن هنا ليست الاستجابة التلقائية في ذات التاو بل في الاتجاه الذاتي الى الحركة من خلال المبدأ، وبالتالي فهذه الاستجابة التلقائية للتاو لا يمكن حملها على غير الارتباط بالمبدأ المحرك، الذي تصدر عنه الاشياء بحكم طبيعته صدوراً تلقائياً طبيعياً، أي لا قصدياً ولا صناعياً، والتاوية ضد الصناعة والصنعة ليس في الطبيعة فقط، بل وفي المجتمع ايضاً. على ان التاو يملك بدوره بعض شمائل المحرك الذي لا يتحرك، بقدر ما تعنيه الحركة من وقوع التغير في ذات الكائن، فالتاو باق وسط المتغيرات اي أنه لا يزول لأن مناط خلوده هو ديمومة الفعل المتساوقة مع ديمومة الوجود، فلكي تبقى يجب ان تواصل الحركة، حقيقة راهنة حتى في الزائل الذي يرتهن زواله بتوقفه عن الفعل، عن الحركة، وما يميز الخالد عنه انه دائم الفعل، ومن هنا اذ يبقى التاو وسط المتغيرات فلانه لا يكل عن التغير وليس لأنه ثابت كماهيات ارسطو.

التاو مبدأ للطبيعة، وعليه مبني التاوين في تفسيرهم للوجود. ولهذه النحلة شغف بدراسة الطبيعة وضعها في معارضة الكونفوشييين الذين لم يجدوا في الطبيعة ما يغيرهم بالاستطلاع، وجعلها موضع انتقاد فلاسفة المجتمع، وطلعتهم شوون تسه، لانهم اعطوا الطبيعة اكثر مما تستحق. التاوية

اول فلسفة طبيعية في الصين، اول محاولة لدراسة العالم دراسة فيزيائية ولكن من خلال الفلسفة. واذ توصل رائدهم لاوتان الى فرضية التاو كمبدأ للموجودات فقد ترتب عليهم البحث عن الكيفية التي تخرج بها هذه الموجودات من رحم التاو.

يتساءل الاب لاوتان عن منشأ التاو فيقول لا أدري من أين هو؟ على أنه لا يلبث ان يقول مرجحاً:

يبدو انه كان قبل المهيمن.

وماذا يفعل؟

ينتج ويوفر دون ان يتزود.

وكيف يفعل؟

هو والموجودات كالبحر والترعة. ان المبدأ لا يرهن نفسه في حالة تستهلكه بل ينتج باستطالة لا تنفصل عنه. والكائنات هي استطالاته التي لا تنقص منه شيئاً^(١٠).

والاستطالة قريبة جداً من معنى التمدد في الكيمياء. ويلجأ "لاو" الى هذا الفرض لثلا يعرض المبدأ للنقص والاستهلاك، أي للاندثار والزوال. وربما شممنا في هذا التقرير رائحة الثبات في كمية المادة.

وفي نص اخر ينسب الى لاوتان نفسه بيان ايضاحي لسيرورة الاستطالة، يشبه فيه المبدأ برق ذي طرفين على شكل منفاخين ينفخان دون استنزاف نفسيهما بشكل متناوب ودون توقف^(١١). ويعترف لاو بالعجز عن استكناه هذا الفعل فيقول ان محاولة فهمه بالكلام لا جدوى منها. لكنه يعود فيشرح ان قوة الاستطالة في المبدأ هي الام الخفية لكل الاشياء

وبهذا الفعل المتناوب الخفي تنشأ السماء والارض، وهما طرفا المنفاخ، ومن المبدأ نفسه تكون قوة الانتاج الشاملة التي تعمل بواسطة السماء والارض، بين السماء والارض، اي في وسط الزق وهو الفضاء الوسيط، فنتج كل المحسوسات، عملاً طبيعياً متناوباً ومتصلاً بشكل ارتدادي لا ارهاق فيه ولا استنزاف. وأول ما ينتج عن الفعل هو الهواء الأوسط (التشي) وهو المادة العماء، ومن هذه المادة وبتدخل قوتي الايجاب والسلب الصينيتين (الين واليانغ) تنشأ المحسوسات كلها.

يضع الأب لاو بهذا التقرير شيئاً قبل المادة هو المبدأ الذي يتحرك على شكل منفاخ ذي متناقضين. ولا مجال للافتراض مع ذلك بأنه يقصد شيئاً خارج العالم من طبيعة غير مادية، فهذا التصور لا مكان له عند التاويين. ان المبدأ كما ينص عليه لي يوكو (٣٩٨ ق.م) ومن بعده تشوانغ تسه وليه تسه ليس روحياً بل مادي وهو لا يُدرك ليس بسبب تعاليه بل لأنه في غاية الدقة والضآلة^(١٢) ومن البين ان هذه هي صفة البسيط الذي منه كل الموجودات، كما يقول الشيرازي، لكن ما الذي دفع الى هذا البحث عن كائن مادي سابق للمادة الأولى؟ انه الحاجة الى تشخيص القوة المنتجة في الكون تلك الحاجة التي شغلت الفلاسفة من الصين الى ملطيا دون ان تبلغ بهم الى شاطئ الحل.

وقد ارتهنت هذه الحاجة عند التاويين بالبحث عن البداية، فمادام هناك كائن مادي سابق للمادة فلا بد ان تكون لهذه الاخيرة نقطة انطلاق شرعت منها بالوجود. هذا ما يوحيه بيان التاويين الثلاثة تشوانغ وصاحبيه^(١٣):

"في البدء كان ثمة كائن فرد، ليس عاقلاً بل قانون قدري، ليس روحياً

بل مادياً. لا يُدرك بفضل ضآلته. لا متحرك. ومنه اشتقت جميع الموجودات. وجاءت هنيهة، لا ندري لماذا، بدأ فيها هذا المبدأ يصدر فضيلته التي اتخذ فعلها حالين متناوين هما الين واليانغ - الذكر والانثى، الموجب والسالب، أو القوة التي تتضمن كلا منهما. وهذان انتجا بالتكثيف السماء والارض والهواء بينهما والقوى غير العاقلة التي انتجت الكائنات الحساسة. (الأحياء).^(١٤)

والتاوية تتحدث كثيراً عن البداية ضمن حاجتها هذه الى تصور الكون والقوة المنتجة فيه، وفي مجرى التأمل الذي يسوق انطلاقةً من الجزئي، الى افتراض اول واخر لكل ما في الكون. لكن التاوية تعرف ان هذه البداية نسبية فهي بداية بالقياس لما بعدها فقط. لنقرأ هواي نان^(١٤).

”كانت هناك البداية.

كانت هناك بداية تسبق هذه البداية.

كانت هناك اسبقية بداية حتى قبل اسبقية هذه البداية.

كان ثمة الوجود.

كان ثمة اللاوجود.

كان ثمة ليس بعد بداية للاوجود.

كان ثمة ليس بعد بداية لما هو ليس ثمة بعد بداية للاوجود.

البداية اذن ليست بداية، وهي لذلك متعددة متناوبة، ولم يكن العربي محمد الباقر مغالياً حين قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو ابونا الف الف آدم أو أكثر^(١٥). وآدم هو بداية الانسان الحاضر في الفكر الديني لكن امام الشيعة حولها بداية تاوية فهي مسبقة بألف الف بداية.. والعدد للتكثير لا

للتحديد ومن المعتاد ان يستعمل لهذا الغرض أعلى رقم يعرفه اهل اللغة المعنية، ومنه استعمال أهل الصين للوانغ - عشرة آلاف - لما لا ينتهي من الاعداد لأن الوانغ اعلى رقم في لغتهم.

مهما يكن الحال فإن الفلسفة مضطرة للبحث عن بداية العالم الذي تعيش فيه وهي معترفة رغم ذلك بأنها ليست بداية إلا بالنسبة لسكان هذا العالم او هذه المرحلة من العالم. وتدرك التاوية شأن معظم فلسفات الشرق والغرب ان البداية تتشكل من شيء سابق، هو عندها العماء الناتج من استطلاات المبدأ الأول. وليس في علم التاويين نشأة من العدم، وهم مع الملا صدرا، في تقريره:

"الليس المطلق ليس قابلاً لشيء".

فالعماء التاوي هو "ليس نسبي"، تتحدد ليسيته في كونه لا متشكلاً:

في البدء تكون السماء والارض رتقاً، نص عليه القرآن فيما بعد^(١٦)، والفصول الاربعة، هذا ما يقوله هواي نان، لم تنفصل بعد وعشرات الوف الاشياء لم تولد، والصور غير منظورة. ثم يبدأ كل ذلك بالظهور مع استطالة التاو فتميز السماء عن الارض وتظهر الفصول الاربعة وتتوالد الاشياء. ولهذه السيرة العظمى يضع له تسه اربع مراحل كبرى^(١٧):

مرحلة القفزة الكبرى وهي تسبق ظهور المادة العماء وتتصل بالكائن اللامتناهي، وهي الصورة المنفية في المبدأ والنابعة من سكونه المطلق.. وينشق من هذه المرحلة:

الاصل الأكبر - مرحلة المادة العماء (اللطيفة).

وتنبثق من هذا الاصل:

البداية الكبرى - مرحلة المادة الملوثة.

ثم: التدفق الأكبر - مرحلة المادة اللدنة، الجواهر العينية، الكائنات المادية الحقيقية.

وتنتج الكائنات نفسها بهذه الطريقة: المادة الانقى تصعد فتكون السماء والاقل نقاء والاثقل تهبط فتكون الارض. ومن المادة الافضل مزاجاً، المتبقية في الخلاء الوسيط، يكون الانسان -"الانسان مصنوع من افضل مادة اولية في الكون؟". " لاحظ تكريم التاوية للانسان، لكي تتذكر ما يقوله المسلم فخر الدين الرازي: النفس الانسانية اشرف النفوس في هذا العالم والبدن الانساني اشرف الاجسام في هذا العالم.

ويكاد له تسه في هذا المسلسل ان يبدأ من خارج العالم اذ يتحدث عن الصورة المنفية في المبدأ الذي يتمتع بالسكون المطلق، وهو تصور تاوي لاحق ربما كان متأثراً بالفلسفات التي ظهرت بعد التاوية وحملت نزعات ميتافيزيقة مختلفة.

ويصب مسلسل له تسه في نفس نزعة البحث عن البدايات لدى التاوين. وكان المؤسس قد وضعها في مسلسل شبه فيضي:
من التاوي يأتي الواحد. من الواحد يأتي اثنان. من الاثنان يأتي ثلاثة. من الثلاثة يأتي كل الاشياء.

ويعتبر فونغ يولان هذه العبارة مرموزاً للقول بأن من الكائن تأتي كل الاشياء فالكائن واحد، والاثنان والثلاثة هي بدايات لما هو اكثر^(١٨). ونعود الى لاوتسه وتشوانغ تسه فنجدهما يتحدثان عن قوة تفيض من المبدأ الاوحد فتتولد منها الاشياء. هذه القوة هي ال تي . وهي الاقنوم الثاني في

التاوية وتولد الأشياء بالتركيز والاتساع المتعاقب وفي الأشياء المتولدة منها خطوط معينة تحدد صورها الجسمانية التي تتضمن المبدأ الحيوي. يعني ذلك ان ال تي يعطي الوجود للأشياء، اما الماهيات فتنشأ في داخل الأشياء: كل كائن يؤلف بطريقته الخاصة طبيعته الخاصة كما يقول تشوانغ. والفلسفة الصينية لا تفرق بين الماهية والوجود، شأن الفلسفة الاغريقية، لكن تشوانغ تسه يضع بهذا التقرير اساساً للتفريق بينهما. واذا شئنا ان نتوسع في ارتياد افق هذه العلاقة بين الوجود المعطى من ال تي والصورة المعطاة من الذات فإننا بازاء الاوليات التي شكلت نظرية الملاصدرا الشيرازي عن اصالة الوجود. وهي فكرة يمكن فقط استخراجها بالتضمن لان الفيلسوف التاوي لم ينظر الى المسألة بنفس العين التي نظر بها فيلسوف شراز.

ذكرنا في السطور السالفة أن الين واليانغ تتدخلان في توليد الأشياء من المبدأ. والين رمز الذكورة والايجاب، واليانغ رمز الانوثة والسلب. ويدخل هذان الزوجان في فلسفة الطبيعة الصينية ليفسرا تقابل الأشياء وازدواجها وتعاقبها. وتبعاً لتشوانغ تسه، يصدر الين واليانغ عن المبدأ وهما يؤثران في بعضهما ويدمران وينتجان بعضهما وبهذا الفعل المتبادل الذي يقومان به تتعاقب الأشياء وتزدوج بعد ان تكون قد تركبت بفعل ال تي.

ويمكننا ان نفهم من ذلك ان وظيفة هذين الزوجين هي، اذا استعملنا لغة المسلمين، اعطاء الصور النوعية للموجودات. وهل هما خارج الأشياء ام داخلها؟ يستفاد من افادة تشوانغ التي اوردناها للتو انهما ليسا كائنين متشخصين وانما قوتان متناوبتان تتكون التشكيلات المختلفة للعالم المادي من فعلهما المتبادل، لا سيما وقد نص على ان الأشياء تملك في ذاتها طبيعتها الخاصة فلا تحتاج إلى أن تستعير قوة من الخارج لكي تتصور. هنا اذن فرض

اخر، يكمل فرض التاو وال تي، للقوى التي تعمل في داخل الكائنات فتمنحها وجودها وماهيتها. وقد وضع هواي نان هذه الحقيقة في نصابها الاكثر مادية، ففي مشروعه للنشأة يتقدم الين واليانغ نحو الملوّس حين يكونان النار والماء، التعبير الارضي عن الين واليانغ، وهذان ينتجان سائر الاشياء المحسوسة.

هذه السيرورة الكونية خالدة، بمعنى انها مستمرة، متصلة مادامت التاو ممتدة مع الكون امانة من التغير والفساد. واستمرارها افقي لا عمودي، دوار، لا ينتقل من الادنى الى الأعلى كجواهر الشرازي بل يتحرك حركة مستديرة ارتدادية. والارتداد هو حركة التاو، كما يقول الاب لاو، والتقدم نحو موقع جديد يعني الارتداد الى الموقع السابق في حركة دوار تستمر مادامت المادة، ومادام التاو، وهما بذلك ينتجان نفس الاشياء من خلال ما يسميه "التعاود" في حركة التاو. ومن هنا يستمر الوجود، ولكن في وتيرة واحدة، لا جديد فيها.. والكون التاوي متشابه لا ينتج إلا نفسه، ولذا تنعدم فكرة التقدم عند التاوين، لكن فيرغسون ينفي ان التاو رجعي. وهو ما يتأكد في فلسفة كوو شيانغ (انظر التذييل في آخر الكتاب).

نأتي الى التغيرات على الارض، مخلوقات الارض وكيف تتشكل ومن أين تأخذ صورها البالغة التنوع.

ليه تسه:

"الارض اصل كل الاشياء، جذر وستان كل الحياة"

كائنات الارض اذن من الارض وليس من خارجها. لم ينزل الى الارض طاريء يضيف اليها مادة او صورة تكمل نقصها الذاتي. فالارض كاملة في ذاتها.

ومن أية هياولى تشكلت هذه الموجودات؟

من الماء.. الماء هو دم ونَفَس الارض يجري في جسدها كما يجري الدم في العروق، وله من السجاياء مالىس لغيره، فهو يحب ان يغسل شروق الانسان وهذا يمكن ان يسمى حبه للخير. وهو يتلون بحسب موقعه، يكون حيناً اسود وحيناً ابيض، وهذا يمكن ان يسمى جوهره. وعندما تقيسه لا يمكنك ان ترغمه على الاستواء في القمة فهو يفعل ذلك بنفسه متى ما امتلاً الاناء، وهذا يمكن تسميته: سجية اعتداله، وليس من فراغ لا يمكنه الانصباب فيه حتى إذا بلغ مستواه توقف، وهذا يمكن تسميته: سجية انصبابه. والناس كلهم يحبون الصعود لكن الماء يسرع الى القعر، ومبدأ الذهاب الى القعر هو "قصر التاو" واداة الحاكم الحق (التاوية كما سيأتي تدعو الى التقليل والكفاف).

وللماء سجاياء الاساس: اللاطعم، وهو اصل الطعوم الخمسة، اللون الأبيض، وهو اصل الالوان الخمسة. وهكذا فالماء هو المستوى المعيارى لكل الاشياء والقاسم المشترك لكل الحياة، والوسط الذي يتبوأه كل مفقود ومحصول. وليس من شيء لا يمكن للماء ان يملأه ويقيم فيه، فهو ينتج بين الصخور والمعادن ويتجمع في كل الكائنات الحية. وهو أخيراً القوة التي تستمد منها النباتات والحيوانات شكلها ونموها وبالتالي فلا شيء يمكنه ان يقوم بما يقوم به الماء.

هنا نجد انفسنا أمام قاسم مشترك للاستذهان السومري وامتداداته في فلسفة طاليس ثم في الاسلام: كان الماء ولم يكن شيء. هكذا افادت اساطير التكوين السومرية، وهكذا قال اول فلاسفة الاغريق. وهو ما قاله القرآن فيما بعد: "وكان عرشه على الماء... وجعلنا من الماء كل شيء حي".

وجدير بالالتفات هنا التحري الاستقرائي لسجاياء الماء التي تميزه عن غيره وتعطيه الملكة التي توصله الى ممارسة الخلق؛ الفيلسوف التاوي هنا ذو نزعة تجرية واذا لم يكن قد نجح في اقناعنا بأن الماء هو الخالق فلا بد لنا ان نعترف له بصواب المنهج وهو يستقرئ، قبل ان يستنتج. وينبغي لذلك ان لا نتهم الحكيم ليه تسه بالتبسيط وهو يشرح لنا أوصاف الماء التي نشاهدها بالعين المجردة فهو ينطلق من هذه الأوصاف ليستخلص جوهرأ فاعلاً يستمد قدرته على الخلق من المعاني التي تجسدت فيه وليس من محض حقيقته المتوارية السارية في الطبيعة. ونيد هام على حق حين يقول: انها مسألة جوهر وروح الماء ذو القوة السحرية. ولننظر في هذا المثال لنرى كيف يمارس الماء عملية الخلق من خلال تصيراته.

يقول الحكيم: "الكائنات البشرية تتكون من الماء: الجوهر النوي للرجل والتشي للمرأة يتحدان ويفيض الماء ليصوغ شكلاً جديداً، ولكن بعد ان يكون قد تخثر وتصلب حيث ينشأ الكائن ذو الفتحات التسعة والأعضاء الخمسة:". والتشي هو الجوهر الصيني، المونة التي تدخل في اصل الاشياء، واختصاص المرأة به في هذا النص ربما يعبر عن قناعة ما بأنها مصدر كينونة الانسان، وعلى اية حال فالمطلوب هو دور الماء. وكيف تتشكل الاشياء من مونتها؟، يتحدث تشوانغ تسه عن سيرورات تخلخل وتكاثف وانفصال واتحاد تقف وراء الكون والفساد: التكاثف منشأ والتخلخل مفسد، وكذلك الانفصال والاتحاد. وهي حركة ابدية للين واليانغ تذكرنا بالحركة الابدية لهواء انكسيمانس وابيرون انكسماندرس، تذكرنا فقط، فليس في طوقنا الادعاء بأن الفيلسوف التاوي قد سمعها من احد وهو يعتكف داخل السور العظيم، ولا يعرف شيئاً عن "البرابرة" الذين يعيشون فيما وراءه. وتؤكد

لدى تشوانغ من خلال سيرورتي التخلخل والتكاثف علاقة الاشياء ببعضها، اعتمادها على بعضها في الكون والنمو والانحلال. فليس هناك خلق مستقل، وليس هناك نشأة دفعية. التخلخل والتكاثف متدرجان، متناوبان، تبدأ الكينونة، من اللاصورة ثم تتصور بالاتحاد حتى تبلغ الصورة ذروة اكتمالها، وهي في هذه الاثناء خاضعة لعشرات الوف التأثيرات، متعلقة بعشرات الوف الاشياء، ثم تأخذ عند نقطة الاوج في الانحدار حيث يبدأ التفكك والانفصال فالتلاشي الذي يسمح بدروه لشيء اخر بالظهور عبر سيرورة اتحاد جديدة. لكن هذا محض افتراض لتسهيل الفهم، والا فالحدود بين البداية والنهاية من الضالة بحيث لا تدرك، وبين نقطة البدء ونقطة المنتهى عدم تميز يصعب معه تخصيص احدهما بالاشارة، لأن الكينونة لا تجري وقف ناموس الميكانيك بل هي شبه سيرورة ديكالتيكية. يقول تشوانغ تسه: الين واليانغ يؤثران ببعضهما يدمران ويتجان بعضهما. الفصول الاربعة يتخلى بعضها لبعض ينتج بعضها بعضاً وينهي بعضها بعضاً.... ومن هنا يأتي الانفصال والاتحاد للذكر والأنثى في تغير متبادل... التعاسة والسعادة ينتج بعضهما بعضاً. السيرورات الوئيدة والمسرعة تتدافع، تتداخل الاشياء بتأثيراتها المتبادلة، الآن تمضي صعداً، الآن تدور، وحيثما تتلاشى تنبعث ومهما انتهت تبدأ..

وتداخل الاشياء هو مناط وحدتها:

كل شيء هو بعض شيء

ليس من شيء لا يكون بعضاً لشيء"

ويغالي تشوانغ في ديكالتيكه فيتساوى عنده البدء والمنتهى حتى ليفقد القدرة على تمييز الاشياء:

”ان تقوم بتمييز هو ان تقوم ببعض التركيب. لكن البناء كالتخريب. وبالنسبة للأشياء ككل لا يوجد بناء او تخريب: انها تميل الى الاتحاد وتصبح واحدة.”.

لكن الديالكتيك ليس وحدة فقط وإلا وقعنا في احادية برميندس، في كونه المصمت الذي لا يقبل التعدد ولا التضاد. فهل يريد تشوانغ من هذا التوحيد الصارم للموجودات ان ينكر تمايزها، ان يتجاهل ان الكون الواحد اشياء وليس شيئاً واحداً؟

ليس لدينا اجابة جاهزة، لكن تشوانغ يقول بنسبية الاشياء حيث ينعدم الفرق بين الكبير والصغير والشاهق والغائر وحيث يتسع منبت شجرة واحدة لما يتسع له جبل تايشان. وبين نسبية الكائنات ووحدتها رحم ماسة: ان ذوبان الفروق بين الشيء والشيء هو عين الوحدة، التي تضع منبت الشجرة في مكان جبل تايشان وجبل تايشان في منبت الشجرة. لكن النسبية لا تلغي الهوية، وإلا لم تكن نسبية بل وحدة برميندية مطلقة، وهذا مالا يصرح به تشوانغ الذي يتحدث عن الاشياء بوصفها اشياء اي كتلة من الكائنات المتمايزة بالاسم والهوية. ان ما يريدنا ان نفقهه لا يتعدى في الحق هذه السيرورة الديالكتيكية للكون والفساد، وهو مالم يخطر على بال ارسطو الذي تصور للسعادة شروطاً من جنسها، اذا اكتملت كانت السعادة واذا لم تكتمل لم تكن، اما ان تأتي السعادة من التعاسة فتلك هي الهرطقة التي يأبأها منطق الثالث المرفوع وقانون عدم التناقض.

هذه الوحدة التبادلية تلف موجودات الارض كلها. وهي سر ديمومتها في هذا المسار البعيد، اللابدئي واللانهائي. لكن الارض ليست الا جزءاً من الكون من هذه المادة المنبسطة التي تملأ فراغ العالم. وهي بالتالي في وحدة مع الكل:

السماء والارض، وانا جئنا الى الوجود معاً وكل الاشياء معي واحدة." ولا يذهبن وهم القاريء الى الكون الدفعي فالحكيم التاوي لا يعنيه، لانه لا يعرفه، وليست المعية هنا الا وحدة الاصل والمنشأ، وحدة الشروط والعلاقات التي يوجد الشيء مرهوناً، مشروطاً، بها، وهي في اخر المطاف: نشوء الكل من المبدأ، وعودته الى المبدأ.. التوحد في التاو. ها نحن امام وحدة الوجود: ليس التاو، عرشاً يحمله ثمانية، بل مطلق داخل في تخوم النسبي. وهو كما علمت فيما سلف حاضر في الكائنات لا يفصله عنها مسافة في الزمان ولا في المكان، ذلك مايقوله تشوانغ: هو في كل مكان. وعندما سئل: مثله لنا قال:

انه هنا في هذا النمل، في الادغال، في الأجر والقرميد.. وفي الروث ايضاً.

ان ما تطير منه حنابلة الاسلام يصرخ به تشوانغ بلا حياء. لقد هالهم ان يدعي المتصوف ان ربه، حالّ في كل شيء وكل مكان: "وهو معكم اينما كنتم". وما دام قد توحد في موجوداته فأني شيء يخلو منه؟ ذلك هو مقتضى الوحدة في الوجود بصرف النظر عمن يكون المطلق، رب ابن عربي ام تاو تشوانغ تسه. وهو في هذا الحلول لا بد ان يفقد تفردة مكتفياً من مطلقيته بالخلود في الحركة، أي بالثبات وسط التغيرات، من اجل ان يبقى رافداً للموجودات. وبهذه الطريقة يتمود المطلق ليصبح القوة الكامنة في الشيء، الحركة له، وليكن هذا الشيء ذهباً او روثاً فحركات الطبيعة واحدة في كل مخلوقاتهما.

ولكن لماذا نشم من تشوانغ رائحة التسبيح لهذا المطلق الذي احله في الروث؟ يمكن في الحقيقة ان نبصر في هذا تكريماً للوجود والا فقد انكرت

التاوية ان يكون للعالم صانع من خارجه. يقول شيانغ فو، من تاويي القرن الثالث للميلاد:

"أريد ان أسأل ما اذا كان الخالق ام لم يكن؟ اذا لم يكن فكيف خلق الاشياء؟ واذا كان فمعنى ذلك انه واحد من هذه الاشياء، وكيف يستطيع شيء ان ينتج اخر؟"

ويخلص شيانغ من هذا التساؤل:

"من هنا ليس من خالق. ولا شيء يُنتج شيئاً. كل شيء يُنتج نفسه ولا يُنتج من الغير. هذا هو النهج السوي للكون".

لكن الاستاذين لاوتر تسه وتشوانغ تسه تكلموا عن التاو بوصفه موجوداً ولعلهما فكرا بالتعويض به عن الخالق الشخصي باحلال مبدأ غير شخصي محله. فماذا يقول التلميذ شيانغ؟ هو طبعاً يقول بالتاو جرياً على سنن الاساتذة، لكنه يقوم بطفرة، من اجل ان يضع التاوية في نصابها المادي، حين يؤول التاو الى "اللاشيء". يقول شيانغ: ان قول التاويين الاوائل بأن الاشياء تنشأ من التاو يعني ببساطة ان كل الاشياء تنشأ من انفسها. ومن ثم قالوا ان التاو قادر على اللاشيء. "ويستطرد مؤكداً:

"ان القول بأن أي شيء منشق من التاو يعني انه منشق من نفسه".

مادية خالصة، يريد شيانغ ان يجرد فلسفة الاساتذة من اي هاجس ميتافيزيقي فيضع التاو مرادفاً للشيء على ان التاو ليس الها بحال، ولم يكن لا المؤسس ولا تلامذته الاقربون مقرين بخالق فوق الاشياء وان تساءلوا عنه احياناً. لكن ما ينكره المادي شيانغ هو هذا البخور الميتافيزيقي الذي احاطوا به المطلق، وكأنه خاف من ان يصبح معبوداً فأمر بقطعه، كما

فعل عمر بن الخطاب من بعده بالشجرة. ان شيانغ فو احد الملحدین الکبار
في تاريخ الفلسفة.

واذ تنكر التاوية وجود المهيمن فانها لا تقول بالصدقة، ان احساس
الحكيم التاوي بحكمة الوجود واتساقه وانتظامه، مرهف جداً، ومن هنا
كان التاويون اقدم من استبصر الضرورة في العالم واقدم من قال بالترابط
بين الاشياء وقنون تحولاتها كما قنن حدودها وفاعلياتها:

"لم نأت الى الحياة بغتة، ولا بالصدقة. الكون ممتد للغاية، الاشياء عديدة
للاغاية ونحن بينها مانحن عليه تماماً. مالسنا نحن لا نستطيع ان نكونه. ما نحن
عليه لا يمكن الا ان نكونه ماليس لنا ان نفعله لا نستطيع ان نفعله. ما يسعنا ان
نفعله لا يسعنا الا ان نفعله."

وهذه ضرورة تقرب من الجبرية، لولا ان التاويين يخرجون منها
بالنقيض:

".. دع كل شيء يكون ما هو عليه فسيكون السلام".

واذ تقر التاوية بالضرورة فهي تنكر الغائية. وعن الغائية يرد في كتاب ليه
تسه حكاية ظريفة لها مدلول عميق نختم بها هذا القسم من التاو:

اقام السيد تيان، من دولة تشي مأدبة في قصره حضرها الف ضيف.
وكان يجلس في وسطهم فصارت اصناف السمك والطرائد تمر من امامه
فقال باستمتاع شديد:

"كم هي سخية السماء على الانسان! تصنع السماء خمسة اصناف من
القمح للنمو وتجلب قبائل مزعنة ومريشة، مخصوصة لمعتنا."

صفق جميع الضيوف ما خلا ولدا للسيد باو في الثانية عشر قال: "انها

ليست كما قال سيدي. ان العشرة آلاف (الوانغ) مخلوق في الكون ونحن
انفسنا ننتمي الى نفس الفصيلة. وفي هذه الفصيلة لا يوجد نبيل ووضيع. انه
فقط بسبب الحجم والقوة او المكر، يسود احد الانواع على الاخر ويتغذى
احدها بالآخر.. ولا واحد منها أنتج لخدمة اغراض الاخرين. الانسان يمسك
ويأكل ماهو مناسب لطعامه، ولكن كيف يمكن اعتبار ان السماء انتجتها له
تماماً؟ ان البعوض يمتص من دمه والنمور والذئاب تلتهم لحمه، لكننا لا نستطيع
القول ان السماء انتجت الانسان لمنفعة البعوض والذئاب والنمور".

التاؤ في المجتمع

بساطة التاؤ هي بساطة الجوهر المحرك للأشياء، وكما قال الملا صدرا الشيرازي فالبسيط هو أصل الكل. نقطة مشتركة بين الفلسفات: الاغريقية والصينية والمسلمة، وهي على تقادما مقبولة من الفيزياء الحديثة التي أرجعت الأجسام إلى أجزاء متناهية في الصغر تدخل في عداد الجزء الذي لا يتجزأ (أي الجوهر البسيط).. لكن بساطة التاؤ لها تعلقاتها في المجتمع لا في الطبيعة وحدها، ولعل الفيلسوف التاؤي لم يكن يقصدها كحالة طبيعية إلا من خلال حالتها في المجتمع، فأصل التاؤية هو الموقف الاجتماعي المرتكس في فلسفة الطبيعة، وهي بذلك لا تختلف عن فلسفة كونفوشيوس وإن كانت تتخطاها، فقد بدأ الأول من المجتمع وانتهى إلى المجتمع، أما لاؤسه فقد بدأ مثله في المجتمع، ثم ارتقى إلى الطبيعة، ومن هنا نعى التاؤيون على منافسيهم الكونفوشييين إهمالهم الطبيعة. مهما يكن الحال فإن بساطة التاؤ كمبدأ للوجود، ترتفع في بساطته كموقف اجتماعي. وليس من خلاف بين تاؤ المجتمع وتاؤ الطبيعة إلا في السجية المخصوصة لكل منهما، وهي خصوصية تقوم على الموضوع الذي يستمد تفاصيله في حالة الطبيعة من ماهية العالم، وفي حالة المجتمع من ماهية الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً.

يستمد التاو الاجتماعي، تاو الانسان، بساطته من حالة اللافعل، وهو الاية الاولى في كتاب التاو وعليه تنبني نظرة لاوتسه واتباعه في مضمار المجتمع. واللافعل هو الصفة المشتركة للتاو ومنتجاتها: العشرة الاف شيء، ومنها الانسان. يقول لاوتسه.

"العشرة الاف شيء تعلو وتهبط بلا توقف، تخلق ولكن لا تملك، تشتغل لا لحسابها، تنجز العمل ثم تنساه، ومن هنا فهي تدوم الى الأبد" (فصل ٢).
اللافعل اذن هو سبب الابدية، ومنه فقط تستمد الاشياء خلودها. على ان سلب الفعل عند التاوين يتسع ليشمل سُلوباً اخرى:
~باللارغبة يصل المرء الى المحجوب.

وبالرغبة يصل المرء الى المشهود.*

فمن سلب الرغبة تنفذ الى الغيب، جوهر الوجود وحقيقته، مخترقاً حجاب المشهود. و:

"اللاسّم هو بداية السماء والارض".

أي انه بداية الوجود كله. فالوجود يبدأ من السلب مثلما ينتهي اليه، بل والسلب هو جوهر الوجود وحقيقته... وفي حياة البشر:

"عدم جمع الكنوز يمنع السرقة"

عدم رؤية المرغوبات يمنع تشوش القلب" (فصل ٣).

أي ان يتعرى الانسان من الرغبة والثروة حيث يصبح سلب الملكية وفاء دون الاضطراب والانتهاك. ويشبه التاو اثناء فارغاً تستعمله دون ان تحتاج الى ملئه. ولما كان التاو هو السلب المطلق فهو لا ينفد، ولا يستهلك. ان سر العالم هو الخلاء، وهو سر بقاءه ولا تناهيه. ومن هنا، يقول لاوتسه:

”يتجول الحكيم دون ان يفعل شيئاً. ويعلم دون ان يتكلم“ (فصل ٢).

وفي الحكيم يبلغ التاو اقصى تجلياته، يندمج فيه اندماج المتصوف في السر الالهي ساعة الكشف. والحكيم لذلك هو بدوره سلب مطلق: لا يفعل. لا يرغب. لا يتكلم. لا يملك. لا يأخذ. لا يفتقر ولا يحتاج ولا يتظاهر.. ولا يتبجح ولا يفاخر... فارغ كالتاو، بل هو فارغ لانه مجلى التاو وتجسيدها البشري. وهو اذ يبلغ هذه المرحلة لا بد ان يلغي ذاته، وعند ذاك يتحقق فيه ماهية السلب المطلق:

”تخلوا عن الحكمة. تخلصوا من الفطنة يسعد بكم الناس اكثر مرة مرة“.

(فصل ١٩).

وهكذا فالحكيم لكي يؤدي رسالته كمجلى للتاو يجب ان يتخلى عن كونه حكيماً، فوجود الحكمة مضاد لطبيعته كسلب مطلق. لكن هذا التخلي لا يتم رأساً. فهو يفترض المرور بمرحلة وسطى يكون فيها الحكيم حكيماً، اي يمارس الحكمة ويتعلمها ثم يعلمها. والتاوية تعترف للحكيم بدور في العالم، اي انها تعترف به، بوجوده، وربما بضرورته فلا تنفيه قبل ان يكون وانما تنتظر كينونته لتنقله الى حالة اللاشيء المرتھنة بحالة اللافعل. ومن هنا تعترف التاوية بالتعليم، يقول تشوانغ تسه.

”في الاشياء المتولدة خطوط معينة تحدد صورها الجسمانية التي يتضمن فيها المبدأ الحيوي. كل كائن يؤلف بطريقته الخاصة جبلته الخاصة. ومن هنا تحدره من المبدأ. وهي تعود الى المبدأ بالثقافة الاخلاقية والذهنية التي تقود الكائن الجزئي الى التطابق مع القوة الكونية الفعالة والاتحاد مع المبدأ الاول - الفراغ العظيم، الكل العظيم“^(١٩).

لكن التعليم هو الآخر بسيط، فهو يتم بلا كلام كما يحدده لاوتسه.

وهذا هو شرط ابلاغه الغرض المطلوب حيث يتحد بالمبدأ الاول الذي يعطيه تشوانغ ماهية الفراغ العظيم: اللاشيء وهي ماهية التاو الابدی المعرى من الأسماء والصفات والافعال.

ولكي تكون تاوياً يجب ان تكون بسيطاً في كل شيء. فالتاو يتعارض مع التركيب والغلو والافراط. والانسان التاوي هو الذي يعمل بلا فعل، أي انه ينتج ماهو خصيص به وينسحب دون ضوضاء او ادعاء او حاجة. وهذه هي حالة الانسان العادي، لكنها أيضاً شروط الدولة المثالية. وفي هذا الصدد يدعو تشوانغ الى ترك الناس للطبيعة وتحريرهم من الخوف، اي من القمع - سياسياً او اخلاقياً - وهو يرى ان كل انسان قادر على ممارسة وضعه الطبيعي اذا ترك وشأنه. يعني ذلك ان تفعل الدولة اقل ما يمكن من الفعل، وان يصدر من القوانين اقل ما يجب. فمع كثرة الاوامر والنواهي كما يقول لاوتسه يكون الاضطراب والتشوش.. على ان تشوانغ لا يكتفي بتقليص الدولة الى هذا الحد الأدنى، وانما هو يصرح بإمكان الاستغناء عنها. يقول: (٢٠)

"اذا لم يندس الناس جبلتهم ولزموا جانب الـ تي، فهل من حاجة الى الحكومة؟"

وسنجد هذا القول يتردد في الفكر الاسلامي على لسان فريق من الخوارج والمعتزلة بصيغة اكثر تحديداً: اذا اتفق الناس على التناصف ورد العدوان استغنوا عن الامام - أي عن الدولة... وعلى لسان اعمى المعرة الذي انكر كل سلطة غير سلطة العقل:

كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء.

ويتخيل الفيلسوف التاوي عصراً ذهبياً للحكم المثالي الذي ينشده وفق الصورة التي يرسمها صاحب "التوهج العظيم" الامير التاوي ليو آن: (٢١)

”دخل القدماء في حكم التاوي: الرغبة منضبطة والعاطفة مسيطرة عليها، فلم تسقط الروح في الغربة. استمدوا الراحة من سكن الخلق، فلم يزعجهم تأثير المذنبات ولا ذيل بنات نعش.. خلال هذه الحقبة كان الناس في حالة من البساطة التامة، يأكلون ويتزهون، يتمتعون بطونهم ويتمتعون، ينعمون معاً في بركات السماء ويأكلون من ثمرات الأرض، لا يتشاحنون ولا يتبادلون التهم ولا يتنازعون على الحق والباطل.. وفي ايديهم السلام والوفرة”.

هذه الصورة للماضي المفقود تقابلها صورة للمستقبل رسمها المسلمون لانفسهم فيما بعد. تقول نبوءة شيعة تنسب الى علي بن ابي طالب:

”لو قد قام قائمنا لارسلت السماء قطرها ولاخرجت الارض نباتها (الوفرة التاوية) وذهبت الشحنة من قلوب العباد (الوثام التاوي) واصطلحت السباع والبهائم (سلام شامل يعم الانسان والحيوان)، حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها الا على نبت وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه”.

وتتفق الصورتان للماضي التاوي والمستقبل الشيعي في الخروج من حالة العدوان المتبادل الى السلم الشامل ومن العوز المقترن بالخصومات الى الرخاء المقترن بالوثام، وبينهما تنفرد الصورة التاوية بالنص على البساطة كشعار للحكم المثالي الغابر، انسجاماً مع روحها العام. ويرتبط هذا النص من زاوية اخرى بصورة الماضي التي ينشد اليها الفيلسوف التاوي وترتكس لديه في حنين لا ينقطع الى حياة القدماء التي تصورها تجسيدا للافعل، في مقابل صورة الحاضر التي تقترب عند التاوي بتشويه الطبيعة: بذل الجهود الخارقة من أجل تحويلها دون أي نتيجة تذكر سوى مضاعفة رفاه الحكام و حصولهم على المزيد من الكماليات^(٢٢).

هنا نضع ايدينا على السر؛ التاوي ضد المجتمع القائم على الجهد المفرط، وهو بالتالي ضد كل مؤسسات ومرافق هذا المجتمع. وبكلمة اخرى هو ضد المدنية، اي ضد الحرب، وضد التملك، أي ضد انقسام الناس الى اغنياء وفقراء. والمدنية عند الفيلسوف التاوي هي جماع هذا كله، بدليل ان القدماء عاشوا بلا مدنية وكانوا سعداء لم يعرفوا الحروب ولم يعرفوا التمايز الاجتماعي. هذه النزعات الخطرة يصرح بها ليو آن دون مواربة، مستطرداً من استاذة الأول لاوتسه الى حظر شامل ضد كل ما يشوه حياة البشر. يقول لاوتسه: (فصل ١٢).

الخمسة الوان تعمي العين

الخمسة انغام تصم الاذن

الخمسة طعوم تفسد الذوق

النفائس تقود الى الضياع

ويضع ليو آن هذه المقررات في الصيغة التالية: (٢٣)

"قديمًا كان الملك يأخذ الف لي مربع، والملاكون مئة لي. وهذا كاف لهم. اما الآن فملكيتهم لا تعرف حدوداً، وهم يتصارعون لتوسيعها ويستخدمون الجنود لهذا الغرض حتى لقد اسالوا من الدماء انهياراً".

المعضلة اذن في التملك الزائد عن المعقول، او التملك الذي لا حدود له وهو واحد من وجوه المدنية التي ينعم بها الملوك والملاكون.

ومن اجل ذلك يكره التاويون الحرب الى حد اعتبار النصر والمأثم سواء، فالمستفيد من الحرب هم الحكام وهم الذين يعينهم النصر الذي لا يتحقق الا بمجزرة يذهب الشعب ضحيتها. وسبب الحرب كما يحدده ليو آن هو عدم

توزيع الخيرات بالتساوي ومن هنا فإن دولة ताو لا تحتاج الى السلاح كما يقول، لانها تعيد الناس الى فطرتهم وتقن حاجاتهم بالضروري دون الكمالي وتلغي الترف والنفائس فتقضي على مصدر الصراع. ويقارن مؤسس ताو بين حالتي السلم والحرب، فيعيد الى الذاكرة حلم السيف الذي يصبح محرثاً، ولذلك يندد ताويون بالعنف الكونفوشي فيقول صاحب "التوهج العظيم" ان الوسائل التي يستخدمها الكونفوشيون لارهاب العالم لا يستخدمها الانسان الكامل^(٢٤).

وهو ما يرفضه لاوتسه واتباعه الذين دعوا الى نبذ العقوبات:

"المعايير العنيفة والعقوبات الغليظة ليست ادوات ملائمة للمستبد ولا للملك"^(٢٥).

وثم اشكال كبير في هذا الصدد تثيره سطور من "تاوتي تشنغ" تقول:
(٢٦)

"السماء والارض ليستا رحيمتين

انهما تعاملات عشرات الوف الاشياء مثل دمي القش.

ولا الحكيم رحيماً.

فعنده ايضاً مئات الناس ليست الا دمي من القش".

وقد اختلف علماء الصينيات حول المقصود بهذا النص. فاعتبره ويغر عنفاً شرائعياً وقال ان الارهاب المطلق هو ، عملياً، النتيجة المنطقية لمبادئ لاوتسه. ولا يمكن الركون الى استنتاج ويغر الذي ابدى تحاملاً ضد الفكر الصيني وعالجه من زاوية مهماته كمبشر (اشتغل في الصين في العشرينات حين كانت مقسمة بين الدول الامبريالية). بينما يعطي باحث اخر هو جون

سي. فيرغوسن تفسيراً مضاداً حين يعتبر كلمات لاوتسه رد فعل ضد عنف كونفوشيوس، وهو يستشهد لهذا الغرض بعبارة أخرى لفيلسوف التاو تقول "الانسان الاعتدائي لا يموت ميتة طبيعية"، وبكلمة في المقابل للكونفوشيين تقول: "ان الطبيعة تخلق في الربيع وتقتل في الخريف"، تبريراً للقتل بوضعه على سبيل المحاكاة للطبيعة^(٢٩). ولم يوضح فيرغوسن منط التفسير لكن القرينة عنده مستقاة من الخط العام للتاوية، وهو خط مناهض كما بينت للحرب والعنف. على أن ذلك في الحقيقة لا يحل الاشكال فعبارات لاوتسه مثيرة للحيرة ويمكن تفسيرها على وجوه مختلفة، شأن الآيات المتشابهة في القرآن. ويلاحظ غريل (٣٠) أن الشرائعيين وجدوا الشيء الكثير في "المظهر الهادف" لمثل هذه العبارات فاستخدموها لاغراضهم، متجاهلين معارضة التاويين للحرب والظلم.

وقد ترجم غريل هذا النص على النحو التالي:

"السماء والارض لا تميلان الى فعل الخير فهما تعاملان عشرة الاف مخلوق بلا رحمة والحكيم ليس محباً للخير فهو يعامل الناس بلا رحمة".

وقال تعليقاً عليه:

هذا المفهوم اذا ما اسيء فهمه يمكن ان يؤدي الى نتائج مروعة. ان التاوي المستير اسمى من الخير والشر، وبالنسبة له فإن هذه الكلمات هي محض كلمات يستخدمها الجهلاء والحمقى.

ويستطرد غريل:

في هذا المفهوم للحكيم التاوي تكون التاوية قد اطلقت على البشرية ما يمكن تسميته بحق وحشاً لا يمكن، باي معيار أخذ، الوصول اليه ولا تحريكه ولا يمكن التأثير عليه بحب او كره او خوف او رجاء او شفقة او اعجاب.

ان غريل يبدو ميالاً الى تحكيم السلب التاوي في فهم هذا النص، فالحكيم اسى من الخير والشر والعالم يصعب التأثير عليه، وبالتالي فلا جدوى من الفعل. ولكن هل من الضروري ان يتضمن تقرير الواقع كما يفهمه الفيلسوف التاوي توكيداً لمبدأ؟ ان غريل لا يقول ذلك. وتبعاً لتفسير فيرغسون فان هذا المبدأ متضمن كتوكيد مضاد للعنف الكونفوشي. ونفهم من ذلك ان لاوتسه يطرح تقريره هذا مندداً لا مؤكداً لواقع. ولكن لاوتسه لا يندد بالطبيعة، والسماء والارض عنده لا تخطئان، ومن هنا يصعب قبول ما يقوله فيرغسون، كما يصعب الوقوف عند اعتباطية ويغير المتحاملة. وعندى ان عنصر السلب المطلق اساسى في تفسير هذه الآفة التاوية، لكن غريل يذهب الى ابعد من المطلوب حين يعتبر البشرية في نظر الحكيم التاوي وحشاً لا يمكن ترويضه، التاوية لا تقول ذلك رغم سلبيتها التامة، وهي من منطلق ثقتها بإمكان التغيير والتاثير (في المجال الاجتماعي) تدعو على لسان تشوانغ الى الثقافة الاخلاقية والذهنية، وتعطي على لسان الاب لاو مهمة حاسمة للحكيم، هي التعليم، بدون كلمات، اى التعليم بدون تدخل، بدون جهد زائد يحول ما هو طبيعي وغفوي الى مفتعل ومتكلف. والتاوية لا توافق على اى مفهوم اراهي، ولو من قبيل تقرير الامر الواقع، لانها ترفض في الاساس نزعة الافراط في كل شي: في الخير والشر على السواء، فضلاً عن النصوص الصريحة والمباشرة التي تدين الارهاب والحرب والعقوبات.

هذا هو مجمل ما يمكن ان يقال بصدد هذا النص المحير. ويتحمل الوحي التاوي وحده تبعات اى استغلال في الفهم او انحراف في التأويل بايغاله في تقرير السلب الى حد الافراط في التعميم مما سنجد امثلة كثيرة عليه في فصول تشوانغ تسه المترجمة في القسم الثاني. ويبدو أن الحكيم

التاوي قد استسلم لهذه التعميمات مفترضاً ان الناس سيدخلون من جيل الى جيل في قلبه ليتعرفوا عن كذب هواجسه الحقيقية..

* * *

من بساطة التاوي، يذهب الباحثون الى الحديث عن التصوف والزهد التاويين. فالبساطة مرادف للزهد، او هي جوهره، والزهد يعني عدم الافراط والاسراف بقدر ما نستطيع اعتباره مبدأ تاوياً، لكنه في نفس الوقت مضاد للحرمان. فالتاويون لم يحرموا التمتع بالطعام والشراب وانما حرموا الاسراف فيهما، والزهد التاوي في هذه النقطة قريب للزهد الاسلامي بقدر ما يتضمن الاعتدال بين التخمّة والجوع. يضاف الى ذلك شرط يخص الحكيم وهو ان يتعدّل عن السلطة. ومع ان لاوتسه كان موظفاً في الدولة فإن ذلك لم يصبح سنة لدى التاويين لا سيما وان وظيفته لم تكن سياسية بل ثقافية بحتة اذ كان يعمل في المكتبة او ما يسمى حالياً الارشيف، وهي وظيفة لا تتضمن منصباً رفيعاً. وقد حاول بعض الملوك استدراج حكماء تاويين للانضمام اليهم فرفض بعضهم متمسكاً بالمبدأ، وضعف اخرون فتعاونوا مع السلطة، ولكن بدافع تعزيز مكانة المذهب بالدعم الرسمي. وهو ما فعله المعتزلة مع المأمون وخلفائه بانتهازية فاضحة. ويتحدد منحى الحكيم التاوي في هذه ^(٥) المسألة بجواب رد فيه تشوانغ تسه على مبعوثين من ملك "وي" ارادوه على الالتحاق ببلاطه: ^(٣١)

"اغربوا عني، لا تدنسوني. انا افضل التمتع بارادتي الحرة".

لكن الحكيم قد يضطر الى قبول العمل الرسمي، وفي هذه الحالة ينبغي عليه ان يعمل بأقل جهد ممكن ، أي يراعي التاوي في اداء واجبه الرسمي الذي اكراه عليه.

ويشدّ التاويون عن مبادئ الزهد في مسائل الباه (الجنس). فعندهم ان الجماع تغذية للحياة وليس امرأ نجساً او معيباً. ويقوم الجماع التاوي على المساواة بين الرجل والمرأة من حيث اللذة ويؤكد فيه على "تهييج" المرأة بوصفه عاملاً اضافياً يرفع من القوة الحيوية للرجل. ويشترط تكتيك الجماع مشاركة ايجابية بين الجنسين وهو شرط تساعد مراعاته على حفظ الصحة وطول العمر؟ ويقدم التاويون وصفة لمنع الحمل مادام الجماع لا يستهدفه حصراً، تتم بالضغط في اسفل القضيب من جهة الخصية لتسريبمني الى المثانة لحظة القذف. وتتجاوز اغراض هذه الوصفة منع الحمل الى فائدة اخرى للرجل، اذ يقول التاويون ان التخلص من القذف يسمح للمني او جزء منه، ان يعود ليغذي الدماغ^(٣٢). وفي هذا التخريج انحياز واضح الى جانب الرجل يتعارض مع مبدأ المساواة في الجماع التاوي.

ان استثناء الباه من مفهوم الزهد مشترك بين التاويين وبعض الزهاد المسلمين، وقد نص القاضي عياض في "الشفاء" على ذلك وأوضح في كلامه على زهد النبي محمد انه يشمل الطعام واللباس والسكن ولا يشمل النساء. ولا ادري ان كان التاويين على اتفاق في هذه المسألة، فالأب لا ولا يتحدث بشيء عنها في "تاوتي تشنغ"، والكثير من أئمة التاو في المرحلة الفلسفية كانوا من النساك وفي طلبعتهم تشوانغ تسه الذي عاش حياة قرية الى حد ما من حياة المعري. فلعلها اذن من توجهات المرحلة الدينية، يحملني على ذلك ما كتبه التاوي المنشق تشين لوان عن "احتفالات ورقص طقوسي للتاويين تباح المرأة خلالها على طريقة الزواج الجماعي المقدس"^(٣٣). وتتم مثل هذه الاحتفالات عادة في جو ديني يشرف عليه الكهان، فإذا صحت الرواية كانت مرشداً لنا في تحديد المرحلة التي

حصل فيها هذا التوجه عند التاويين، وهي كما رجحت، مرحلة الدين التاوي الخارجة عن خط الفلسفة التاوية. على أية حال فإن هذه النزعة الغريبة في مضمار الجنس - الباه - ليست شاذة عن جموح وغرابة الخيال التاوي وإن كانت لتبتعد عن مقتضى البساطة التي يتجوهر فيها الموقف التاوي من الحياة.

* * *

ما هو سر هذه البساطة البسيطة في التاوي؟ ولماذا يعلن اهل التاو عداؤهم للمدنية ومؤسساتها؟

قبل ان نحاول الاجابة يحسن بنا ان نتعرف ما يقوله احفاد لاوتسه عنه. ونأتي الى ماوتسي تونغ، الخالق الجديد للصين، فنراه يعلن غضبة مضرية على التاوية ومؤسسها بلغت حداً مروعاً حين قرن في شتيمة واحدة بين كونفوشيوس ولاوتسه وشيانغ كاي شيك بوصفهم اعداء الشعب الصيني. (انظر المجلد الخامس من مؤلفاته المختارة). وقد يكون للتأثر الكبير عذره في هذا الجمع الشاذ بين رب التاو وكونفوشيوس وحاكم الصين الفاسد شيانغ كاي شيك، اذا وضعنا في الحسبان تاوية المرحلة الدينية. ولكننا نعلم من الجهة الاخرى ان الدين التاوي لا يجمعه جامع مع فلسفة الاب لاو، وهو ما يلاحظه معنا المستعرب الصيني الراحل ماتشين المعروف باسمه العربي (محمد مكين) حيث يقول: "التاوية ليست مبنية على اصول لاوتسي بل هي ناشئة عن فروعه ومشوبة بالخرافات القومية، وأن هي الا بدعة في مذهب لاوتسي ظهرت بعد وفاته بخمسمئة سنة" (٣٤). لكن ماوتسي تونغ معني ايضاً بتحديد موقف من اسلافه، موقف يراعي الظرف السياسي المتجرد عن ملابس التاريخ من اجل ان يزيح العقبات من امام الصين. والتاوية،

كدين، هي مثل قرينتها الكونفوشية، من عقبات الصين الحاضرة. ومن هنا فإن شتم لاوتسه هو من قبيل شتم الانبياء الذي يمارسه المارقون في المعتاد.

ثمة اعتبار آخر يمكن ان يطرح في هذا الصدد، ذلك ان ماوتسي تونغ لا يجهل ان لاوتسه فيلسوف وليس نبياً، ولا بد بالتالي ان تكون الشتيمة قد تأثرت بهذا الفهم وليس بالموقف الديني وحده. وها هنا سر: ان ماو كقائد سياسي، وكفيلسوف من بعض الوجوه، يقف على الشاطئ المقابل لفيلسوف التاو، اولاً لان ماو يفهم المدنية على انها معاناة الجنس البشري في انتقاله من طور ادنى الى طور اعلى، وما تنتجه المدنية من مآسي وويلات هو من آلام المخاض وليس خروجاً على الطبيعة كما يقول لاو. وماوتسي تونغ ماركسي متشدد يصل في تعامله مع الماركسية في بعض الاحيان الى حمأة المادية الميكانيكية(المبتذلة) فهو بالتالي لا يملك ذلك الحين الى طهرانية وعفوية المجتمع المشاعي التي لم يتورع كارل ماركس عن التغني بها وهو ينظر بعين الاشمئزاز الى ما تنتجه الرأسمالية المتمدنة.. ان ماو يملك فكر ماركس ولا يملك اشواقه، فلا تتوقع منه ان يوفر عذراً للسلف الكبير لاوتسه.. وسر آخر قد يكون أدهى من هذا.. أن ماو يتناحر عدائياً مع التاو في مضمار الجهد المفرط. لقد خاض ماو اكثر الجهود افراطاً، مالم يخضه قائد ثوري قبله او بعده، وبعد ان استوى على الصين القى بملايتها في معارك الجهد المفرط لتعمل بوتيرة من الافراط لا تماثلها وتيرة في كل بلاد الدنيا. وعلى يدي ماو حل في الصين محل اللافعل التاوي مبدأ اللراحة الذي يتعامل مع الفرد بوصفه آلة متحركة. وفي موقف كهذا لا يدهشنا ان يوضع فيلسوف اللافعل في قائمة اعداء الشعب الصيني الى جانب تشيانغ كاي شيك.

لكن ذلك لا يعفي ماو من نقيصة المادي المتبدل، لا سيما بعد الثورة الثقافية التي كرست انتصار الوعي الفلاحي على الماركسية المثقفة. وللمقارنة اورد موجزاً لما تحدثت به موسوعة صينية صدرت قبل الثورة الثقافية عن لاوتسه.

تقول الموسوعة، التي سحبت من التداول: (٣٥)

"يفسر كتاب لاوتسه تغيير الاشياء بالتاوية وهو يشير الى ان التاو نجم من الطبيعة. ويمكن ان يشرح التاو بأنه: "القانون الطبيعي" أو "الجوهر الذاتي" للاشياء. وقد وردت في كتاب لاوتسه بعض عناصر الديالكتيك العفوية فقد "بين هذا الكتاب ان كل شيء يحوي تناقضاً بين طرفيه وتحولاً متبادلاً بينهما. ولقد قال: تكون التعاسة من السعادة وتأتي السعادة من التعاسة" ورأى في كيان كل شيء وحدة بين الوجود والعدم بحيث يمكن للعدم ان يتحول الى وجود والوجود الى عدم. وكان لاوتسه يندد بالحكام قائلاً: ماجدوى تهديد الشعب بالموت وهو لا يخاف منه؟. بيد انه اهمل الدور الذي يؤديه الصراع في التغير المتبادل ولم ير في تحول الشيء الى نقيضه ارتقاء الى طور اعلى بل اعتبره تكراراً دورياً. وفي الحياة المادية دعا الى الكفاف وعدم السعي وراء المآثر والمفاخر متوهماً امكان عودة الناس الى الحالة البدائية.. وقد اثرت فلسفة لاوتسه في تطور الفلسفة الصينية الى مدى بعيد.."

إن هذا الاتزان المنهجي القائم على مراعاة روح الديالكتيك الماركسي في فهم التاريخ والتطبيق الحصيف لمبادئ المادية التاريخية يختفي بعد الثورة الثقافية، حيث يؤول لاوتسه الى فيلسوف رجعي وقف الى جانب المجتمع العبودي ضد المجتمع الاقطاعي المتقدم، وتُفسر فلسفة لاوتسه وتلميذه تشوانغ تسه على انها حنين الى العبودية الافلة وثورة ردة على حضارة الاقطاع. ويلاحظ هنا ان تقييم التاوية بهذا الشكل يتساق مع شتائم

ماوتسي تونغ التي استهدفت كما قلنا غرضاً سياسياً محدداً.

مهما يكن الحال فان لاوتسه اثار ويثير ارتكاسات لا تنتهي، ولا تتوقف عند حدود الصين، وتكمن اثارته في هذه اللغة المغامرة التي يستخدمها، واتباعه، على النقيض من الفلاسفة والحكام ايضاً. ان التاوية تعلن الحرب على الحياة البشرية وتدعو علناً لتدميرها واحلال حياة اخرى تتولاها دولة بسيطة هي دولة التاو التي تعتمد على خمسة اصول:

١ - مقدار معتدل من السكان.

٢ - شعب خام، غير متعلم.

٣ - سلم دائم.

٤ - عزلة دائمة عن العالم.

٥ - ... ولا مرتفعات حضارية.

انها اذن دولة البساطة التي تعود بالناس الى سنة الاولين: وهم العودة الى الحياة البدائية كما يقول مؤلفو "محيط الكلمات الصينية"، ذلك الوهم الذي يحيله نيدهام الى تصور فلسفي واع لمجتمع بدائي متجانس يحلم التاويون بينائه على انقراض المجتمع القائم.

ان الرغبة في تدمير الحضارة مصرح بها في كتابات التاويين دون موارد او خجل. وتنشق هذه الرغبة الخطرة من احساس مرير ضد امور معينة اثار تاشمئزاز الفيلسوف التاوي فانكرها، وذهب من الانكار الى الدعوة لازالة ما يسببها. واذ لم يسعفه وعي المرحلة بالبحث في العلل الموجبة لهذه الامور، فقد جمع بين المذنب والبريء في لائحة اتهام واحدة ضمنها كل ادانته. لنقرأ هذا العرض الذي يقدمه ليوآن:

"بأنحلال دار تشو اختفت البساطة وفسد الطهر وبدأت النظريات المتشككة بالظهور. وجاءت النظريات الكونفوشية وظهر الرأي الفردي فبدأت الخصومات والمباحكات. وأقام الكتاب الكونفوشيون مدارسهم للموسيقى والرقص، وبطريق كلامهم بمقتبسات من كتاب "الاغاني" (٣٦) اشتروا السمعة واشتهروا بين الناس.. نظام الطقوس في المقابلات الامبراطورية او الاجتماعية صار مفراطاً. الازياء صارت مترفة.. ولعدم قدرة الجمهور على مواجهة تكاليف الاحتفالات الطقوسية صاروا يكونون انفسهم في المدارس والروابط. وصار لكل واحد رغبة في أن يكون له رأيه الفردي ونظراته المتشككة.. لقد صاروا كهان العالم (٣٧).

المشكلة تبدأ عند ليوآن من يوم اختفت البساطة وتوقيته من يوم انحلال عترة تشو، وهذه هي ثاني عترة حاكمة في تاريخ الصين ويتصل حضورها التاريخي ببقايا المجتمع البدائي التي صمدت للدولة والمدينة، وتركت قطاعاً واسعاً من الناس يعيشون على الطبيعة والفطرة... كما كانوا منذ الوف السنين. لكن ذلك لم يستمر مع العترة اللاحقة فالتطور الاجتماعي أخذ مجراه والمدينة تسحق ببقايا الروح البدائية لحساب النظام الكونفوشي البالغ التعقيد والمناهض للطبيعة. وبصرف النظر عن دقة التوقيت التاوي لعصر البساطة، فإن المدنية التي توطدت مع الكونفوشية هي مدنية الطبقات التي تحتجن الكنوز وتحرم الناس من ادنى احتياجاتهم، وهي مدنية الحرب التي يموت فيها الوف الناس من أجل اهداف لا علاقة لهم بها، وهي قبل هذا او ذاك مدنية الجهد المفرط الذي لا يتحصل منه شيء: الفعل الذي ينتهي الى العقم، والقوة التي تنتهي الى الضعف. واذا كانت هذه المتاعب التي يلغاها الناس من ولادتهم حتى مماتهم تقترن بالدولة والمدنية فإن ازمة الفكر التاوي لم تلبث ان تمحورت حول هذا القرن، وجعل التاوي همه في انقاذ الناس

من سر البلاء فكانت الثورة ضد المدنية ومؤسستها. وهي في اصولها الاجتماعية ثورة على الوضع الطبقي الذي طرح الناس في لجة الضلال الابدي وحرهم راحة العقل والروح. ومن هنا دعوة الفيلسوف التاوي الى التوحد مع المبدأ، نفس الصدى الذي رده المتصوف المسلم في دعوة الفناء في الذات، وهي هنا مطلق الصين: التاوء المبرأ من صفات المجتمع الطبقي المتعالي عليه والمتوغل في اغوار الطبيعة، بعيداً عن المدنية والصنعة. ان العودة الى المبدأ هي العودة الى الطبيعة، اي الى ما قبل الطبقات، من اجل ان يتخلص الانسان من الرغبات المفرطة التي تقف، تبعاً لحسد التاوي، وراء الحروب وتدفع الى سن قوانين العقوبات، وتحرم الناس من حقهم في الكفاف بتكديس الذهب واليشب في ايدي الملوك والسادة.

من الواضح اذن ان التاوية منذ المؤسس كانت ثورة ردة ضد التمدن صدرت عن موقع مضاد للوضع الطبقي في الصين، منطلقة من وعي لمزايا المجتمع البدائي الذي كانت بقاياه لا تبرح ماثلة في بقاع من الصين يوم كانت تعاني مخاضات الخروج من العصور القبحضارية. والتاوية تحدد بهذا الموقف فهما للمدينة صرح به فردريك انجلز فيما بعد حين عرفها بقوله انها: "استغلال الانسان للانسان". ومن هذه الجهة يمكننا وضع التاوية في عداد ثورة ضد - طبقية تتركس فيها مأساة المجتمع التمدن. وقد ضلت التاوية سبيلها السوي حين وجهت اسلحتها ضد الاصل والفرع. وكان حرياً بها لذلك ان تثير الهلع لدى الكثيرين: حماة المدنية المتعلقين باهدابها. وبناء المجتمع الجديد الذين ازعجهم سلبها المطلق، وهي الى هذا كله مسئولة ايضاً عن الكثير من البلبلة التي يخطط لها مفكرو الطبقات السائدة مستفيدين من دعوتها للوجع الى الكفاف والنسك. ورغم انها دعوة موجهة في

الأصل لمن في أيديهم القدرة والثروة، كما هي لأهل الحكمة دون عامة الناس فإن تعميمات اللغة الفلسفية بافراطها عند التاوين تتيح استثمارها لتخدير الفقراء، أي جماهير النساك أنفسهم. لكن التاوية لا تعدم العذر بموقفها كتيار مضاد للطبقات وفي تراثها المحمل بعناصر الاحتجاج ضد الابتزاز الاجتماعي والسياسي المتلبس بالمدنية. وهو الاتجاه الذي يعبر عنه بقوة استثنائية كتاب التاو الأول (تاو تي تشنغ).

والى هذا ينبغي الالتفات الى هم كبير تشترك فيه التاوية، وبالأساس من خلال كتابها الاول، مع التصوف القطباني في الاسلام ويتمثل في سعيها لتكليف شخصية الفرد، المثقف في المقام الأول، بتكوينات حرة تتضاد مع سلطة الدولة وسلطة المال، (في حال التصوف القطباني تضاف سلطة الدين، الذي لا يتمتع في الصين بنفس حضوره الطامي في عالم الاديان السماوية) وللاستقلال عن الدولة وامتدادها الطبقي (الاغنياء) مكانة محورية في كتابات التاوين. وهي في تأكيدها لهذا النزوع، الذي تتصوره مجازاة للطبع، تتضمن ما يضاد مبدأ اللافعل بسلبيته الظاهرية، لانها في الحقيقة دعوة الى مناهضة الحاجات الطبيعية بما تقتضيه من قوة ارادة يتمتع بها الحكيم الذي لم يصل الى الحكيمية الا بعد جهد مفرط بذله في اعادة تكوين نفسه ليس للتطابق مع مقتضى الطبع بل للخروج عليه. والتاوية تنزع في مفارقة حين تسمى دعوتها "انسجام مع الطبيعة"، فهذا المطلب يستوفيه الحكام والاغنياء على نحو افضل باستجابتهم لحاجات الجسد والنفس: الأكل والشرب والجنس والشهرة. وهي حاجات تقع في اصل الطبيعة البشرية التي سيقول عنها ابو العلاء المعري انها مضادة للعقل، وان الانسان، في حكيمة المعروية، وهي تاوية أيضاً، يفني عمره في صراع ضد الطبع:

والعقل حارب تكويناً بجاهده فالعقل والطبع حتى الموت خصمان

ومن هنا سيبقى للتأوية ما تقوله لنا في كل جيل من وراء لغتها السائبة،
وسيكون في ذلك مبرر كافٍ لمواصلة القراءة في سفر التأو.

الجهامش

(١) انظر نيدهام: Joseph Nedham

Science and Civilization in China Volume II - History of Scientific Thought Cambridge University Press 1956, p154.

(٢) انظر: ويغر

Dr. Leo Wieger. A History of the Religious Beliefs and Philosophical Opinions In China.

الترجمة الانكليزية لـ Edward Chalmers Werner

Hsien - Hsien Press 1927 p568 - 569.

• تشاو قوي تشين: قوي بالقاف الحميرية الساكنة. والواو المكسورة.

(٣) ويغر:

(٤) محيط الكلمات الصينية - اعداد هان ييو تسوهاي. طبعة تجريبية لم تنشر -

. ١٩٦٥

(٥) نيدهام ٣٩

(٦) نيدهام ٣٩

(٧) فونغ يولان: A Short History of Chinese Philosophy New York 1948.

(٨) في مقدمته لكتاب "خونغ لي" - التوهج العظيم. انظر طبعة شانغهاي للترجمة

الانكليزية التي اجراها ايفان مورغان سنة ١٩٣٢ . P . ١١١

(٩) المصدر السابق - فصل حركة الروح الكونية.

(١٠) ويغر ١٤٨

(١١) ويغر ١٤٩

(١٢) ويغر ١٤٦

(١٣) ويغر ١٤٦

(١٤) التوهج العظيم، ص ٣١

- (١٥) اورده الفخر الرازي في تفسيره عن كتب الشيعة. ج ١٩/١٧٩ .
(١٦) انظر سورة الانبياء: او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما؟

(١٧) ويغر ١٥٨ - ١٥٧

(١٨) فونغ يولان ٩٧

(١٩) نيدهام ٤٠

(٢٠) نيدهام ٤٢

(٢١) نيدهام ٤٤

(٢٢) فونغ يولان:

A History of Chinese Philosophy. Translated by Derke Badde. Leiden 1953, p. 112.

(٢٣) فونغ يولان (الموسع) نفس الصفحة.

(٢٤) فونغ يولان - ص ١١٣

(٢٥) فونغ يولان - نفس الصفحة.

(٢٦) فونغ يولان - ٢٢١

(٢٧) نفس المصدر ٢٢١

(٢٨) نفس المصدر ٢٢٣

(٢٩) نيدهام ٥٦ - ٥٥

(١٩) ويغر ١٦٠

(٢٠) فونغ يولان - موسع - ١٠٦

(٢١) التوهج العظيم ٣٥ .

(٢٢) نفسه ٨١ - ٨٣ .

(٢٣) نفسه ٩٧ .

(٢٤) نفسه ٤٥ .

(٢٥) نفسه ٨ .

(٢٦) تاوتي تشنغ فصل ٥ .

(٢٧) نسبة الى المذهب الشرائعي (فاجيا) وهو من مدارس الفلسفة السياسية، اسمه

هان في تلميذ الكونفوشي شون تسه. ويقوم هذا المذهب على فكرة الدولة الفاشية التي تستخدم الارهاب المطلق لفرض القانون. وقد اقترن اعتناقه رسمياً في بعض الحقب من تاريخ الصين بمذابح كبرى ذهب ضحيتها مئات الوف الصينيين.

(٢٨) ويغر ٢٤١ .

(٢٩) انظر: مقدمته للترجمة الانكليزية (التوهج العظيم).

(٣٠) الفكر الصيني من كونفوشيوس الى ماوتسي تونغ. الترجمة العربية - ص ١٦٨

(٣١) موسع يولان - ١٠٤ .

• وي بفتح الواو.

(٣٢) نيدهام ١٥٠ .

(٣٣) نفسه ١٥٠ .

(٣٤) في محاضرة بالعربية عن الاسلام في الصين القيت وطبعت في القاهرة عام

١٩٣٧ ص ١٦ .

(٣٥) عنوان الموسوعة: محيط الكلمات الصينية. طبعة ١٩٦٥ . وقد ترجم الفقرة

المتعلقة بلاوتسه لاستعمالي الشخصي السيد شينغ تشن خو احد العاملين في دار النشر

باللغات الاجنبية في بكين.

(٣٦) كتاب الاغاني: منتخبات من الشعر الصيني القديم جمعها كونفوشيوس.

(٣٧) التوهج العظيم ٤٧ - ٤٨ .

الكتاب الأول

تاوتي تشينغ لاوتسه

روجعت ترجمة هذا النص من طرف الدكتور سامي مسلم

حول الكتاب والترجمة

كتاب تاوتي تشنغ هو اول كتاب فلسفي في الصين، ولعله اول كتاب في تاريخ الفلسفة العام يصلنا كاملاً، اذا افترضنا ان مؤلفه، هو لاوتسه نفسه، ومع التشكيك في ذلك فمن المؤكد انه تضمن تعاليمه الاساسية التي اصبحت المصدر الأم للمدرسة فلسفية شغلت الصين عشرات القرون. كتبت الفصول الواحدة والثمانون على شكل قصائد، لكنها ليست في اية حال من الشعر، رغم جنوحها في بعض الاحيان الى التشبيهات والاستعارات، فسطور الكتاب اشبه بآيات الكتب المقدسة: عبارات مكثفة، ومرموزة في الكثير منها. ويمكن مقارنة هذه النصوص في بعض المواضع بالآيات المتشابهة في القرآن، وقد تجسد ذلك في تعدد الشروح التي وضعت للكتاب، واختلاف الشراح في اغراض الفيلسوف، كما هي في تعدد الترجمات، التي اجريت له منذ القرن التاسع عشر الى اللغات الاوروبية الرئيسية، وتفاوتها البالغ نظراً للتعارض الناجم عن تفاوت فهم المترجمين، ومعظمهم من المتضلعين في الفلسفة الصينية.

ترجمتنا الحالية لكتاب التاو اعتمدت فيها على الترجمة الانكليزية التي اجراها الباحثة الصيني المتأمر ك جيافو فنغ. وفي نصوص معينة فضلت

الرجوع الى ترجمة نيدهام، عالم الصينيات الانكليزي العظيم، حيثما توفر نص مترجم بتمامه في سفره المكرس لدراسة الفلسفة الصينية وهو الحادي عشر من مسلسل اسفاره التي استوعبت تاريخ وحضارة الصين.

تنبيه حول الاسم:

ورد عنوان الكتاب في المصادر الانجليزية هكذا "تاوتي تشينغ" كما تبينه في ترجماتي وكتاباتي حول التاوية. لكن المقطعين الاولين صارا يكتبان في المعاجم الصينية الاحداث بحرف الدال. والاخير بحرف الجيم، فيكون "داو دي جينغ". والكلمات تاو وتي من المفردات التي يتداخل في لفظها صوت الدال مع التاء مما احدث هذا الاختلاف في لفظها عند الأجانب. وهكذا الحال في الاصوات التي يؤديها الحرف تش (CH) والتي تتداخل مع صوت الجيم المعطشة.. هناك ايضاً ما يتعلق بلفظ ال تي. واصله اذا كتب بالتاء: ت تاء مفتوحة فقط. او بالدال فيكون د دال مفتوحة. وقد اخترت البقاء على العنوان كما هو في المصادر الامهات التي تناولت النصوص الصينية ولم اجد حاجة الى التغيير مع هذا التداخل في الاصوات، كما أنني تجاوزت صيغة التاء المفتوحة الى التعريب بالياء فجعلتها تي لتكون اسوغ في اللفظ ويكتسب المصطلح شخصيته المميزة بالتساوق مع روح المصطلح العربي.

اما عن دلالة العنوان فقد اشرت في المدخل الى معنى التاو او الداو فبينت انه يدل على الطريق. ويستعمل بهذا المعنى في تعليمات المرور في شوارع المدن الصينية. اما ال تي فيعني الاخلاق. وال تشينغ يعني الكتاب.

فيكون المعنى الحرفي للعنوان هو كتاب الاخلاق. ويعبر عن الاخلاق في الصينية بالمقطعين تاوته او داوده". لكن المعاجم الصينية تعطي ال تي (د) معنى آخر يعبر عن العقل والقلب. ويترجمها الغربيون الى : VERTUE أو NORME وهذه ترجمة حرفية لا تفيد معناها عند التاوين. وقد فسرها فونغ يولان بمعنى القوة او القدرة او السلطان وانها تتضمن معنى تركيبي يقترب من مفهوم الماهية والهوية. وتفسيره مطابق لدلولها الفلسفي. وينقلها معظم الصينياتين بصيغتها الصينية وهو اختيار سليم يحافظ على دلالتها عند التاوين ويتجنب الالتباسات التي تثيرها الترجمة. وقد اخترته في هذا الكتاب وغيره مما كتبه عن الفلسفة الصينية.

١

التاو الذي يمكن الاخبار عنه ليس هو التاو الابدي

الاسم الذي تمكن تسميته ليس هو الاسم الابدي

غير المسمى هو مبتدأ السماء والارض

المسمى هو ام عشرة الاف شيء^(١)

دائم اللارغبة يرى المحجوب

دائم الرغبة يرى المشهود

هذان الاثنان ينبثقان من أصل واحد

ويظهر ذلك قبل الظلمة

ظلمات بعضها فوق بعض

هي المدخل لكل الخفيات

٢

كل من تحت السماء يمكنهم رؤية الجمال جمالاً فقط لان
ثمة قبحا

٦٢

وكلهم يستطيعون ان يروا الخير خيراً لأن ثمة شراً
من هنا، ان تملك او لا تملك يظهران سوياً
يتكامل العسر واليسر
يتقابل الطويل والقصير
الاعلى والاسفل يعتمدان على بعضهما
الأصوات تتناغم
الامام والخلف يقفوا بعضهما بعضاً
ومن هنا يتجول الحكيم دون ان يفعل شيئاً، ويعلم دون ان يتكلم
العشرة الاف شيء تصعد وتنزل بلا توقف،
تبدع، ولا تملك
تشتغل، ولا تأخذ شيئاً
تنجز العمل، وتنساه
وهكذا فهي تبقى الى الأبد

٣

عدم تكريم الموهوبين يمنع الخصام
عدم الاكتناز يمنع السرقة
عدم النظر الى المرغوبات يمنع تشوش الفؤاد.

من هنا، يسوس العاقل البلاد بتفريغ القلوب وملء البطون
باضعاف المطامح وتقوية العظام
اذا ما افتقر الناس الى المعرفة والرغبة
فلن يفكر المعلمون بالتدخل
اذا لم يُفعل شيء فسيكون الجميع على أتم حال...

٤

التاواناء فارغ، يستعمل دون ان يُملاً

مصدر لا يُسير لعشرة الاف شيء

ينثلم فيه الحاد

وتنفك العقدة

ويتلطف البريق

وينغمس بالغبار

مخبوء بعيداً ولكن حاضراً ابداً.

لا ادري من اين جاء

انه سلف الابطرة

السماء والارض ليستا كريميتين^(٢)

انهما تعاملان كل الاشياء مثل دمي الحقول
ولا الحكيم كريماً
فعنده ايضاً مئات العشائر مثل دمي الحقول
فوق هذا

السموات والارض وما بينهما تشبهان المنفاخ. لكنهما لا تنطويان
يتغير الشكل ولا تتغير الصورة^(٣)
ومهما فعلته لهما.. ومهما اقتربت منهما
فانهما مصمتتان لا تنفذان
بقدر ما تزيد الكلمات تتلاشى
فمن الافضل اذن ان تتشبث بالمركز

ارواح الوادي لا تموت

فهي المرأة.. الام الاولى
مدخلها جذر السماوات والارض
كأنها برقع لا يرى
استعمله! فلن تخيب

٧

السما والارض ماكتان الى الابد
لماذا تمكث السما والارض الى الأبد؟
انهما غير مخلوقتين^(٤)
ولذلك تعيشان الى الابد
يقي الحكيم في المؤخرة ولذلك فهو في المقدمة
ويظل منقطعاً فهو مستقل، لكنه متحد مع الجميع
ومن خلال الاثار يبلغ الحكيم الكمال

٨

الخير الاسمى يشبه الماء
الماء يهب الحياة للعشرة الاف شيء ولا يكل

ويجري في مواضع يتجنبها الانسان
فالماء يشبه التاو
في السكن، كن قريباً من الارض
في التأمل، توغل بعيداً في الضمير
في معاملة الناس، كن شهماً رؤوفاً
في الكلام، كن صدوقاً
في الحكم، كن عادلاً
في الشغل، كن كفوءاً
في الفعل: تنبه الى التوقيت
لا قتال: لا تثريب

٩

خير لك ان تقتصر على القليل من الامتلاء حتى النهاية.
بالغ في شحذ المدينة، تنل حافتها حالاً
كدس الذهب واليشب، فلن تقدر على حمايتها
احتجن الثورة والجاه، تقترب من الكارثة
انسحب عند انجاز العمل
هذا هو سبيل السماء

احمل الجسد والروح، تحتضن الواحد

أفي وسعك تجنب الانفصام؟

قدم كل ما عليك، تكن طري العود

أفي وسعك ان تكون كالطفل الوليد؟

اغسل وضر الرؤية البديئة

أفي وسعك ان تبقى بلا وضر؟

أحب كل الناس تحكم البلاد؟

أفي وسعك أن تكون بلا دهاء؟

افتح وأغلق مداخل السماء

أفي وسعك ان تلعب دور المرأة؟

تفهم كل الاشياء تكن متفتحاً لكل الاشياء

هل انت قادر على ان لا تفعل شيئاً؟

أنتج.. ولا تمتلك

اشتغل، لا لحسابك

قُد.. ولا تسيطر

هذا هو ال تي البديء

ثلاثون محوراً تشترك في مركز العجلة

لكن ثقب المركز هو الذي يجعلها صالحة للاستعمال
حَوْل الطين الى اناء

فالخلاء هو الذي يجعله صالحاً للاستعمال

فصل ابواب وشبابيك الغرفة

فالفتحات هي التي تجعلها صالحة للاستعمال

من هنا فالفائدة تأتي مما هو كائن

وصلاحية الاستعمال مما هو غير كائن^(٥)

الخمسة الوانُ تعمي العين

الخمسة انغامُ تصم الاذن

الخمسة طعومُ تفسد الذوق

الطرد والقنص يَخيلان العقل

النفائس تقود الى الضياع

من هنا، فالحكيم مدفوع بالشعور لا بالنظر
تاركاً ما يراه لما يحس به.

١٣

تقبل العار طائعاً

تقبل الحظ العائر كظرف بشري
ماذا تقصد من "تقبل العار طائعاً"
تقبل ان تكون غير نابه
لا تكن مهموماً بالربح والخسارة
هذا يدعى "تقبل العار طائعاً"
ماذا تقصد من "تقبل الحظ العائر كظرف بشري"
الحظ العائر يأتي من كونك ذا جسد
فبدون الجسد كيف يمكن ان يكون الحظ العائر؟
كن هيناً خشوعاً، يكن لك الحق في رعاية كل الاشياء
احبب العالمين كما تحب نفسك، يمكنك ان تعتني مخلصاً بكل الاشياء

انظر، تجدها غير ممكنة الرؤية - في منأى عن الصورة
 اسمع، تجدها غير ممكنة السماع - في منأى عن الصوت
 امسك، تجدها غير ممكنة الامساك - غير قابلة للمس
 هذه الثلاثة لا تُعرف

ومن هنا فهي مندمجة في واحد
 من الاعلى، هي ليست مضبغة
 من الاسفل، ليست معتمة
 خيط غير مقطوع، يمتنع وصفه
 وانها لتؤول الى اللاشيئية
 شكل اللاشكل
 صورة اللاصورة
 بعيداً عن التعريف.. بعيداً عن الخيال
 قف قبلها.. لا تر بداية
 كن بعدها.. لا تر نهاية
 مع التاو الازلية كن تاوياً
 ومع الحاضر تحرك
 ان معرفة البداية الازلية هي جوهر التاو

الغابرون كانوا دهاة، مبهمين، بعيدي الغور، مستجيبين.

كان غور معرفتهم لا يُسبر،

ولانه لا يسبر،

فكل ما نستطيع فعله هو أن نصف مظهرهم.

مترقبين، كعابري نهر الشتاء

حذرين، كالواعين من الأخطار

لطفاء، مثل الضيوف الزائرين

مرنين، مثل الثلج الموشك على الذوبان

بسطاء، كلوحات خشب غير منقوشة.

مجوفين مثل الكهف

معتمين مثل البرك الطينية

من يقدر على الانتظار بهدوء بينما يترسب الوحل؟

من يقدر على المكوث ساكناً حتى لحظة الفعل؟

الذين يرقبون التاو لا يبحثون عن الكمال

ويتركهم البحث عن الكمال، لا تؤرجحهم الرغبة في التغير

فرغ نفسك من كل شيء

ودع الذهن يُخلد الى السلام
 العشرة الاف شيء تأتي وتذهب بينما ترقب النفس تعاودها.
 تنمو الاشياء وتزدهر وتنكفيء من ثم الى المنشأ.
 العودة الى المنشأ متداومة. انها سبيل الطبيعة
 وسبيل الطبيعة لا يتغير
 معرفة الدائم من بُعد النظر
 وعدم معرفته تقود الى المصائب
 فبمعرفة الدائم، الذهن مفتوح
 ومع ذهن مفتوح، يكون القلب المفتوح
 واذ تكون مفتوح القلب يمكن ان تتصرف بطريقة ملكية
 وحيث تكون ملكياً تكون الهياً
 وحيث تكون الهياً فأنت مع التاو يداً بيد.
 وكونك مع التاو يداً بيد هو السرمد
 يزول البدن وتبقى التاو

١٧

الشاهق جداً يُعرف بالكاد

بعد ذلك يأتي ما يعرفونه

ثم ما يخافونه

ثم ما يزدرونه

من لا يثق باحد لا يثق به احد

حينما تتم الافعال

دون كلام زائد

يقول الناس: نحن فعلناها.

١٨

حيث يكون التاو العظيم منسياً

تظهر الرافة والاخلاق

حيث تولد الحكمة والفطنة

تبدأ المزاعم العظيمة

٧٤

حينما ينعدم السلام داخل الاسرة
تظهر طاعة الوالدين والاخلاص
حينما تعم الفوضى
يظهر الوزراء المخلصون

١٩

تجنبوا القداسة، تخلصوا من الحكمة
يصبح الناس افضل مئة مرة
تخلو عن الرافة، تجنبوا الاخلاق
وسيعيد الناس اكتشاف طاعة الوالدين والحب
تخلوا عن البراعة، أقلعوا عن الكسب
وسيتخلفي اللصوص والعيارون
هذه الثلاثة هي فقط الصور الخارجية وهي ليست كافية في حد ذاتها
فالأكثر اهمية
هي رؤية البساطة،
وأن تتحقق الطبيعة الحقة للانسان،
وان يتخلص من الانانية
والرغبة الجامحة

٧٥

توقف عن التعلم تضع حداً لمعضلاتك

هل من خلاف بين لا ونعم؟
 هل من خلاف بين الخير والشر؟
 ايجب علي أن اخاف ما يخاف سواي؟ يا للهراء!
 يتمتع الناس، في قناعة، بعيد الثور القرباني
 وفي الربيع يذهب بعضهم الى المنتزه ويتسلق الروابي
 وانا وحدي في مهب الريح، لا ادري اين مكاني
 مثل الوليد قبل ان يتعلم الضحك
 وحيد.. لا مكان لي اذهب اليه
 لدى الآخرين اكثر مما يحتاجون، اما انا فلا شيء عندي
 معنوه. اوه، نعم! ومشوش
 سواي واضح والمعني
 وأنا وحدي ضعيف قاتم
 سواي ذكي، فظن
 وأنا وحدي البليد، الابله
 اواه، انساق كامواج البحر

دوئما اتجاه، مثل ريح لا تهدأ
كل امريء سواي مشغول
وانا وحدي بلا هدف
مكبوت.. مختلف.. تغذياني الام ذات الجلال

٢١

الفضيلة العظمى ان تتبع التاو، والتاو وحده
التاو يروغ عن الحس.

يروغ عن الحس،
وتبقى ثمة صورة
يروغ عن الحس،
وتبقى ثمة صيغة
انه قائم وداج،
ويبقى ثمة جوهر

هذا الجوهر واقعي جداً وفيه يكمن الايمان
منذ البداية الاولى حتى الان لم ينس احد اسمه
هكذا افهم التكوين
وكيف اعرف سبل التكوين؟
بفضل هذا..^(٦)

اخضع.. تغلب

انحن.. تستقم

افرغ.. تمتلئ

تعزّ.. تكن جديداً

خذ القليل، تربع

خذ الكثير، تكن مشوشاً

من هنا يلزم العقلاء الواحد

ويصبحون اسوة للجميع

لا يضاهون بذواتهم... ويتألقون

لا يُبرزون انفسهم... ويبرزون

لا يكابرون... ويحظون بالاعتراف

لا يتبجحون، فلا يتلعثمون

لا يختصمون، فلا احد يخاصمهم

من هنا فقول الغابرين: اخضع تغلب

أهو كلام فارغ؟

كن كلا حقيقياً
تأتي اليك كل الاشياء

٢٣

ان تتكلم قليلاً فهذا طبيعي
الزوابع لا تدوم كل الصباح
الوابل لا يدوم كل النهار
ما السر في هذا؟ السماء والارض
اذا لم يكن للسماء والارض ان تخلد الاشياء
كيف يكون ذلك ممكناً للانسان؟
من يتبع التاو،
يكن واحداً مع التاو
من هو فاضل،
يخبر ال تي
من يضل الطريق،
يشعر بالضياح
متى ما تكون واحداً مع التاو
يرحب بك التاو

٧٩

متى ما كنت واحداً مع ال تي،
فال تي معك لا يريم
ومتى ماكنت واحداً مع الضياع،
فقد زاولته بحرية تامة
من لا يكن كامل الثقة
لا يثق به احد

٢٤

من يقف على طرف اصابعه ليس راسخاً
من يمشي الوجيف يعجز عن مواصلة المشي
من يعدد مآثره للناس ليس متنوراً
البار بنفسه لا يستحق التبجيل
المتباهي لا ينجز شيئاً
والمدل بنفسه جزوع
تبعاً لأهل التاو،
"كل اولئك طعام زائد ومتاع عارض"،
لا يجلب السعادة،
ولذلك يجانبه اهل التاو

شيء ما تشكل في السر
 ولد قبل السماوات والارض
 في الصمت والخلاء
 احديا، لا متغيراً
 حاضراً ابداً، ومتحركاً ابداً
 قد يكون هو الام للعشرة الاف شيء
 انا لا اعرف اسمه
 لكنني اسميه التاو
 ولأنني لا أجد كلمة افضل ادعوه "ذو الجلال"
 وهو من جلاله يجري،
 يجري بعيداً، بعيداً
 حتى اذا بلغ الغاية القصوى قفل راجعاً
 من هنا: التاو جليل
 السماء جلييلة
 الأرض جلييلة
 والملك ايضاً جليل

انها القوى الاربع للوجود
والملك واحد منها
الانسان يتبع الارض
الارض تتبع السماء
السماء تتبع التاو
والتاو تتبع ما هو طبيعي

٢٦

الثقل جذر الخفيف

الهادى سيد المضطرب
من هنا، يسافر الحكيم طول النهار
ولا يغفل عن شكل حقائبه
ورغم كثرة الاشياء الجميلة، الجديرة بالنظر
فانه يبقى هادئاً عزوفاً.
لماذا ينبغي على رب العشرة الاف عربة ان يتصرف
باستخفاف امام الملاء؟
من يكن خفيفاً يفقد جذوره
من يكن مضطرباً يفقد السيطرة على نفسه

٨٢

المُشاء الجيد لا يترك أثراً

المتكلم الجيد لا يزل لسانه

الحاسب الجيد لا يحتاج الى المعداد^(٧)

الباب الجيد لا يتطلب قفلاً

ومع ذلك فليس في مقدور احد فتحه

الربط الجيد يتم دون عقد

ومع ذلك فلا سبيل الى تفكيكه

من هنا فالحكيم يُعنى بكل الناس

ولا يستثني احداً

يُعنى بكل الاشياء

ولا يستثني شيئاً

هذا يدعى: اقتفاء النور

ماهو الانسان الصالح؟

هو معلم الانسان الطالح؟

وما هو الانسان الطالح؟

هو مقتضى الانسان الصالح.

اذا لم يكن المعلم مهيباً

واذا لم يهتم الطلاب
ساد الارتباك مهما يكن الذكاء..
ان هذه لهو السر الاخفى.

٢٨

اعرف قوة الرجل
وعليك برعاية المرأة
كن نهراً طامياً للعالم
حقيقياً غير متعرج
تكن مرة اخرى مثل الوليد
اعرف الابيض
وعليك بالاسود
كن اسوة الدنيا
حقيقياً غير متعرج
تبلغ اللانهاية
اعرف الشرف
وعليك بالاتضاع
كن وادي الدنيا

٨٤

فأن تكون وادي الدنيا
حقيقاً مفعماً
تكتسب حالة اللوح غير المنقوش
متى يكن اللوح منقوشاً يكن صالحاً للاستعمال
ومتى استعمله الحكيم يصبح حاكماً
وهكذا
"الخياط العظيم قلما يستعمل المقص"

٢٩

اتحسب انك قادر على تولي امر العالم وتحسينه؟
انا لا ارى ذلك ممكناً.
العالم مقدس
ولا يسعك تحسينه
ولو حاولت تغييره لكان خراباً
ولو اردت ان تلتظّ به لافلت من يديك
وهكذا تتقدم الاشياء حيناً وتتأخر حيناً
يصعب التنفس حيناً ويتيسر حيناً
وثمة حيناً قوة وحيناً ضعف

والمرء مرة في الأعالي ومرة في الحضيض
من هنا يتجنب الحكيم التطرف والتجاوز، والرضا عن النفس

٣٠

حينما ترشد حاكماً الى دروب التاؤ

اشر عليه ان لا يستخدم القوة ليفتح الدنيا
لان ذلك يسبب المقاومة فقط

ان غابات القتاد تنمو اينما يمر الجيش
والسنوات العجاف تأتي بعد حرب ضروس
قم بما تدعو الحاجة الى القيام به
ولا تتخذ من القوة شعاراً

احصل على نتائج
ولكن حذار من جعلها سبيلاً الى المجد

احصل على نتائج

واياك من التباهي

احصل على نتائج

واياك من التفاخر

احصل على نتائج

٨٦

فهذا هو السبيل الطبيعي
احصل على نتائج
ولكن ليس بالقسر
فبعد القوة يأتي الوهن
وليس هذا بدرب التاو
ان من يسير خلافاً للتاو يُخترم على عجل

٣١

الاسلحة الجيدة الات للخوف تمقتها كل الكائنات
ولذلك لا يستعملها اهل التاو قط
العاقل يفضل اليسار
واهل الحرب يفضلون اليمين
الاسلحة الات للخوف، وليست ادوات العاقل الكيس
فهو لا يستعملها الا اذا لم يبق لديه خيار
السلم والسكينة عزيزان على قلبه
ليس النصر بسبب للفرح
ان من يفرح بالنصر يفرح بالقتل
ولئن فرحت بالقتل فلن يمكنك استكمال ذاتك

في المناسبات السعيدة تعطى الاسبقية لليسا
وفي المناسبات الحزينة لليمين
في الجيش يقف القائد الى اليسار
ورئيس الاركان الى اليمين
يعني هذا ان الحرب تدار على شاكلة الجنائز
عندما يقتل عدد كبير من الناس
ينبغي النواح عليهم بمرارة
ما الفرق اذن بين النصر والجنابة؟

٣٢

التا ولا سبيل الى تعريفه قط

وهو من الصغر في حالة اللاتشكل بحيث يتعذر الامساك به
لو استطاع الملوك والسادة ترويضه
لاطاعتهم العشرة الاف شيء تلقائياً
ولجاءت السماء والارض صفافاً صفافاً
ولانههم المطر بسخاء
ولن يحتاج الناس الى المزيد من الاوامر
ولاخذت كل الاشياء مجراها

٨٨

حينما ينقسم الكل تحتاج الاجزاء الى الاسماء
ثمة ما يكفي من الاسماء
على المرء ان يعرف متى يتوقف
وبمعرفة متى يتوقف يتفادى المشاكل
التاوفي الدنيا كنهر يستقر به الجريان في البحر

٣٣

معرفة الآخرين حكمة

معرفة النفس تنور
التغلب على الآخر يقتضي القسر
التغلب على النفس يحتاج الى القدرة
من يعرف ان لديه ما يكفي فهو غني
المثابرة دليل شدة الارادة
من يقف حيث هو، يتحمل
ان تموت دون ان تهلك، يعني ان تكون ابدى الحضور

التاو الجليل يجري في كل مكان، الى اليمين واليسار على السواء

العشرة الاف شيء تعتمد عليه، وهو محيط بكل شيء
يؤدي ما عليه بصمت ولا يدعي شيئاً
يغذي العشرة الاف شيء
دون ان يدعي السيادة عليها
صغير جداً، وليس له غرض
اليه ترجع العشرة الاف شيء
لكنه ليس بسيدها
انه في غاية الجلال
لا ييدي التاو جلال ذاته
ومن هنا فهو جليل حقاً

٣٥

من يكن مع الواحد يأتيه كل الناس

لان في ذلك السكينة والسعادة والسلام
عابر السبيل قد يتوقف للموسيقى والطعام الجيد
لكن وصف التاو
هو دون مونة او طعام
غير ممكن الرؤية، غير ممكن السماع
وبالتالي فهو لا ينفد

٣٦

الذي ينكمش

يجب ان يتسع اولاً
الذي يخيب

يجب ان يكون شديد البأس اولاً
الكسيف البال

٩١

يجب اعلاؤه أولاً
وقبل الأخذ
يجب ان يكون العطاء
هذا يدعى ادراك سجية الاشياء
الضعيف الرخو يغلب الشديد الصلب
لا يستطيع السمك ان يغادر المياه العميقة
وينبغي ان لا تُعرض على الناس اسلحة الدولة

٣٧

يقبع التاو في اللافعل
ولكن لا شيء يبقى غير مفعول
اذا الملوك والسادة لزموا ذلك
تتطور العشرة الاف شيء تلقائياً
ولو انهم لم يبرحوا في حاجة الى الفعل
لا نكفأوا الى بساطة الجوهر اللامتشكل
بدون صورة لا تكون رغبة
وبدون رغبة تكون السكينة
وبهذه الطريقة تنعم كل الاشياء بالسلام

الخير بحق لا يدري انه خير

ومن هنا فهو خير

المعتوه يحاول ان يكون خيراً

وهو لذلك ليس خيراً

الخير بحق لا يفعل شيئاً

ولكنه لا يدع شيئاً غير مفعول

المعتوه يفعل دائماً

ويبقى الكثير محتاجاً الى الفعل

حينما يفعل الرحيم بحق شيئاً ما لا يدع شيئاً غير مفعول

حينما يفعل العادل شيئاً ما يبقى لديه الكثير مما يجب ان يفعل

حينما يفعل المرشد شيئاً ما ولا يستجيب احد.

يلوح بأكامه لفرض الانتظام.

من هنا، متى ما ضاعت التاوا كان الخير

ومتى ما ضاع الخير كانت الرأفة

ومتى ما ضاعت الرأفة كان العدل

ومتى ما ضاع العدل كانت الشعائر

والآن، الشعائر هي قشرة الايمان والاخلاص، بداية
التشوش

معرفة المستقبل ليست الا الا حبولة الوردية للتاؤ
انها بداية الخبل

من هنا يدقق العظيم في الحقيقة لا في القشور
وفي الثمرة لا في الزهرة.
وبالتالي فهو يقبل الواحد ويرفض الاخر.

٣٩

هذه الاشياء ذات الزمن السحيق نشأت من واحد:

السماء كلية وصافية

الارض كلية ووطيدة

الروح كلية ومتينة.

الوادي كلي ومملوء

العشرة الاف شيء كلية وحية

الملوك والسادة كليون، والبلاد معتدلة الاحوال

كل هذه الاشياء حاصلة في فضيلة الكلي

صفو السماء يمنع سقوطها

رسوخ الارض يمنع انشقاقها
متانة الروح تمنع استنفادها
امتلاء الوادي يمنع جفافه
نمو العشرة الاف شيء يمنع هلاكها
قيادة الملوك والسادة تمنع تدهور البلاد^(٨)
من هنا، الوضع هو جذر الشريف
الواطيء اس العالي
الامراء والسادة يعدون انفسهم "يتامى"، "ارامل"، "عديمي الجدوى"
الا يتوخون ان يكونوا متضعين؟
النجاح الزائد عن اللزوم ليس امتيازاً
لا ترن كاليشب
ولا تطلق مثل الاحجار

٤٠

المعاودة هي حركة التاو

الاذعان هو سبيل التاو
العشرة الاف شيء متولدة من الكائن
الكائن متولد من اللاكائن

٩٥

التلميذ الكيس يستمع الى التاو ويمارسها باجتهاد
 التلميذ الوسط.. يستمع الى التاو ويعيرها ذهنه المرة تلو المرة.
 التلميذ الطائش يستمع الى التاو ويقهقه
 لو لم يكن ثمة مقهقه لما كانت التاو ما هي عليه.
 بناء على ذلك قيل:
 السنن الواضح يبدو قائماً
 والتقدم شبيهاً بالتقهقر
 والطريق اللاحب وعرا
 وال تي الارقى خواء
 والطهر الاعظم تلوثاً
 واكتناز ال تي غير ملائم
 ومتانة ال تي هشاشة
 وال تي الحقيقي زائفاً
 والمربع الكامل ليست له زوايا
 والمواهب الجليلة تنضج متأخرة

والنغمات العليا يصعب سماعها
والصورة العظمى ليس لها شكل
التاو خفية وليس لها اسم
والتاو وحدها تغذي الاشياء وتمنحها الكمال

٤٢

التاو تنسل الواحد

الواحد ينسل الاثنين

الاثنان تنسل الثلاثة

الثلاثة تنسل العشرة الاف شيء

العشرة الاف شيء تحمل الين وتحتضن اليانغ

وتحقق انسجامها بالدمج بين هاتين القوتين

الناس لا يحبون ان يكونوا يتامى وارامل وعديمي الجدوى

لكن هذا ما يصف به الملوك والسادة انفسهم

المرء يكسب بالخسران

ويخسر بالكسب

ما يعلم به الآخرون اعلم به ايضاً.. انه:

العنيف يموت ميتة عنيفة

وسيكون هذا لب تعليمي

٤٣

الالطف في الوجود

يغلب الاغلظ في الوجود
ما هو بدون هوى يمكنه النفاذ في اللامكان
ولذلك فانا اعرف قيمة اللافعل
التعليم بدون كلمات، والعمل بدون فعل
لا يفهمه الا القليل جداً من الناس

٤٤

السمعة والذات: ايهما اهم؟

الثروة والذات: ايهما انفس؟
الريح والخسارة: ايهما اوجع؟
المشدد الى الاشياء كثير الهموم
ومن يوفر يخسر الكثير
ولن يخيب ذو القناعة

٩٨

من يعرف متى يقف فلن يقع في ورطة
ويؤول الى امن دائم

٤٥

الاكمال العظيم يبدو غير كامل

وبالتالي فهو لا يتجاوز مدى استعماله
الامتلاء العظيم يبدو خواء
وبالتالي فلا يمكن استنفاده
الاستقامة الكبرى هي الفدع
الفطنة الكبرى تبدو حماقة
اللياقة الكبرى تبدو فهاهة
التحرك يقهر البرد
الهدوء يقهر الحر
السكينة والطمأنينة تضع الاشياء في اتساقها

حينما تكون التاو حاضرة في الدنيا

فالخيل تنثر السجاد

وحينما تكون التاو غائبة عن الدنيا

فخيول الحرب تربي حول المدينة

ما من خطيئة اعظم من الرغبة

ولا من لعنة العن من الجشع

ولا سوء حظ اشد من ان يريد المرء لنفسه شيئاً

من هنا، من يعرف ان الكافي هو الكافي يحصل على الكفاية دوماً

من غير ان تسافر يمكنك ان تعرف الدنيا كلها

من غير ان تطل من النافذة يمكنك ان ترى دروب السماء

وبقدر ما تذهب بعيداً تعرف قليلاً

وهكذا، فالحكيم يعرف دون ان يسافر

ويرى دون ان يحدّق
وينجز كل شيء دون ان يفعل

٤٨

في متابعة التعليم، تستجد كل يوم حاجة
في متابعة التاؤ، ينقص في كل يوم شيء
افعل الاقل فالأقل
حتى تستكمل اللافعل
واذ لا تفعل شيئاً فلن يبقى شيء غير مفعول
العالم يقوم على ترك الامور لمجاريها
ولا يمكن ان يدار بالتدخل

٤٩

الحكيم لا تعنيه خاصّة نفسه
بل هموم الآخرين
انا خيّر مع الاختيار
وخير مع غير الاختيار
لأنّ الـ تي هي الخير

لي ثقة بالافياء
ولي ايضاً ثقة بغير الافياء
لأن الـ تي هي الوفاء
الحكيم خشوع متضع ويبدو امام العالمين مشوشاً
ينظر اليه الانام ويستمعون
اما هو فيتصرف مثل طفل صغير

٥٠

ما بين الولادة والموت

ثلاثة من عشرة هم اهل الحياة
وثلاثة من عشرة هم اهل الموت
والذين يَمرون من الولادة الى الموت يُعدّون ايضاً ثلاثة من عشرة
لم كان هذا هكذا؟
لأنهم يعيشون في حافة الفظاظة
من يعرف كيف يعيش يمكنه ان يضرب في الارض
دونما خوف من الكركدن او النمر
لا يمسّه قرح في الحرب
ولا يجد الكركدن موضعاً فيه يطعنه بقرنه

١٠٢

ولا النمر موضعاً يُنشب فيه مخالفه
ولا الاسلحة مكاناً للطعن
لم كان هذا هكذا؟
لأنه لا يترك للموت مكاناً ينفذ منه
كل الاشياء تأتي من التاو
وتترعرع باز تي
وتستمد صورتها من المادة
وشكلها من المحيط
وهكذا تبجل العشرة الاف شيء التاو وتمجد ال تي
تبجيل التاو وتمجيد ال تي ليسا مقصودين
لكنهما في سجية الاشياء
من هنا، كل الاشياء تأتي من التاو
وبال تي تتغذى
تتطور، تتحصن، تستريح، تنمو، وتحتمي
تخلق دونما لغب
تفعل، لا لحسابها
توجه، دون تدخل
ذلك هو ال تي الأول

بداية الوجود

هي أم كل الأشياء
 بمعرفة الام يعرف المرء الابناء
 ومعرفة الابناء، مع بقاء الاتصال بالدم،
 تحرر الانسان من مخافة الموت.

الجم فمك
 بذرق حواسك
 تغدو الحياة مليئة ابدأ
 افغر

كن دائم الانشغال
 تغدو الحياة بلا أمل
 رؤية الصغير من بعد النظر
 الاذعان للقسر قوة
 استعمال النور الخارجي يسترجع البصيرة
 وبهذه الطريقة تتخلص من الاذى

هذا هو تعلم الديمومة

٥٣

لو كان لي حد ادنى من الشعور

لمشيت في السبيل اللاحب لا اخاف من تنكبه

سلوك السبيل اللاحب ليس عسيراً

لكن الناس يحبون التذبذب

عندما يكتسي البلاط بالروعة

تمتلئ الحقول بالادغال

وتصبح الاهراء فارغة

البعض يلبسون الثياب الفاخرة

ويحملون الصوارم

ان لديهم اكثر مما يستطيعون استعماله

اولئك هم السادة اللصوص

كلا! ليس هذا بدرب التاو

١٠٥

الوطيد الاساسي لا يمكن اقتلاعه

وما تفهمه جيداً لا يمكن نسيانه

وسيمجد من جيل الى جيل

اغرس ال تي في نفسك

يكن ال تي حقيقياً

اغرسه في الاسرة

يكن غزيراً

اغرسه في القرية

يكن نامياً

اغرسه في الامة

يكن وفيراً

اغرسه في العالم

تجده في كل مكان

من هنا: انظر الى الجسد كجسد

أنظر الى الأسرة كأسرة

أنظر الى القرية كقرية
أنظر الى الأمة كأمة
أنظر الى العالم كعالم
كيف يتسنى لي ان اعرف ان العالم هو هكذا؟
بالرؤية

٥٥

من يمتلك باله تي يمكن ان يشبه الوليد^(٩)

الهوام لن تلتسه
والسباع لن تمسك به
والجوارح لن تنقض عليه
ومع ان عظامه هشة
وعضلاته مرهفة
فإن قبضته شديدة
انه لم يعرف شيئاً عن اتحاد الذكر والانثى
ومع ذلك فإن بلبه ينتصب في بعض الاحيان
دليلاً على ان حيويته كاملة
وقد يكي طوال اليوم دون ان ييح صوته

١٠٧

دليلاً على ان تناسقه تام
ان فهم التناسق هو فهم القوة الحيوية غير المحبطة
واذ تفهم عدم الاحباط فأنت متنور
والآن!
فبتكثيف الحياة الدنيوية للمرء فالمرء يستجلب الشؤم.
وبالسماح للانفعالات القلبية والذهنية ان تستولي على التشي^(١٠)
يتردى المرء في قساوة المنون
وحيثما ستؤول القوة
والعنف الى الانحطاط
فلأن الجهد المفرط موجّه ضد التاو
وحيثما توجهت ضد التاو
فذلك هو الخراب

٥٦

الذين يعرفون لا يتكلمون

والذين يتكلمون لا يعرفون

الجم فاك بلجام

احرس حواسك

١٠٨

لطف من حدثك
هون من معضلاتك
برقع ذكائك
كن واحداً مع تراب الارض
هذا هو الاتحاد الاكبر
ان من يحقق هذه الحالة
ليس معنياً بالاصدقاء والاعداء
بالخير والضرر بالمجد والضعة
ان هذه لهي الحالة الارقى

٥٧

احكم الامة بالعدل
او قد الحرب بحركات مباغته
كن سيد العالم دون اجهاد
كيف اعرف ان هذا هكذا؟
بسبب هذا،
مع المزيد من الاوامر والنواهي
يزداد الفقراء فقراً

١٠٩

مع الاسلحة الاكثر فتكاً
يكون المزيد من المشاكل في البلاد
مع المزيد من الاذكياء والبارعين
يأتي المزيد من الغرائب
ومع المزيد من الاحكام والتعليمات
يكون المزيد من اللصوص والنهايين
من هنا يقول الحكيم
لا اقوم باي فعل
فينصلح الناس
التزم السلام
فيصبح الناس انبل
لا افعل شيئاً
فيصبح الناس اغنياء
لا تكون لي رغبة
فيعود الناس الى الحياة الطيبة البسيطة

٥٨

حينما يدار البلد بلطف

١١٠

فالناس بسطاء
وحين يدار بفضاظة
تخبث نفوسهم
تتجذر السعادة في الشقاء
ويكمن الشقاء في السعادة
من يدري ماذا يخبيء المستقبل؟
ليس ثمة امانة
الانابة تغدو وضاعة
والخير يغدو شعوذة
وحيرة الانسان تدوم امدا بعيداً
من هنا، فالحكيم حاد لا يقطع
مسنن لا يخدش
مستقيم ولكن بوازع
لامع ولكن لا تعشى به العيون

٥٩

في العناية بالآخر وخدمة السماء
ليس ثمة كاستعمال الوازع

١١١

الوازع يبدأ بنبذ الافكار الخاصة للمرء
ويعتمد هذا على ال تي المتراكم من الماضي
وحيثما وجد مخزن وافر لل تي فلن يبقى محال
واذا لم يبق محال فلن تبقى حدود
واذا لم يعرف الانسان حدوداً صح له ان يكون حاكماً
المبدأ الام للحكم يبقى سارياً زماناً طويلاً
ان هذا ليدعى امتلاك جذور عميقة ووطيدة
انه تاو الحياة المديدة والرؤية الابدية

٦٠

حكم البلاد يشبه طبخ سمكة صغيرة

انظر الى العالم بالتاو
فلن يعود الشر ذا مضاء
ليس بمعنى ان ذلك الشر ليس قوياً
بل بان قوته لن تستخدم لايذاء الاخرين
وليس فقط انها لن تؤذي الاخرين
بل ان الحكيم نفسه سيكون منيعاً ضد الأذى.
لن يؤذي بعضهم بعضاً

١١٢

وسيكون الد تي في كل واحد مبعث رنحاء للآخر.

٦١

البلد العظيم يشبه الوهدة

انه ملتقى العالم

ام العالم

الانثى تغلب الذكر بالسكون

وتستلقي في سكون

فلو اعطى البلد العظيم طريقاً للبلد الصغير

لغلب البلد الصغير

ولو خضع البلد الصغير للبلد العظيم

لغلب البلد العظيم

من هنا يتعين على من يريدون الغلبة ان يذعنوا

والذين يغلبون يتم لهم ذلك لانهم يذعنون

الدولة الكبيرة تحتاج الى المزيد من الناس

البلد الصغير يحتاج الى ان يخدم

والكل يحصل ما يريد

انه للملائم للدولة الكبيرة ان تذعن

١١٣

التاو هي مصدر العشرة الاف شيء

والتاو هي كنز الطيب وملاذ الرديء

بالكلمات الحلوة تشتري الشرف

بالافعال الطيبة يبجلك الناس

واذا وجدت امرءاً رديئاً فلا تنبذه

من هنا، يوم تتويج الامبراطور

او تنصيب الوزراء الثلاثة للدولة

لا تبعث هدية من اليشب او فضيلاً من اربعة خيول

بل الزم مكانك واظهر التاو

لماذا تحب التاو كثيراً في باديء الامر؟

اليس لانك تجد ما تبحث عنه ويغفر لك اذا اذنبت؟

ان هذا لهُو الكنز الاعظم للعالم.

مارس اللافعل

اشتغل دون فعل
 تذوق ما لا ذوق له
 عظم الصغير وكثر القليل
 كافئ المرارة بالرعاية
 أبصر البساطة في المركب
 انجز العظيم من الاشياء الصغيرة
 في العالم، الامور الصعبة تتم وكأنها امور يسيرة
 في العالم، الافعال العظيمة تأتي من الافعال الصغيرة
 الحكيم لا يجرب اي امر عظيم
 وبهذه الطريقة يحقق العظمة
 الوعود المجانية تضعف الثقة
 التهاون بالأمور يخلق المصاعب
 لان الحكيم يواجه المصاعب دائماً
 فهو لا يعانيتها قط

السلام يسهل الحفاظ عليه

والمصائب يمكن منعها قبل أن تبدأ

الهش سهل التكسر

والصغير سهل التبعر

عالجها قبل ان تقع

نظم الاشياء قبل ان تنفرط

ان دوحة بقدر ذراعي الانسان تنشأ من فسيلة

ومدرج من تسعة طوابق يبدأ من لبنة

ورحلة الألف لي تبدأ بخطوة واحدة^(١)

من يفعل يخسر الهدف

من يُمسك يضئع

والحكيم لا يفعل فلا يخسر

ولا يمسك فلا يضئع

يفشل الناس عادة حين يوشكون على النجاح

فاعط النهاية من الاهتمام ما تعطيه للبداية

فبذلك تتجنب الاخفاق

من هنا فالحكيم يبحث عن الحرية في الرغبة
فهو لا يحتجج النفائس
ويتعلم ان لا يصبر على الأفكار
يعيد الناس الى ما ضيعوه
ويساعد العشرة الاف شيء في العثور على طبيعتها
لكنه منعتق من الفعل

٦٥

في البدء، لم يحاول الذين اوتوا العلم بالتأويل تنوير غيرهم
بل ابقوهم في دياجير الجهالة
لماذا يعسر الحكم الى هذا الحد؟
لان الناس اذكياء
الحكام الذين يحاولون استخدام الذكاء
يغشون الوطن
والذين يحكمون دونما ذكاء
هم بركات الارض.
هذان هما الخياران الوحيدان..
ان فهم ذلك هو ال تي الاكبر

العميق والبعيد الغور
الذي يسوق الاشياء الى الوراء
باتجاه الوحدة الكبرى

٦٦

كيف تفرض الانهار الكبيرة ملوكيتها على مئات
الجداول؟^(١٢)

لأنها اوطأ منها.
ذلك ما يجعلها ملوكاً على مئات الجداول
فإذا شاء الحكيم ان يرشد الناس
فعليه ان يتضع
بحيث اذا كان فوقهم لا يثقل ظهورهم
وحين يكون في الرأس لا يشعرون بالأذى
وعندئذ، سيكون كل ما تحت السماء مسروراً لأنه مقود به
ولا يجدون توجيهاته مضجرة لهم
الحكيم لا ينخرط في منافسة
فلا أحد ينافسه

١١٨

كل من تحت السماء يقول ان تاوي عظيم ومنزه عن القرين

لان التاو عظيم فهو متفاوت

ولولا التفاوت لاضمحل من زمان بعيد

ثلاثة كنوز اتمسك بها وأحرص عليها

الأول هو الرحمة، الثاني الاقتصاد

الثالث هو ان لا اجترئ على سبق الاخرين

من الرحمة تأتي الشجاعة، من الاقتصاد يأتي السخاء

ومن الانضاع تكون القيادة

في هذه الايام يتحاشى الناس الرحمة ويريدون ان يكونوا شجعاناً

يتركون الاقتصاد ويريدون ان يكونوا اسخياء

لا يقرون بالانضاع ويريدون الفوز بالصدارة

انه للموت المحقق

الشجاعة تجلب النصر في المعركة والمنعة في الدفاع

هي وسائل السماء في الحفظ والحماية

٦٨

الجندي الجيد ليس عنيفاً

المقاتل الجيد ليس غضوباً

المنتصر الجيد ليس انتقامياً

المخدوم الجيد متضع

هذا يدعى "تي" اللاجهد

يدعى قدرة التعاطي مع الناس

ولقد كان هذا معروفاً منذ القدم بأنه

الاتحاد التام مع السماء

٦٩

قول يردده الجنود:

لا أجراً على القيام بأول خطوة ولكنني افضل لعب دور الضيف

لا أجراً على التقدم شبراً ومستعد للتراجع ذراعاً

هذا يدعى سيراً دون اظهار الحركة

١٢٠

التلويح بالارदान دون كشف الذراع
القبض على العدو من غير هجوم
التسلح بلا اسلحة.
ليس رزية ارزاً من تقدير العدو بأقل من حجمه
بتقدير العدو أقل من حجمه أفقد التقييم
من هنا، اذا حمي الوطيس
ينتصر المستضعفون

٧٠

كلماتي سهلة الفهم سهلة الاداء
وان كانت لا تجد تحت السماء من يعرفها او يمارسها
لكلماتي بدايات سحيقة
وافعالي مضبوطة
ولان الناس لا يفقهون فهم لا يعرفونني
الذين يعرفونني قلائل
الذين يؤذونني مكرّمون
من هنا يرتدي الحكيم أغلظ الثياب ويخفي الجواهر في قلبه

معرفة الجهل قوة

جهل المعرفة سقم
 اذا كان المرء سقيماً من السقم فهو ليس سقيماً
 والحكيم ليس سقيماً لأنه سقيم من السقم
 وبالتالي فهو ليس سقيماً

مع فقدان الشعور بالرهبة، تكون المصائب

لا تتطفل عليهم في بيوتهم
 لا تزعجهم في عملهم
 اذا لم تتدخل فلن ينالهم الانهاك بسبك
 وهكذا فالحكيم يعرف نفسه ولكن لا يتظاهر
 يحترم نفسه ولا يتعجرف
 يترك ذلك ويختار هذا

الشجاع الحاد المزاج هو اما قاتل واما مقتول

الشجاع الحليم يصون الحياة دوماً

اي هاذين جيد وايهما ضار؟

بعض الامور لا تحبها السماء. من يدري لماذا؟

حتى الحكيم لا يعرف الجواب

تاو السماء لا تكدح، ومع ذلك فهي متفوقة

لا تتكلم ولكنها مجابة

لا تطلب شيئاً، وتحصل على كل ما تحتاج

تبدو في راحة من الفعل لكنها تسير وفق المنهاج

شبكة السماء تنتشر في الافاق البعيدة

ورغم ان خيوطها غير مجبوكة فلا شيء يخترقها

اذا لم يكن الناس خائفين من الموت^(١٣)

فلا جدوى من تخويفهم به

واذا عاش الناس في خوف دائم من الموت
وكان الخروج على القانون يعني قتل الخارج عنه
فمن يتجاسر على خرق القانون؟
ثمة دوما جلاّد رسمي
اذا حاولت ان تأخذ محله
تكون كمن يحاول أن يكونه نجاراً اسطى ويقطع الخشب
اذا حاولت ان تقطع الخشب كالنجار الاسطى
فستؤذي يديك فقط.

٧٥

لماذا يجوع الشعب؟
لان الحكام يأكلون الاموال بالضرائب
ولذلك يجوع الشعب
لماذا يتمرّد الشعب؟
لان الحكام يتدخلون اكثر من اللازم
ولذلك يتمرّد الشعب
لماذا لا يعبأ الناس بالموت؟
لأن الحكام يطلبون ثمناً باهظاً للحياة

لذلك يتقبل الناس الموت بسهولة
ان يكون لديك القليل تعيش به
خير لك من حياة باهظة الثمن

٧٦

يولد الانسان رقيقاً واهناً

ويموت صلباً يابساً

يبدأ النبات غضاً مترعاً بالنسغ

ويموت ذابلاً جافاً

من هنا، اليابس وغير المنحني قرينان للموت

والرقة والطوَغان قرينان للحياة

وهكذا، لن ينتصر جيش بلا مرونة

والشجرة التي لا تنحني سهلة الكسر

يسقط الشديد والصلد

ويعيش الناعم والضعيف

١٢٥

تاو السماء يشبه انحناءة القوس

الاعلى مخفوض والاسفل مرفوع
 اذا كان الوتر مفرط الطول يمكن تقصيره
 واذا لم يكن كافي الطول يمكن تطويله
 تاو السماء هو أن تأخذ من الكثيرين وتعطي المقلين
 ونهج الانسان على النقيض
 فهو يأخذ من المقلين ويعطي الكثيرين
 من هذا الذي يملك اكثر من حاجته ويعطيه للعالم؟
 فقط هو انسان التاو
 من هنا، يشتغل الحكيم دون ادلال
 ويؤدي ما عليه دون الحاف
 ولا يحاول ان يظاهر بمعرفته

ليس تحت السماء اكثر نعومة وليونة من الماء
وعلى الرغم من ذلك
فما من شيء اقدر منه على مهاجمة الصلب والشديد

الضعيف يمكنه التغلب على ذي البأس
ويمكن للأخضر ان يقهر الياوس
كل من تحت السماء يعرف هذا
لكن ما من أحد يضعه موضع التطبيق
من هنا يقول الحكيم:
من يتقبل ازدراء الناس به جدير بأن يحكمهم.
من يتحمل مشاكل البلاد جدير بأن يكون ملك الدنيا
وكثيراً ما تبدو الحقيقة متناقضة

بعد عراك مرير يتبقى شيء من الأشياء

ماذا يمكن ان نفعل؟

لهذا يحتفظ الحكيم بنصف ما له من المقايضة

ولكن دون ان يستوفي الاستحقاق

انسان ال تي يؤدي ما عليه

وانسان بلا تي يطلب من الاخرين الوفاء بما عليهم

تاو السماء عادلة

مع الصالحين في كل وقت

البلد الصغير قليل السكان

ورغم توفر آلات تشتغل اسرع من الانسان بين عشر مرات

إلى مئة،

فهم لا يحتاجونها.

ينظر الناس بجد الى الموت ولا يسافرون بعيداً
لديهم قوارب وعربات لا يستخدمونها
وأسلحة ودروع لا يظاهرون بها
يرجع الناس الى عقد الخيط بدلا من الكتابة^(١٤)
طعامهم بسيط وجيد، ملابسهم بسيطة وجميلة
ويؤتونهم أمانة.
سعداء على طريقتهن
ومع انهم يعيشون على مرأى من جيرانهم
واصوات ديوكهم ونباح كلابهم تسمع عبر الدروب
فانهم يتركونهم في سلام حتى يشيخوا ويموتوا

٨١

الكلمات الصادقة ليست جميلة

الكلمات الجميلة ليست صادقة
الاخيار يتجادلون
والذين يتجادلون ليسوا أخياراً
الذين يعرفون ليسوا متعلمين
والمتعلمون لا يعرفون

الحكيم لا يحاول اكتناز الاشياء قط
وكلما زاد من اكتنازه للآخرين زاد ما يملك
وكلما اكثر من عطائه للآخرين عظمت وفرته
تاو السماء مسننة ولكنها لا تؤذي
تاو الحكيم هو العمل دون كد

الهوامش

- (١) عشرة آلاف (شيء): اصله الصيني "وانغ" ومعناه عشرة الاف. وهو اعلى رقم في اللغة الصينية ولذلك يستخدمه الصينيون للكتابة عن الكثرة او العدد اللامتناهي. ومن تطبيقات ذلك قولهم في هتاف يعيش: "وان سوي" ومعناه الحرفي "يعيش عشرة الاف سنة" ويقصدون عاش الى الابد. وبهذا التحديد يكون قوله المسمى هو ام عشرة الاف شيء.. يقصد به ام كل الاشياء.
- (٢) سوف تتردد هذه العبارة كثيراً في النصوص اللاحقة وهي تحمل نفس المعنى.
- (٣) اعتمدت في ترجمة هذا النص على نيدهام.
- (٤) اضافة من ترجمة جيا فونغ.
- (٥) في الأصل الصيني والترجمة الانكليزية: "غير مولودتين". وقد أثرنا التعبير عن هذه الفكرة بما يدل عليها في ضوء المفهوم التاوي لأصل الأشياء.
- (٥) * غير الكائن: كناية عن الفراغ، اللاشيء، وهو كما مر بك من محاور فلسفة التاو. وفي هذا النص ينسب الفعل الحقيقي (صلاحية الاستعمال) الى اللافعل، وما هو زائد على الحقيقي (الفائدة، الكسب، الربح) من نتاج الكائن، أي الايجاب والفعل.
- (٦) الاشارة لجوهر التاو.
- (٧) المعداد: آلة الحساب التقليدية في الصين، وهي السلف البعيد لمكائن النقد الحديثة.
- (٨) عندما تتجوهر بالتاو.

- (٩) ترجم هذا النص بالاستناد الى نيدهام.
- (١٠) * * * التشي، يقترب من معنى الجوهر الروحاني. وهو في اللغة تعبير عن الروح والنزعة المتأصلة، ومنه قولهم للشجاعة: يونغ - تشي اشارة الى ماهو من صفات الذات المعبرة عن روح الشخص
- والتشي في القاموس: الهواء، الغاز البخار.
- (١١) اللي: مقياس صيني للمسافات يعادل ٥٠٠ متر.
- (١٢) ترجم هذا النص بالاستناد الى نيدهام.
- (١٣) وردت لهذا النص صيغة أخرى عن ه. ج. غريل في كتابه. "الفكر الصيني من كونفوشيوس الى ماوتسي تونغ" وهي كما ترجمها عبد الحميد سليم وراجعها على أدهم:
- الناس لا يخشون الموت. فما الفائدة اذن من محاولة تخويفهم من عقوبة الاعدام؟ وحتى اذا خافوا فمن هو الانسان البشري الذي هو أهل لان يعلن هذا الحكم الرهيب ضد اخوانه: ص ١٦٠ .
- (١٤) العد بعقد الخيط بدلاً من العد بالقلم.

الكتاب الثاني

تشوانغ تسه

حول الكتاب والترجمة

عاش تشوانغ تشو الذي عرف بلقبه الفلسفي تشوانغ تسه، ما بين ٣٦٩ و ٢٨٦ ق.م في دويلة منغ (بفتح الميم) في مقاطعتي شاندونغ وهونان اليوم. وعاصر اثنين من اكابر الفلاسفة هما مونغ تسه (مينشيوس) معلم الكونفوشية الثاني، وهوي شيه (هوي تسه) استاذ المدرسة المنطقية المسماة مدرسة الاسماء (مينغ جيا) وبعد أن تفلسف وناهر سن الحكمة اعتزل الناس على طريقة المعري وكان قد تزوج من فتاة حسناء فلما اعتزل خيرها بالطلاق وكانت لا تزال في شبابها فاختارت الطلاق والزواج من رجل آخر رضيت به وارتضاه تشوانغ تسه لها. لكن الزواج لم يتم فانتحرت. وترك انتحارها في نفسه صدى اليماً أول الامر ثم عاد وتطامن فأخذ مزهره وبدأ بالعزف عليه انسجاماً مع مذهبه في عدم التمييز بين الموت والحياة.

يؤشر ظهور تشوانغ تسه، تبعاً لتحقيق فونغ يولان، الطور الثالث للتأوية والمتسم بموضوعة المساواة المطلقة بين الاشياء وإهمال التمييز ومطابقة الذات مع الآخر لتجاوز العالم الكائن الى عالم منشود يتجرد فيه الانسان (الحكيم) من هواجسه الحسية لحساب السعادة الروحية من خلال تدامجه مع الكون الاوسع. وهي المرحلة التي عبر عنها صوفية الاسلام القطبانية بالفناء

والاتحاد. ومن معتكفه اشاع تشوانغ تسه فلسفته لإسماعاً وأقراءاً فذاع صيته وكثر مريدوه ورغب فيه ملوك الدويلات فردهم استمتاعاً بحريته وارادته المطلقة في مقابل اغلال الثروة والسلطة. وكان هذا هو المراد من العزلة، عن الملوك لا عن الناس، فقد واصل في معتزله علاقته بالمجتمع من خلال دعوته التي انشعبت في اتجاهات متكاملة جمعت بين إنكار مسلك الحكام والاغنياء على طريقة استاذه لاوتسه، والسعي لتحرير الناس من الخوف على طريقة معاصرة الاغريقي الاصغر ايقوروس. وفي مذهبه عن المساواة بين الاشياء وبين الظواهر والاحوال وبين الناس جعل النواميس الطبيعية معيار التحرر من الجهد المفرط المؤدي عنده الى الآلام والشقاء والخاوف وإرهاق الروح بما لم تكلفها به الطبيعة. لكن آراء تشوانغ تسه التي شكلت اضافة الى مذهب لاوتسه بقيت دونها في وضوح الدعوة إلى ادانة الملوك والاغنياء. ومالم يتأكد لنا ان الفصل الثالث والثلاثين من كتابه كان من تحريره او حرر بناء على افكاره نفسها، وهو الفصل الذي تناول نظرية المجتمع العظيم الذي تكون فيه الدولة وموظفوها في خدمة الناس وليس العكس، فإن تشوانغ تسه يبدو اقل اكتواء من شيخه بمعاونة الناس واكثر اهتماماً بمشكلة الانسجام مع نواميس الطبيعة، تلك المشكلة التي استغرقت معظم جهده الفلسفي. وقد ترتب على مذهبه هذا اتجاهان متضاريان، نجده في احدهما يتطرف في عدم التمييز الى الحدود التي تسمح له بالقول ان الملك خلق ملكاً والفلاح خلق فلاحاً والحكيم خلق حكيماً والنجار خلق نجاراً... لأن كل واحد من هؤلاء انما يفعل تبعاً لسجيته التي فطر عليها وأهله الطبيعة لها. وفي الثاني نقف على الاساس الطبيعي للعلاقة الديمقراطية بين الناس اجمعين دون فارق ما بين حاكم ومحكوم ومالك

ومحروم فإذا كانت الطبيعة قد خلقت الملك ليكون ملكاً والفلاح ليكون فلاحاً فليس للملك افضلية على الفلاح مادام كل منهما يزاول وضعه الطبيعي. وبذلك ينتفي حق الملك في قهر الفلاح لان هذا الاخير يمتلك بناء على مبدأ عدم التمييز نفس الموقع الذي يشغله الملك في الحياة العامة ويؤدي نفس الدور الذي عهدت به الطبيعة الى الملك في مضمار فعله الخاص به. ومحوره في ذلك هو عدم القسر، الذي يفترض بالضرورة دولة ديمقراطية. وقد مر بنا في المدخل ان كتاب تشوانغ تسه دعا الى الاستغناء عن الدولة اذا ما التزم الناس مبادئ التي وانسجموا مع نوااميس الطبيعة. وهو افتراض يصدر عن احلام المثقفين الكونيين في نفورهم من السلطة السياسية مضخماً باليوتوبيا المتقهقرة دوماً أمام المنطق المعقد للتاريخ. ومن هذه الجهة، نجد ان الدولة الديمقراطية اثبتت حضورها في تجارب من الماضي الشرقي واستكملت مضمونها اللاقمعي في تجارب اوربا الحديثة. ولو أنها لم تصل بالناس الى المنشود في كتاب التاو الأول، فما يريده الحكماء الشرقيون يصدق على مفهوم الدولة الشعبية اكثر مما هو على مفهوم الدولة الديمقراطية. وهو مفهوم لا يزال بعيد المنال برغم الجنوح الهائل في تحقيقات الديمقراطية السياسية التي يرجع الفضل فيها الى الحضارة الرأسمالية السائدة. اما الدولة الشعبية فهي منال ابعد بما لا يقاس وقد تقف دون تحقيقه نظريات فرويد في الغرائز.. وعلى اي حال، يترسم لنا كل من لاوتسه ومريده الأول اساسيات تلك الاشواق التي اعتمر فيها قلب الانسان، لا سيما في الشرق، الى وضع مثالي يخلو ليس فقط من القمع السياسي بل ومن الجوع والتفاوت الاجتماعي أوبكلمة ادق من القمع الاجتماعي حيث يتدامج مفهوما الدولة الديمقراطية والدولة الشعبية في توليفة حكم استشرفها

الحكماء دوماً مع عجزهم المتوارث عن وضع الاسس الملموسة لبنائها.
يحتوي كتاب تشوانغ تسه على ثلاثة وثلاثين فصلاً قصاراً. وتوصل
البحث العلمي المعاصر الى تصويب نسبة سبعة فصول منه الى تشوانغ تسه.
اما تأليفه الذي اشتمل على الفصول السبعة مضافة الى بقية الفصول الستة
والعشرين فيرجع الى كوو شيانغ من القرن الثالث الميلادي. ويلاحظ مع
ذلك تقارب في لغة الفصول بمجملها كما في افكارها مما يحمل على
الترجيح انها كتبت تحت تأثير الفصول السبعة واستلهمت افكار تشوانغ
تسه التي تناقلتها الاوساط الفلسفية جيلاً عن جيل ولو من دون ان تتطابق
معها بالتمام.

والجديد في هذا الشأن هو شروح محررها كوو شيانغ، وقد تمايزت عنها
كثيراً وتضمنت ما بين النقد والتطوير فصلاً هي التي حملت فونغ يولان
على اعتبار كوو شيانغ منضج التاوية ومطورها الالمع. وافكار كوو شيانغ كما
نترسمها في شروحه متقدمة، فلسفياً، على سلفية لاوتسه وتشوانغ تسه.
لغة تشوانغ تسه في الفصول السبعة تقوم على السرد، خلافاً لكتاب
لاوتسه، القريب من لغة العروضيين. وهو أكثر غموضاً وانسياحاً من شيخه،
بل واقل انضباطاً في تفكيره. وقد خضع لتداعيات مذهبه في اللافعل
والانسجام مع نواميس واحكام الطبع الى مستويات وضعته احياناً في
تعارض مع مسلماته الاصلية كمتقف كوني مناوئ لما يكدر البشرية في
صفائها الروحي المنعق من اضرار الدولة والمدنيّة. وربما دفعت به تداعيات
اللافعل الى القطيعة مع مبادئ الاحسان تحت لافتة عدم التدخل. ولم يدق
في اختيار الامثلة على العمل وفق النواميس الطبيعية ففي حكاية قصاب
الامير في الفصل الثالث اراد تشوانغ تسه ان يخطط طريقة للعمل تؤدي الى

افضل ناتج بجهد اقل ونجح في ذلك الى مدى بعيد. لكن القارئ لا يلبث ان يتكدر وهو يتابع ساطور القصاب كيف يعمل تمزيقاً وتقطيعاً في اوصال حيوان. وكان من الاليق لو اختار مثاله من نجار او حداد او مزارع. ... وفي كلامه على صفات الحكيم التي يتفوق بها على بقية الناس وتمنحه قدرات فوق بشرية وتنتهي به الى اقامة علاقة طبيعية مثلى مع الناس قال: "ومن هنا يمكن للحكيم ان يدمر بلداً من غير ان يفقد تعلق الناس به" وهذا تعبير لا مسؤول ويعوزه الاحتراس والتدقيق.

لا اريد أن اجور على صديق الانسان تشوانغ تسه. وحتى لو اردت فلا أحد يضمن لي الحق فيه. بل ولعل قارئاً منصفاً سيقول وهو يتابع هذه الاستعراضات: ليت اخطاءكم يا ابناء هذا العصر كانت بقدر اخطائه.

يلاحظ اخيراً سيطرة صورة الماضي الذهبي على كتابات تشوانغ تسه وعموم التاويين. ان غرارهم المعتاد للحكيمية والتطابق المنشود مع الطبيعة، والحكم المثالي للحكام، والسلوك المثالي للناس مأخوذ كله من الغابرين. وهذه نقطة مشتركة في آسيا نجد لها نظائر في خواطر الهنود والفرس والعرب، وربما تركت مفعول سلبي على تقدم الفكر الاسلامي في علاقته بفلسفة اليونان. ومناطقها هو لوح التطور الدوراني في آسيا، التي اتخذ تطورها مساراً اقرب الى التعاود منه الى التعاقب وتبلور تاريخها في مسلسل ارتكاسي يتناوب صعوداً ورجوعاً فلا يكون الاحداث ارقى بالضرورة من الاقدم. ومع وجود خط صعود ينتظم هذا المسلسل يحمل الحضارة المعنية الى محطات متقدمة على مدى الاطوار العريضة فإن حالة الانتكاس تبقى فاعلة في كل منعطف لتمنع الافلات منها الى الافق الاعلى الذي تقفز اليه في العادة منعطفات التاريخ الاوروبي. وضمن هذا المسار المتعرج تكون

الامثولات محددة في الزمان والمكان على نعت الانقطاع لالاتصال، ومعها ينمو الحنين الى الماضي ليغدو نزوعاً عفويّاً اذا لم يجد صاحبه امثلة جاهزة يصنعها لنفسه حتى يبقى في انشداده الى مثال يتطلع اليه من وراء عتبة الحاضر. وقد اشتملت فصول تشوانغ تسه على رموز واحداث غير تاريخية وُظفت لأغراض الفيلسوف ومن بينها اسماء مجهولة سيعجز مترجم الكتاب، وهو بنفسه فيلسوف ومؤرخ فلسفة واسع الاطلاع، عن ارجاعها الى اصل متأرخ. هذا الى جانب رموز معروفة في الوعي الصيني مما يقع داخل التاريخ او خارجه سيشرحها لنا دون غيرها من اسماء قد تكون من صنع المؤلف.

تضم الترجمة الحالية الفصول السبعة التي صحت نسبتها الى تشوانغ تسه. وقد اخذتها عن ترجمة انجليزية اجراها فونغ يولان عام ١٩٢٨ ومعها شروح كووشيانغ منضج التاوية في القرن الثالث الميلادي. واضفت اليها مقتطفات من فصول الكتاب الاخرى من ترجمة الصينياتي البريطاني إي. آر. هيوز. في كتابه Chinese Philosophy in Classical Times الصادر عن دار EVERRYMANS LIBRARY بلندن عام ١٩٤٢ . كما ترجمت تذييل نافع كتبه فونغ يولان عن كووشيانغ في ختام الفصول لما يليقيه من الضوء على تطور التاوية اللاحق.

عن فونغ يولان

ولد عام ١٨٩٥ في تانغ هو من اعمال مقاطعة هونان الجنوبية. تثقف في جامعات شانغهاي وييجينغ وكولومبيا وعمل استاذاً للفلسفة في جامعات تشونغ تشو وكايفونغ ويان تشينغ وتشينغ هوا ثم عميداً لكلية الفنون ورئيساً لقسم الفلسفة في جامعة تشينغ هوا فعميداً لكلية الفنون ثم لجامعة الجنوب الغربي المتحدة فاستاذاً زائراً بجامعة بنسلفانيا ثم استاذاً في جامعة ييجينغ. وحصل على درجة شرف من جامعات برينستون وكولومبيا ودلهي.

من اعماله: "دراسة مقارنة في مثاليات الحياة" "تصور للحياة" وهما من اعماله المبكرة. "تاريخ للفلسفة الصينية" في مجلدين ترجما الى الانجليزية باشرافه وطبعاً في ليدن بهولندا. "افاضة جديدة في الكونفوشية الجديدة"، "طريق الصين الى الحرية" "افاضة جديدة في كيفية الحياة"، افاضة جديدة في طبيعة الانسان"، "افاضة جديدة في منهجيات الميتافيزيقيا"، "مجموعة كتابات في زمن الحرب"، "مختصر في تاريخ الفلسفة الصينية" كتب الاخير بالانجليزية راساً، وترجم فيما بعد الى الفرنسي والايطالي والصربي (يوغسلافيا).

عام ١٩٨٥ بدأت دار النشر الشعبية في مقاطعة هونان، حيث مسقط راسه، اصدار اعماله الكاملة في مجلدات تحت عنوان: "الاعمال الكاملة لقاعة الصنوبرات الثلاثة" على طريقة الصينيين في تسمية قاعات البحوث الامبراطورية. وصدرت له منتخبات بالانجليزية عن دار النشر باللغات الاجنبية في بيجينغ عام ١٩٩١ . وفي مقدمته لهذه المختارات وهي آخر ماكتب قبل رحيله عام ١٩٨٨ قال فونغ يولان: ان الصين امة قديمة ذات رسالة حديثة. وان طريق تقدمها مرهون بالحدثة المستندة الى الحضارة الصينية كعنصر لصيق محدّد للنهج الصيني في الحياة وعندما تستكمل الصين تطورها على هذا الاساس ستقدم مثال على الامة العريقة الضارية في دروب الحياة الحديثة تحت راية الاشتراكية، المتساوقة مع حضارتها. وقال انه في مجمل اعماله على امتداد عمره الطويل كان مسكوناً بهذا الهدف الاسمى. وكان نضاله في سبيل هذا الهدف ضمن مجال عمله الاكاديمي اذ لم يمزج في نشاط سياسي مباشر. ومع ذلك فقد واجه محنة قاسية على يد الغوغاء ايام الثورة الثقافية. وقد اتهمه صبيان الحرس الاحمر بانه رجعي ويميني واخرجوه الى ساحة جامعة بيجينغ لارغامه على الاقرار علناً بهذه التهمة مع الركوع ثلاث مرات امام جمهور الطلبة والاساتذة كان يكرر في كل واحدة منها. أنا رجعي! وفي الحملة الغوغائية على كونفشيوس عام ١٩٧٣ ارغم على اصدار بيان يهاجم كونفشيوس بلغة مبتذلة على النقيض من منهجه الاكاديمي الصارم في تناوله لتاريخ الفلسفة الصينية.

تشرفت بلقاء فونغ يولان اواخر ١٩٨٢ في منزله البسيط بجامعة بيجينغ واجريت معه حوار كنت مضطراً الى اجتزائه بسبب ضغط الشيخوخة عليه. ونشرت الحوار اوائل ١٩٨٣ في بيروت. وقد توفي فونغ

يولان وأنا خارج الصين فحرمت من شرف المشاركة في تأيئته. ولم اعلم
بنأ وفاته الا بعد عودتي الى الصين في صيف ١٩٩١ حيث سألت عنه
فاخبرت انه رحل قبل ثلاثة اعوام.

من المحزن ان يأتي تكريم فونغ يولان واعادة الاعتبار لاعماله العلمية
القيمة على يد ثورة الردة التي الغت النظام الاشتراكي وفطت بالكرامة
الوطنية للصين. وهذه واحدة من المفارقات الموجهة التي يسببها الصبيان
لدويهم في المنعطفات التاريخية الحرجة.

فاتحة للترجمة الانجليزية

حظي كتاب تشوانغ تسه بعدة ترجمات انجليزية فما الحاجة الى المزيد؟
ثمت سببين لهذه الترجمة، الأول ان الترجمة هي اما نقل او شرح.
وفيما يخص الترجمات الانجليزية للكتاب الحالي يمكنني القول انها جيدة
ومفيدة من وجهة اديية او لغوية الا انها لم تلامس الروح الفلسفية الحق
للمؤلف. بكلمة اخرى انها نجحت في الجانب اللغوي والادبي دون
الفلسفي. وحيث ان كتابات تشوانغ تسه هي، شأن محاورات افلاطون،
عمل فلسفي اكثر منه اديي فهي في حاجة الى ترجمة تؤكد اكثر على
فلسفة صاحبها.

من الجهة الثانية كانت اسرة تشينغ (الامبراطورية التي انتهت عام
١٩١١ هـ) تميل الى المدرسانية ميلاً وقر للمدرسانين فرص عمل وافرة في
مجال النقد العالي للنصوص بدرجة اتاحت للعديد من اسفار الغابرين ان
تغدو في متناول القراء. وتبدو الترجمات الانجليزية الابر قاصرة عن
الانتفاع من ثمرات عمل هؤلاء المدرسانين المجدين. فكانت الحاجة ايضاً
الى ترجمة لتشوانغ تسه تستفيد من منجزات المدرسانية الراهنة.

يقول وليم جيمس ان لكل فيلسوف كبير نظرتة، التي اذا امسكنا بها

امكثنا فهم منظومته بيسر. ويقول كروتشه انه بقدر ما تكون المنظومة الفلسفية اعظم تكون الفكرة المركزية أيسر منالاً. ومع ان الترجمة الحالية قد اقتصرت على الفصول السبعة الاولى فإنني اعتقد انها تحتضن الرؤية او الفكرة الا رأس للمؤلف (مما يوفرالمادة الملموسة لفهم منظومته الفلسفية).

في الاعداد لهذه الترجمة رجعت الى سابقاتها وانتفعت بها لا سيما ترجمة لينغ وعايلز. وحيثما وجدت مفاصل منها صالحة لم ارى ضرورة لخالفاتها لمجرد المخالفة. على ان في بعض النصوص من المصطلحات والعبارات والفقرات ما يشكل مفاتيح لفصل كامل يمكن لمغايرتها في الترجمة ان تضفي على الفصل نبرة او لون مغاير. وفي هكذا حالات اقدمت على تبديل النص تبعاً لما اراه تفسيراً سليماً لمقاصد تشوانغ تسه. وهذه الغاية، مضافة الى الشروح والتوضيحات التي ذيلت بها الكتاب، هي ما يسوغ لي اعتبار هذه الترجمة من عندياتي مع اني لا انكر على اي حال ديني لمن سبقني لا سيما لينغ وعايلز.

وأود اخيراً ان اعتذر للقارئ لقابليتي المكبوحة في التعبير عن نفسي بلسان الانجليز.

واعترف له ان ايدي الاصدقاء ل. س. بوتر وأ. دبليوهومل، ومي وو، الذين قرأوا المخطوطة وصححوا الاغلاط اينما وجدوها هي التي جعلت لغة الترجمة اقل سوءاً. وهذه مناسبة للتعبير عن امتناني لهم.

فونغ يولان

ييجينغ - حزيران ١٩٢٨

تنبيه

يحتوي النص المترجم عن فونغ يولان على كلام تشوانغ تسه الاصلي مع شروح فيلسوف تاوي لاحق هو كووشيانغ. وتذييلات لفونغ. وقد طبعت نصوص الاصل بالحرف العادي للكتاب وشروح كووشيانغ وفونغ يولان بالحرف الأسود المائل مع حصرها في قويزات لفرزها عن المتن.

الفصل الاول رحلة السعادة

"مع ان الكبير يختلف عن الصغير فانهما اذا استغرقا في حيز التمتع الذاتي يجعلان جميع الاشياء تنبع سجيتهما الخاصة بها وتفعّل تبعاً لوسعها الخاص بها، جميع ما كان عليها ان تكونه مع التساوي في السعادة... ليس من فسحة للتفريق بين الفرق والدون" - كوروشيانغ.

في الاوقيانوس الشمالي سمكة اسمها كُون^(١) حجمها الف لي استحالت الى طير اسمه بُنْغ عرض ظهره الف لي فكان اذا طار ستر السماء باجنحته كالغيوم.

"الفكرة العامة لتشوانغ تسه هي اظهار رحلة السعادة، الانغماس في دروب اللا فعل والتمتع الذاتي. وهو من هنا يقص علينا قصة الكبير للغاية والصغير للغاية حتى يترسم الملاءمة في سجايا الاشياء" - كوروشيانغ.

وعندما يدفع هذا الطير بنفسه في البحر يتهيأ للتوجه الى الاوقيانوس الجنوبي ، البحيرة السماوية.

"لا يقدر البنغ ان يحرك نفسه الا في الاوقيانوس فالهواء لا يحمل اجنحته مالم يرتفع الى تسعين الف لي^(٢). ولا يفعل البنغ ذلك فضولاً بل لأن الاشياء

الكبيرة للغاية يلزم ان تعيش في الاحياز الواسعة. ولأنه في الحيز الواسع يلزم ان تتشأ الأشياء الكبيرة. هذا هو السبب تبعاً للطبيعة. ليس من خطأ يُخشى منه ولا من موضع للهدف القاصد" - كوشيانغ.

رجل يدعى تشي شيه كان يسجل أحداث روايته قال: لما يتحرك البنگ الى الاوقيانس الجنوبي يرفرف على الماء مسافة ثلاثة آلاف لي. ثم يصعد على دوامة الى ارتفاع تسعين الف لي، في تحليقة تدوم ستة اشهر.

"لما كانت الاجنحة كبيرة يعسر عليها الحركة ويلزمها اعتلاء صهوة العاصفة لكي تنطلق وان ترتفع الى تسعين الف لي حتى يمكن للهواء ان يرفعها. وحيث ان البنگ له مثل هذه لاجنحة فأنى له ان ينطلق فجأة ثم يهبط على ارتفاع عشرات الوف الاقدام؟ ان للبنگ طريقته الخاصة به للقيام بذلك بحكم الضرورة لا لانه يجب عليه القيام به... الطير الكبير يحلق لمدة نصف سنة ثم يحط في البحيرة السمائية. الطير الصغير يحلق لمدة نصف صباح ثم يحط على الاشجار. ولو قارنا قدرتهما لوجدنا اختلافاً. لكن ما يفعله كل منهما ملائم لطبيعته الخاصة به. وبالتالي فهما على السواء" - كوشيانغ.

هنالك الهواء الجوال وهنالك الهباء وهنالك الاشياء الحية التي ينفخ بعضها على بعض.

"هذا لتوضيح ان فعل البنگ طبيعي مثل تحرك الهواء والهباء" - كوشيانغ.

لا ندري ان كانت زرقاء السماء هي لونها الاصلي ام انها تسببت عن ارتفاعها للامتناهي. وفيما يرى البنگ الى الارض من فوق، مثلما نراها نحن من اسفل تماماً، يكف عن الصعود يأخذ بالتوجه نحو الجنوب. بدون عمق كافي لا يحمل الماء زورقاً كبيراً. صب كوب ماء في نقرة صغيرة تصبج حبة الخردل زورقاً. حاول تعويم الكوب يستعسر لان الماء ضحل والوعاء

كبير. بدون كثافة كافية لن تقدر الريح على دعم الاجنحة الكبيرة. وبالتالي حين يصعد البنغ على علو تسعين الف لي تكون الريح باجمعها تحته. ومع السماء الزرقاء في الاعلى وانعدام العائق في الطريق يمتطي الريح ويتجه نحو الجنوب.

” هذا ليين لنا ان الفارض على البنغ ان يخلق في الاعالي هو ضخامة اجنحته. وان ما يحتاجه الصغير ليس بالكبير وما يحتاجه الكبير لا يكون صغيراً. ومن هنا يكون لعلل الطبيعة مجراها الالىق وللأشياء حدها المستديم. يمكن لكل شيء ان يفعل شيئاً وينجح فيه على السواء. من يفقد اساسيات الحياة (السيانية؟) ويصارع خارج ما يلائمه ولا يعمل وفقاً لقابليته الطبيعية ويتصرف بغير احساسه الاصلية يقع في الإعضال بغض النظر عن ان تكون له اجنحة تحجب السماء او جناح صغير يطير به رأساً - كوو شيانغ.

ضحكت حمامة وزيز على البنغ وقالتا له: حينما نقوم بجهد نظير الى الأشجار. واذا لم نقدر على الوصول نسقط على قارعة الطريق. ماجدوى المضى الى علو تسعين الف قدم حتى نشرق نحو الجنوب.

”مع اقتناع الشيء بطبيعته لا يبقى للبنغ ما يفخر به على طير صغير ليست له رغبة في البحيرة السمائية. ومن هنا رغم الفارق بين الكبير والصغير فهما سعيدان على السواء” - كوو شيانغ.

من يروح الى الضواحي المعشبة يأخذ معه ما يكفي من الطعام لثلاث وجبات يعود ومعدته مملأى كما راح. لكن من يسافر مئة لي يجب ان يضمن ما يكفي للمبيت. ومن يسافر الف لي يلزمه ان يتزود بما يكفي لثلاثة أشهر.

”بقدر ما يتعد المرء يحتاج الى تجهيزات طعام اكثر. وبنفس الوتيرة: بقدر

ما تكون الاجنحة كبيرة تزداد الحاجة الى الهواء" - كوو شيانغ.

ماذا يعرف هذان المخلوقان؟

"لكون الزيز والحمامة صغيرين فهما لا يعرفان شيئاً عن الكبير" - فونغ يولان.

لا موضع لمقايسة الصغير بالكبير ولا الحياة القصيرة بالحياة المديدة. من أين لنا ان نعرف ان هذا هكذا؟ الكمأة لا تعرف أول الشهر ولا آخره. ال (كريستاليس) لا يدري بتعاقب الربيع والخريف. هذه أمثلة على الحياة القصيرة... في جنوب دولة تشو يوجد مينغ - لينغ^(٣) يبلغ ربيعته خمسمئة عام. وخريفه مثله. وكان في الماضي السحيق تا - تشون^(٤) ربيعته ثمانمئة عام. ومثله خريفه. واشتهر بنغ تسه^(٢) حتى اليوم لطول عمره. لو أراد جميع الناس مضاهاته لأورثهم التعاسة.

لو ان الدنيا بأسرها اعجبت به لن يتشجع. ولو أن الدنيا بأسرها عذلته لم يُحبط. هو يدرك بلمح البصر فرق ما بين الجواني والبراني. يترسم بدقة حدود الشرف والضعفة. كان ذلك أمثل ما فيه. ان هكذا انسان نادر في الدنيا. وتبقى لديه على أي حال أمور غير منجزة.

"يدري فقط انه هو نفسه على حق. ولا يدري ان كل شيء على حق" كوو شيانغ.

كان ليه تسه^(٥) يركب الريح ويشق طريقه في حال طيبة رائقة ليعود بعد خمسة عشر يوماً. انسان نادر من بين الذين حصلوا على السعادة. لكنه يبقى برغم استغنائه عن المشي مضطراً للاتكاء على شيء ما.

"هي الريح - فونغ

ولكن هب ان احداً يسوق عربته على سوية الكون، يمتطي تصيرات
العناصر الستة ليقوم بجولة في اللانهاية فعلى من سيتكل؟

”الكون هو الاسم الجامع للاشياء. ولديه جميع الاشياء الموافقة له. ان
السوية هي القاعدة الطبيعية المنشودة للاشياء كلها. ”ما هو هكذا بالتقاء (لم
يصنع ليكون هكذا) فهو الطبيعي. يطير البغ في الاعالي والسماى في
الاسافل. التا تشونغ يمكنه العيش عمراً مديداً والكمأة اياماً معدودات. وهذه
القدرات طبيعية كلها لم تصنع ولم تُلَقَّن. وهكذا فهي أمور سوية. ومن هنا:
السير وفق سوية الكون هو أن تقفو سجية الاشياء. وركوب تصيرات العناصر
الستة هو للقيام برحلة في دروب التحول والارتقاء. فمن مضى على هذه
الشاكلة متى يتمكن من بلوغ النهاية؟ ومن خب في سبيله غير عابئ فعلى اي
شيء يتعين عليه الإتكال؟ تلك هي سعادة وحرية الانسان الكامل، المتوحد مع
الغير.. اذا تعين على احد أن يتكل على شيء فلن يكون سعيداً مالم يتكل
عليه. ومع ان ليه تسه شق دربه بوسيلة لطيفة كهذه فقد بقيت له حاجة هي
الريح. بل ان البغ اكثر اتكالا... وحده الذي يتجاهل تمايزات الاشياء ويقضي
درب الارتقاء الاعظم هو من يكون مستقلاً على التحقيق وحرراً على الدوام” -
كووشيانغ.

ومن هنا قيل ان الانسان الكامل لا نفس له، والروحاني لا فعل له
والحكيم الحق لا اسم له.

”كل شيء له سجيته الموافقة. وسجية كل شيء لها حدها الموافق. الفروق
بين الاشياء تشبه على التمام ما بين المعرفة الصغيرة والكبيرة، وما بين الحياة
القصيرة والمديدة.. الكل راضٍ بمضماره الخاص به ولا أحد متفوق بالفطرة
على احد. بعد اعطاء ترسيمات شتى يختم تشوانغ تسه بالانسان المستقل،
الذي ينسى نفسه والآخرين. يتجاهل الفوارق بأجمعها. ان الاشياء باسرها

تتمتع بمضاميرها الخاصة بها لكن الانسان المستقل لا فعل له ولا اسم. وبذلك فمن يوحد بين الكبير والصغير هو من يتجاهل التمايز ما بينهما. والمصر على التمييز: البنغ والزيز والموظف الصغير وركوب له تسه الرياح فقد أوق نفسه. ومن يساوي بين الحياة والموت هو من ينسى الفارق بينهما. ومع الاصرار على التمايزات فإن تا - تشون وبنغ تسه وكماة الصباح تكابد من هلاك مبكر. ومن هنا فمن يقوم بالرحلة في لا تمايزات الكبير والصغير ليس له حد ومن يتجاهل تفارق الموت والحياة لا منتهى له. ومن ترتعن سعادتهم في المتاهي هم المحدودون. ومع انهم مسموح لهم بالرحلة فهم غير قادرين على ان يكونوا مستقلين" - كوو شيانغ.

"ان تمتعت الاشياء في محيطها المتاهي فالمتعة متاهية. مثلاً: ان يتمتع المرء بالحياة فقط فيكابد الموت او يتمتع بالسلطة فيكابد من خسارته اياها. اما المستقل فيعبر المتاهيات مخفياً العالم في العالم كما جاء في الفصل الخامس، الى اللامتاهي: الانسان الكامل لا نفس له" لانه تجاوز المتاهي وتمهوى مع الكون. "الروحاني لا فعل له" لأنه يقفو طبيعة الاشياء ويترك كل شيء يتمتع بنفسه. "الحكيم الحق لا اسم له" لان فضيلته كاملة، اذ كل اسم هو تحديد - فونغ.

اراد ياو^(٦) ان يعتزل لصالح شويو^(٧) قائلاً: اذا اصر المرء على ايقاد المشاعل مع شروق الشمس والقمر الا يكون عسيراً عليها ان تضيء، واذا اصر على سقي الحقول والامطار الموسمية تهطل اليس في ذلك اهدار للجهد؟ والآن ايها السيد انت تقف الآن امام العرش حتى تكون الامبراطورية في أمان. ومع ذلك تترك رئاستها لي. انني واع لنقيصتي. اتوسل اليك ان تأخذها مني.

أجاب شو يو: بل انت ايها السيد تول امرها تكن في سلام في الحال.

هب اني اخذت، أيمكن ذلك لأجل الاسم؟ ليس الاسم الا ظل الكسب الواقعي. ايمكن ذلك لأجل مكسب اصلي؟ بيني الزرزور عشه في الغابة الجبارة ولا يحتل منها سوى فن واحد. يروي الحيوان غلته من النهر ويشرب فقط ما يكفيه ملء جوفه. ارجع انت وكن مطمئناً لا حاجة بي الى الامبراطورية.

”الطيور، البهائم، وجميع الاشياء راضية بطبيعتها. ياو وشويو كلاهما في موقعهما تماماً. وهذا تحصيل فعلي جداً. ومادام لكل واحد تحصيل فعلي فما الحاجة الى النشاط المصطنع؟ الكل يتمتع ببساطة. ومع ان ياو وشويو مختلفان في تناولهما للاشياء فإن سعادتهما واحدة - كوشيانغ.

قال تْشِينْ توو لَئِنْ شو^(٨): سمعت من تشيه ان بعض ما ينطق به جليل انما غير مبرر، لانه ما ان يبدأ حتى يستمر الى مالا نهاية. وقد اجفلتني كلماته التي بدت لي بلا حدود مثل درب التبانة. كانت بعيدة عن الاحتمال وابتعدت جداً عن التجربة البشرية.

فسأله لَئِنْ شو: ماذا قال؟

أجاب تْشِينْ وو : في منأى بعيد، عند جبل كوي بي عاش رجل روحاني كان لحمه وجلده كالثلج والجليد وكان في لطفه ورهافته كالعذراء. وكان لا يأكل اياً من الحبوب الخمسة انما يستنشق الريح ويشرب الندى.

”يعلو الروحاني على الماديات” - فونغ.

كان يمتطي السحب، يسوق التنانين الطائرة، يهيم على وجهه في البحار الاربعة.

”يذهب وراء المتاهيات - فونغ

”روحه مكتظه

ساكنة، مطمئنة فهو لا يتأثر بالبراني” - فونغ

كان مقتدراً على اصلاح الاشياء من الفساد وتأمين حصاد سنوي وافر..
كنت اعتقد ان هذه اقاويل لا معنى لها وأييت ان اصدقها.

قال لين شو: اجل! ليس للاعمى ما يفعله بالجمال ولا الاطرش بالموسيقى. والعمى والصمم عقليان كما هما يدنيان. وعن الاول تقدم انت نفسك الدليل. ذاك الانسان المغمور بالفضيلة يمكنه احتضان جميع الاشياء. وعنده ان كل شيء في الدنيا يرنو الى السلم، ترى لماذا ينبغي ان يتصدى البعض لحكم الامبراطورية؟

”مادامت جميع الاشياء تنرنو الى السلم فلم لا نتركها تحصل عليه بنفسها؟” - فونغ

ذاك انسان لا يؤذيه شيء. لا يغرقه طوفان يبلغ السماء، وفي الجفاف حين تسيل المعادن وتشيط الجبال لا يشعر بالحر.

”ليس من مقدار يمكن للانسان الكامل أن يقنع به. فهو راضٍ حيثما كان. الموت والحياة لا يضرانه، والاقبل من ذلك الفيضان والقيظ. الانسان الكامل لا تعضله القوارع لانه قادر على تفاديها. وفي مجرى الاسباب يمضي قدماً ويلقى الخير طبعياً - كوو شيانغ.

”مع ان الانسان الكامل قد يتأذى لسبب ما فان ذهنه لا يضار” - فونغ.
حتى غباره ومنخوله يبقى غرارياً ويمتزج فيه يار وشون^(٩) فأى شيء يوجب عليه الانشغال بالاشياء؟

رجل من دولة شنغ^(١٠) حمل قبعات احتفالية الى دولة ثويه^(١١) لكن

رجال يويه تعودوا على قص شعرهم وصبغ ابدانهم فهم لا يتخذون مثل هذه القبعات.

ياو حكم شعب الامبراطورية واقام حكومة كاملة ضمن البحار الاربعة. توجه لرؤية الحكماء الاربعة في جبل كويي النائي. وفي العودة الى عاصمته جنوب نهر فُن نسي امبراطوريته في صمت.

"ياو لا يحتاج الى الامبراطورية. تماماً مثلما ابناء بويه لا يحتاجون الى القبعات لكن من لا يحتاج الى الامبراطورية هو تماماً ذلك الانسان الذي تحتاجه الامبراطورية. ومع أن الامبراطورية اتخذت من ياو راساً لها فإن ياو نفسه لا يعتبر الامبراطورية ضميره المتكلم (تا ده). ولذلك نسيها وترك لذهنه ان يسبح في مملكة اللاتمايز. ومع انه استوى على العرش وهيمن على الاشياء كلها فليس من شيء قادر على اطلاق راحته" - كوو شيانغ.

قال هوي تسه^(١) تشوانغ تسه: بعث الي ملك وي^(٢) شيئاً من بزر اليقطين فزرعتها واعطت ثماراً بقدر خمس قطارات. اتخذتها وعاء للماء لكنها لينست صلدة بما يكفي لحفظه. قطعها الي نصفين لعمل مغرفة لكن النصفين كانا من الضحالة بحيث لا يسكان شيئاً.. ونظراً لعدم الفائدة هذا حطمتها وذرة وذرة". فعقب تشوانغ تسه:

انت يا سيدي لا تحسن استعمال الاشياء الكبيرة. رجل من سُنج كانت لديه وصفة لعلاج الايدي المتشققة. وكان اسرته تحترف غسل الحرير من عدة اجيال. وسمع رجل غريب بوصفته فعرض عليه مئة قطعة ذهب مقابلها، واجتمعت الاسرة للنظر في العرض فقالوا: اننا نغسل الحرير من اجيال ولم نحصل الا على بضعة قطع ذهب. والآن في صباح واحد نبيع هذا الفن بمئة. فأخذها الغريب وانكفاً لا بلاغ ملك وو، وكان هذا في نزاع

مع دولة يويه فقلده امرة الاسطول. وفي الشتاء اشتبك مع دولة يويه فهزمها هزيمة منكرة بعد ان استعمل المرهم لعلاج تشقق الايدي، وهو مالم تكن دولة يويه معنية بتوفيره لجنودها.

وكوفئ الرجل باقطاعة ولقب. وهكذا ورغم ان كفاءة علاج الايدي واحدة في الحالتين فقدأمنت له هنا لقباً بينما هي لا تزيد هناك على كفاءة غسل الحرير. ومرجع ذلك الى تفاوت التطبيق.. والآن يا سيدي عندك خمس احمال يقطين فلماذا لم تعمل منها دبة ضخمة وتستعملها للوم في الانهار والبحيرات بدلاً من ان تأسف لانها لا تصلح لامسك شيء؟ ما اظنك الا مشوش البال.

اجاب هوي تسه: لدي دوحة يسميها الناس شجرة السماء جذعها من عدم الانتظام وكثرة العُجر بحيث لا يستطيع النجار أن يضع خطوطه عليها. واغصانها الصغيرة من الالتواء بحيث لا تصلح لاستعمال ادوات النجار. وهي تقف شامخة على قارعة الطريق من دون ان يلتفت اليها النجارون. وانت يا سيدي كلماتك كبيرة لكنها عديمة الفائدة ولا نفس ل احد فيها..

رد تشوانغ تسه: هل سبق لك ان رأيت قطعة وحشية او ابن عرس؟ وكيف انها تحبو بانتظار فريستها، او تتقافز شرقاً وغرباً مع تجنب العالي والواطي من الاماكن. لكنها اخيراً تقع في مصيدة او تموت في شبكة. مرة اخرى، ثمت باك^(١٢) حجمه بحجم الغيوم عبر السماء الا انه لا يقدر على اصطياد فارة. وانت لديك دوحة الا انك قلق لانها عندك عديمة الفائدة. لماذا لم تغرسها في ارض اللاوجود؟ في البراري العريضة المترامية؟ ولو فعلت لكنت تسيح منها في اللافعل وتنام تحتها في سعادة. ان كون الشيء عديم الفائدة عند الغير يجعله في منأى عن الاذى.

"- تبين هذه الامثال ان كل شيء له لياقته المخصوصة به وان كل شيء نافع بطريقة معينة وغير نافع في غيرها" - فونغ.

الهوامش

(١) كون: بضم الكاف. بنغ: يلفظ الباء قريباً من باء باريس، مع فتحة خفيفة. شبه: بكسر الشين وعدم لفظ الهاء

- البحيرة السمائية: استعملت النسبة سمائي لمقابل sky . وسماوي لمقابل HEAVEN والمكلمة في الاصل الصيني لاتتمايز ألا في السياق. واستعمالي للنسبتين المهموزة والواوية لزيادة التمييز.

سأستعمل أيضاً "سماوات" في صيغة الجمع في معظم الحالات المقابلة للـ تيان (HEAVEN).

(٢) لي: وحدة مسافة تعادل خمسمائة متر.

(٣) مينغ لينغ وتاتشون عند بعض الشّراح شجرتان . وعند آخرين علمان لشخصين - فونغ.

(٤) بنغ تسه (باء قرية من باء باريس) رجل من أسرة شانغ (ثاني الاسرات) يقال انه عاش ثمانمائة سنة - فونغ نوح الصيني - هـ.

(٥) ليه تسه: من آباء التاويين. والكتاب المسمى باسمه من مآثوراتهم الكبرى - هـ.

(٦) باو وشون من الملوك الحكماء

(٧) شويو ناسك حسب المآثورات الصينية

- (٨) تشين: سكون التش وفتح الياء. لين: سكون اللام وفتح الياء
(٩) ياو ملك حكيم حسب المأثورات الصينية
(١٠) سنغ بضم السين، يويه بسكون الياء وفتح الواو وإمالة الياء، فن بضم الفاء
(١١) هوي تسه: بسكون الهاء وكسر الواو، زعيم المدرسة المنطقية . وكان يعاصر
تشوانغ تسه
وَي: يفتح الواو.
(١٢) ياك: الجاموس التبتى - هـ

الفصل الثاني في تساوي الاشياء

”كل شيء يرى نفسه محققاً وغيره مبطلاً. يرى نفسه جميلاً والآخرين قباحاً. كل شيء هو ماهو . تتخالف آراء الفرد والآخر لكن كلاهما له رأيه وهم في ذلك سواء” - كووشيانغ.

جلس نان كوو تسه تشي متكئاً على منضدة. نظر الى السماء وتنفس بارتياح، بدا كأنه في غيبوبة، غير شاعر بجسده.

قال ين تشنغ تسه يو وكان في خدمته: ما هذا؟ ايمكن للجسد ان يكون كالخشب اليابس، والذهن كالرماد الخامد؟ الرجل المتكى على منضدة ليس هو الذي كان هنا من قبل.

قال تسه تشي: سؤالك في محله تماماً. الآن بالضبط اضعت نفسي. لعلك سمعت موسيقى الانسان ولم تسمع موسيقى الارض. لعلك سمعت موسيقى الارض ولم تسمع موسيقى السماء.

رد تسه يو: اغامر فاطلب منك وصفاً عاماً لهذه.

قال تسه تشي: نَفَس الكون سَمَى الريح. هي الآن راكدة. عندما تنشط

تأتي اصوات غاضبة من كل منفذ. الم تسمع الدوي المتنامي؟ ان المظهر المهيّب للغابة الجبلية، فتحات وتجاويف الشجر تشبه المناخر، تشبه الفم، تشبه الاذنين، تشبه الاقداح، تشبه الهاون، تشبه البرك.. تندفع الريح من خلالها محدثة اصوات مياه متدفقة، ازيز السهام، التعنيف، التنفس، الرمي، البكاء، العويل، انين المحتضر. بعض الاصوات عالي وبعضها عميق. الريح الرفيعة تنتج تجانسات صغرى. الريح العنيفة تنتج تجانسات كبرى. بعد ان تمر العصفه الشديدة تعود جميع المنافذ فارغة. الم تر توتر واستقرار الاغصان والورقة.

"ليس الاصوات هي المختلفة فقط بل الحركات ايضاً. الحركات تنوع بطرق شتى لكنها متماثلة. ليس من سبب لاعتبار التوتير صحيحاً بالخصوص او الاهتزاز خطأ بالخصوص" - كووشيانغ

قال تسه يو: موسيقى الارض تتألف من اصوات تنتج عن فتحات متنوعة. أما موسيقى الانسان فتأتي من الاناييب والحزوز. واغامر بالسؤال من اي شيء تتألف موسيقى السماء؟

قال تسه تشي: حين تهب الريح تختلف بالوف الاشكال لكنها على اي حال تهب من ذاتها. لماذا نتصورها تهب باثارة من شيء آخر؟

"هذه هي موسيقى السماء. ليست هي شيئاً بجانب غيرها. فالفتحات والاناييب، والحزوز وبقية الكائنات الحية كلها تؤلف الطبيعة. ولما كان اللاكائن لا كائن فلا يستطيع انتاج الكائن واذا لم يكن الكائن منتوجاً (مخلوقاً) فليس بوسعه انتاج (خلق) غيره. فمن هو يا ترى منتج الاشياء؟ الجواب انها تُنتج نفسها تلقائياً، ونحن نسمي صيرورة الشيء ما هو تلقائياً بالطبيعي. ان كل شيء هو ماهو بالطبع ولم يصنع ليكون هكذا. ومن هنا حين

يتكلم تشوانغ تسه عن السماء (التيان) فهو يقصد الطبيعي، ولا وجود لشيء ينوع بوصفه تيان. ترى من سيمكنه ان يكون هو السيد الذي يأمر على الاشياء، كل شيء موجود بنفسه ولم يوجد له احد. هذا هو سبيل الطبيعة" - كوو شيانغ

"هوب الريح متنوع لكن الرياح متساوية بالطبع وجيدة بالطبع. وهكذا الاشياء والآراء على شتاتها تكون متساوية بالطبع وجيدة بالطبع" - فونغ.

المعرفة الكبرى عريضة شاملة. المعرفة الصغرى جزئية مفيدة. الكلام الكبير غني ونفاذ، والكلام الصغير ليس إلا كلاماً كبيراً. حين ينام الناس تشوش النفس وحين يستيقظون تكون حركة البدن.

"الحلم هو تشوش النفس" - فونغ

في علاقات الناس ببعضهم توجد مناورة وتدير ونضال يومي. بين العقل والعقل. هناك حيرات واخفاءات وتحفظات. الادراكات الصغرى تسبب مصائب، الادراكات الكبرى تسبب مخاوف. عقل البعض يطير قدماً مثل الرمح، الحكم بين الحق والباطل، عقل غيرهم يبقى ثابتاً مثل ميثاق مقدس. حارس الحقوق مؤمن. عقل البعض يخمل كما تتحلل الاشياء في الخريف والشتاء. عقل غيرهم يفرق في المرح فلا يفيء (الى حفاظ). عقل آخرين له عوائد مثبتة مثل وشل قديم. فهو على وشك الموت ولا يمكنه ان يفيء الى نشاط.. الجبور والسخط، الاسى والسرور، القلق والاسف، التقلب والعزم، الشد والارخاء، التسامح والجريرة، هذه كلها تأتي كالوسيقى الصائتة من انبوب فارغ او كمأة نشأت من الدفء والرطوبة. تتعاقب يوماً وليلة في داخلنا ولا ندري متى تنبثق. أفني وسعنا ان نتوقع في اللحظة ادراك كيفية انوجادها؟

"ما ورد اعلاه هو وصف لتنوع الظروف النفسانية. فهي تظهر تلقائياً مثل صوت موسيقى من قصبه او كمأة تنشأ في الدفء والرطوبة. وهي ناتجة بدون منتج، تماماً كما ان موسيقى الارض لا تحتاج الى عنصر مخصوص لاثارتها" - فونف.

لولم يكن هو لم اكن انا. ولولم يكن انا لم يكن من يصنع التمايزات. يبدو هذا صحيحاً. ولكن ماهو مصدر هذه التنوعات؟ انه ليبدو كما لو ان هناك (سيد) ولكن لا دليل عندنا على وجوده. قد يعتقد البعض انه موجود لكن لا نرى صورته. قد يكون له واقع ولا صورة. ان الاجزاء المثة في الجسد مع فتحاته التسعة واحشائه الستة كلها مكتملة في مواضعها. اي منها هو الافضل؟ هل تحبها جميعها على السواء؟ او تحب بعضها اكثر من الآخر؟ هل هي كلها خدم، هل هذه الخدم غير قادرة على تدبير بعضها البعض وتحتاج الى حاكم؟ هل تتناوب الحكم على /وخدمة/ بعضها البعض؟ هل من فاعل حقيقي فوقها. هذه الاسئلة تبقى في الحساب. وسواء وجدت لها اجابات صادقة ام لا فهي لا تعني الا القليل من حقيقة "الحاكم" (ان كان قد وجد).

"في الكون الأكبر لا وجود لسيد حقيقي غير تنوعات الاشياء. ليس من رب. في الكون الاصغر لا وجود لحاكم حقيقي عدا الاجزاء المختلفة للبدن. ليس من روح" - فونف

اذا اخذنا الصورة الجسدية باكملها نجد ان اجزاءها لا تفشل في اداء وظائفها حتى تحين النهاية. وفي التصادم والتوافق مع الاشياء فهي تتبع مجراها بسرعة الحصان الموجف الذي يتعذر ايقافه. ليست هذه مجلبة للاسى؟ ان يكون الكدح متواصلاً طول العمر من غير ان نرى ثمرة كدحنا،

ان نكون على قلق سائرين ولا يدري احدنا الى اين يمضي؟ قد يقول المرء: "هناك خلود". ولكن ماجدوى قوله؟ حينما يتحلل الجسد تتحلل الروح. الا يمكن لنا اعتبار ذلك من الموجعات؟ هل حياة الانسان على هذا القدر من الجهل؟ وهل أنا وحدي الجاهل ولا وجود لجاهل سواي؟

ان كان على الناس ان يسترشدوا بأحد فمن سيكون له مثل هذا المرشد؟ ليس فقط اولئك الذين يعرفون تعاقبات الحق والباطل ويختارون بينها تكون لهم اراء. فالمعتوهين لهم ذلك ايضاً. ان وضعاً يخلو من الآراء، بعد ان يكون التمييز بين الحق والباطل قد حصل لهو من صعوبة التصور كما لو ان احداً يذهب الى ثيوه اليوم ويصل اليها امس. اي اتنا نجعل مالا يكون يكون. واني لنا ان نجعل مالا يكون يكون؟ حتى يو^(١) المقدس لا دراية له فماذا اقول انا؟

"بين ذلك ان جميع التميزات للحق والباطل خاضعة للرأي" - فونغ
الكلام ليس مجرد نفخ الهواء. فهو (المتكلم) يريد ان يقول شيئاً. لكن ما يريد قوله لم يثبت اطلاقاً.

"ما يؤكد واحد قد ينكره الآخر" - فونغ

هل نفخ الهواء هو كلام حقاً؟ يرى البعض ان الكلام مختلف عن سقسقة الطيور. ولكن هل من فارق بينهما؟ كيف يكون التاو غامضاً بحيث يتوجب التمييز بين الحقيقي والزائف؟ كيف يكون الكلام غامضاً بحيث يتوجب التمييز بين الحق والباطل؟ أي مكان ليس فيه التاو؟ وفي اي مكان يكون الكلام غير مناسب؟

"التاو حال في كل مكان والكلام ملائم في كل مكان. جاء في فصل

"فيضانات الخريف" من كتاب تشوانغ تسه" من وجهة التاوا لا تميز للقيمة واللاقيمة. ومن وجهة الاشياء كل شيء يرى القيمة لنفسه ولا يراها لغيره. ان قلنا ان شيئاً عظيم فلانه محسوب هكذا من طرف بعض الاشياء. ومعنى ذلك ان كل شيء هو عظيم. وان قلنا ان شيئاً ما صغير فلأنه محسوب هكذا من طرف بعض الاشياء. ومعنى ذلك ان كل شيء هو صغير. وان قلنا عن شيء انه صحيح فلانه كذلك عند البعض، ومن ثم فكل شيء صحيح. وان قلنا عن شيء انه خطأ فلأنه كذلك عند البعض ومن ثم فكل شيء خطأ. ان أي كلمة يمكن ان تكون محمولة لأي شيء. وكل كلمة ملائمة في كل مكان" لغونغ

التاوا غامضة بالحباة والكلام غامض بالبلاغة. النتيجة هي اثبات ونفي الكنافشة والموهيين. الواحد منهم يعتبر حقاً مايعتبره الآخر باطلاً او يعتبر باطلاً ما يعتبره الآخر حقاً. ان اردنا اثبات ما تنكره المدرستان كلاهما وانكار ما تثبانه فليس افضل من استعمال ضوء العقل.

يتميز الكنافشة والموهيون بين الحق والباطل. ولإثبات ما ينكرون ومالا ينكرون ننفي ان يكون للتمييز اساس في الاصل" - كوو شيانغ.

كل شيء هو "ذاك" (غير للشيء). كل شيء هو "هذا" (ذاته الخاصة به) الاشياء لا تدري ماهو "ذاك" لأن وعيها مقتصر على ال "هذا". ان ال "ذاك" وال "هذا" ينتجان بعضهما. وعليه حيثما وجدت حياه يوجد موت. وحيثما يوجد موت يوجد حياة. حيثما يوجد امكان يوجد محال، وحيثما يوجد محال يوجد امكان، ولأنه يوجد حق يوجد باطل، ولأنه يوجد باطل يوجد حق. ومع احتساب هذه الحقيقة لا يسلك الحكماء هذا المسلك انما يرون الاشياء في ضوء ال "تيان" - السماء أو الطبيعة. هـ. أن ال "هذا" هو ايضاً "ذاك"، وال "ذاك" هو ايضاً "هذا". ولد "ذاك" نسق للحق والباطل

ولـ"هذا" مثله. هل من تمايز صادق ما بين الـ"هذا" والـ"ذاك". ان عدم تضاد الـ هذا والـ ذاك هو جوهر التاو الاقرب وهو المحور ومركز الدائرة المستجيب لتغيرات لانهاية...ومن ثم قيل: مامن شيء احسن من استعمال نور العقل.

"تمايزات الحق والباطل ترجع كلها الى الرأي. والقادر على استظهار الخطأ والصواب من الآراء هو العقل التعليمي الذي يرى الاشياء في ضوء السماء، مدركاً ان "نسق الخطأ والصواب" هو محاكمة بشرية وليس من قضايا الطبيعة الثابتة. ان رؤية هذا هو الجوهر الاقرب للتاو" - فونغ

استعمال اصابع في رسم اصابع بوصفها ليست اصابع ليس جيداً. كما لو تستعمل الـأصابع في رسم اصابع بوصفها ليست اصابع. اتخاذ حصان ابيض لرسم احصنة بوصفها ليست احصنة ليس جيداً كما لو تتخذ لاحصان في رسم احصنة بوصفها ليست احصنة. العالم كله اصبع الاشياء كلها حصان.

"لتبيان انه لا تفريق بين الحق والباطل فليس احسن من رسم شيء واحد بواسطة الآخر. ففي رسم واحد بواسطة الآخر نجد أن الاشياء تتفق في انها جميعها ترى نفسها على حق والغير على الباطل. ومادامت تتفق على ذلك فمعناه انه لا يوجد صواب في العالم. أما من جهة اتفاقها جميعها انها على حق فمعناه انه لا يوجد خطأ في العالم. أنى يكون هذا؟ ان كان الحق حقاً باطلاق فينبغي ان لا يوجد خطأ وان يكن الخطأ خطأ باطلاق فينبغي ان لا يوجد ما نعتبر انه حق. ان حقيقة انكار عدم التعيين بين الحق والباطل والتخبط في التمييزات تبين ان التمييز يرجع الى النظرة المنحازة. ان الاشياء متفقة في الحقيقة. ونحن نرى مصداق ذلك في كل مكان. ومن هنا اذ يعرف الانسان الكامل ان العالم هو اصبع وجميع الاشياء حصان يُخلد الى السلم الاعظم.

جميع الاشياء تعمل وفقاً لطبيعتها. وتتمتع. فلا فرق بين حق وباطل - كوو شيانغ.

"في هذا تمثيل للنظرية القائلة ان مهاجمة نسق واحد للخطأ والصواب مع نسق آخر هو قياس غير صحيح بقدر ما لو تهاجم النسق الكلي للخطأ والصواب مع نسق الالتميز بينهما. ان برهان الاصبع والحصان استعمله المنطقة القائلين بوجود تمايز مطلق بين الصح والخطأ. وانكره التاويون القائلون بعدم وقوع التمايز وقد اوقع ذلك النزاع بين المدرستين" - فونغ.

الممكن ممكن والحال محال. التاو يجعل الاشياء ماهي عليه (يعطيها ماهيتها - ه) وأي شيء ماهي، وأي شيء مالميس هي! كل شيء هو بعض لشيء مامن شيء ليس بعضاً لشيء او غير صالح لشيء. يوجد الواح سقوف واساطين، قباحة وحسن، غريب وفوق عادي. وهذه كلها تتوحد بالتاو وتغدو متماثلة.. القيام بالتمييز هو القيام ببعض الانشاء لكن الانشاء هو التفكيك نفسه. وبالنسبة للاشياء ككل لا وجود لانشاء ولا تفكيك فهي تتجه للوحدة والتدامج. الذكي وحده يدرك وحدة الاشياء وهو بالتالي لا يصنع تمايزات وانما يقفو المشترك والعادي. المشترك والعادي هما الوظائف الطبيعية للاشياء والتي تعبر عن الطبيعة المشتركة للجميع. واتباع الطبيعة المشتركة تكون الاشياء سعيدة. واذ تكون سعيدة تقترب من الكمال. وكمالها توقفها. فهي تقف وان كانت لا تدري انها واقفة. ذلك هو التاو.

ان ابلاء الروح والفتنة للوصول الى وحدة الاشياء بدون معرفة انها متفقة يسمى ثلاثة في الصباح. مامعنى ثلاثة في الصباح؟ تلقى ناظر سعادين امراً بخصوص راشن البلوط يقضي ان يكون لكل سعدان ثلاثة في الصباح واربعة في الليل. لكن السعادين غضبت لذلك. فقال الناظر: ليكن

لكل واحد اربعة في الصباح وثلاثة في الليل ففرحت السعادين كلها. ان العدد الفعلي للبلوط بقي نفسه وكان الفارق فقط في مشاعر السعادين فيما يخص الرضا والسخط، فسلك الناظر على منوالها. ومن هنا يوفق الحكماء نسق الصبح والخطأ ويستريحون في دورة الطبيعة. هذا يسمى اقتفاء مجريين في آن واحد.

”مع ان انساق الصبح والغلط ليست الا محاكمات بشرية وليس لها مشروعية من وجهة نظر الطبيعة فإن الناس يقومون بهذه المحاكمات كحقيقة، هي بدورها ظاهرة طبيعية. ولذلك يستريح الحكماء، في دورة الطبيعة تاركين الآراء المتضاربة لحالها دون ان ينازعوا او يتدخلوا فيها. هم لا يشطبون على الآراء انما يتجاوزونها وهو ما نسميه اتباع مجريين في آن واحد“ - فونغ.

معرفة الغابرين كانت تامة. وكيف؟ أولاً لانهم لم يعرفوا وجود الاشياء وهذه هي المعرفة الاتم التي لا تقبل الزيادة. ثم عرفوا وجود اشياء لكنهم لم يمايزوا بينها. ثم قاموا بالتمييز ولكن لم يقوموا بالمحاكمات حولها فمع المحاكمات يفسد التاو. واذ يفسد التاو تنتهي الافضليات الجزئية. هل حقاً يوجد انشاء وتفكيك؟ هذا يشبه حقيقة عزف تشاو ون على المهر. فالقول بأنه لا يوجد انشاء وتفكيك هو كالقول بأن تشاو ون لا يعزف على المهر (وان كان قد عزف عليه فعلاً!)

لما عزف تشاو ون على المهر استعمل شيه كوانغ العصا لضبط الوقت. حاجج هوي تسه وهو متكئ على شجرة^(٢). وكانت دراية كل من الاساتذة الثلاثة بفتونهم تامة تقريباً، فمارسها كل منهم حتى آخر ايامه. ولانهم كانوا مولعين بها احبوا تنوير الناس بها لكن الناس رغبوا عنهم فانتهى هوي تسه بمحاجة غامضة عن الصلابة والبياض^(٣).

بعد تشاؤون واصل ولده العزف على أوتاره، ولم يتمها. ان كان هذا يدعى "إتمام" فقد قمت انا بإتمام شيء ما. وان لم يكن يدعى "إتمام" فلا أنا ولا غيري نكون قد انجزنا شيئاً. ومن هنا فما كان يرمي اليه الحكماء هو النور خارج العتمة. وهم لذلك لا يقومون بتمييزات ويتوقفون عند العادي من الاشياء. هذا يسمى استعمال نور العقل التعليلي.

"يتدرج تشوانغ تسه هنا من مناقشة المعرفة العقلية للتمييزات بخصوص الصواب والغلط الى الخبرة الباطنة لاتحاد الجزء في الكل. ويتحفظ الاتحاد في ارض الخبرة الخاصة. وهذا هو منحى الغابرين، كانوا يأخذون التجربة الخالصة ببساطة، الاستحضار الفوري، الـ "ذاك" باختصار. (لانه يجب ان تبقى الذاك خالصة، مجردة الى ان نقرر ماهي). هم يأخذون الـ "ذاك" بقيمتها المباشرة لأكثر ولا اقل. وأخذنا بقيمتها هذه يعني قبل كل شيء أخذها كما نشعر بها من غير أن نربك انفسنا بالكلام المجرد عنها ونحشد الكلمات التي تسوقنا الى اختراع تصورات ثانوية لتذهين اقتراحاتنا وجعل خبرتنا الفعلية تبدو مرة اخرى ممكنة عقلياً. وفي هذه الحالة يوجد دفع غير متكسر من التجربة لا يعرفه المحرب.. لم يعرف الغابرون وجود الاشياء حتى ينفوا عنها التمايز.. الاشياء لا تنفصل عن بعضها حتى نقول كلا للتمييز بين الذات والموضوع. وهكذا في حال تجربة كهذه لا وجود إلا للواحد" - فونغ.

"برانياً، ينسى الغابرون السماوات والارض، يهملون الاشياء قاطبة، فلا مراقبة قاصدة عندهم للعالم. جوانياً هم لا يعون ابدانهم. ومن هنا فهم احرار وبدون اشكالات يذهبون مع اي شيء ويتكيفون لاي مكان - كوو شيانغ.

لدي الآن شيء اقله انا لا ادري ان كان ما ساقوله هو من غرار ما يقوله الآخرون. فبمعنى اول ان ما اقله ليس من طراز واحد وبمعنى ثاني هو من نفس الطراز وانه لا فرق بين قلبي وقول الآخرين. ولكن ومع ان هذه هي

الحالة فإنني احاول الابانة: ثمت بداية. ثمت لابتدابة. ثمت لا - لا - لا
بداية.. ثمت كائن، ثمت لا كائن، ثمت لا - لا كائن... فجأة يقع التمييز
بين الكائن واللا كائن. لكنني لا اعرف بين الكائن واللا كائن ماهو الكائن
الحقيقي وماهو اللا كائن الحقيقي. قلت للتو شيئاً ما لكنني لا ادري ان كان
ما قلته هو شيء ما حقيقي يقال ام لا. ليس في العالم اكبر من رأس شعرة،
لكن جبل تاي صغير. لا شيء اكبر من طفل ميت لكن بنغ تسه يموت
بدون وقت. السماوات والارض وانا جئنا إلى الوجود معاً، وجميع الاشياء
معني واحدة. وحيث تكون الاشياء واحدة فأني فسحة تبقى للكلام، ولكن
مادمت قد تكلمت الآن اليست كلمتي كلمة بالضبط؟ كلام زائد واحد
يعمل اثنين. اثنين زائد واحد تعمل ثلاثة. منطلقاً من هنا لن يكون حتى
الحاسب الماهر قادر على الوصول الى النهاية. والاقبل قدرة عليه هم الناس
العاديون. ان كان بوسعنا التحرك من الاشياء الى بعض شيء امكنا
الوصول الى ثلاثة. كم سنصل اذن لو تحركنا من شيء ما الى شيء ما؟
فلنكف عن الحركة. لنقف ها هنا.

"في حالة التجربة الخالصة ليس لدينا معرفة عقلية من اي ضرب.
وبالترايط مع الزمن او مع الاشياء في الزمن ليس لدينا معرفة عقلية تخص
البداية. ليس لدينا معرفة عقلية تمس حقيقة اننا لا نملك معرفة عقلية تمس
البداية. وبالترايط مع المكان او مع الاشياء في المكان ليس لدينا معرفة عقلية
تخص الكائن. وهكذا في حال التجربة الخالصة، فمع انه يبقى من حيث
الوجود مجال للتمايزات والفروقات فهي غير موجودة معرفياً. ومن حيث
المعرفيات فإن الجزء واحد مع الكل" - فونغ

ليس للتاو "تميزات. لا سبيل لانطباق الكلام على الابدبي. وبسبب

الكلام تحصل تخيمات سأقول عنها شيئاً: هناك يسار ويمين، مناقشات ومحاكمات. تقسيمات وبراهين، تنافسات وتصادمات. وهذه تسمى المحمولات الثمانية. الحكماء لا يمارون فيما هو خارج العالم مع انهم لا ينكرون وجوده. يماري الحكماء فيما هو ضمن العالم لكنهم لا يجرون محاكمات. وبخصوص التزمين وسجلات الملوك الغابرين يجري الحكماء محاكمات الانهم لا يقدمون براهين. حيثما يكن تقسيم تكن بعض الاشياء غير مقسومة وحيثما يكن برهان تكن اشياء لا ينالها البرهان. وكيف ذلك؟ يحتضن الحكماء جميع الاشياء بينما الناس يحتاجون حولها حتى يقنع احدهم الآخر. ان التاو الاكبر يأبى ان يكون موضوع كلام. البرهان الأكبر لا يستدعي كلمات. الاحسان الاكبر لا يتعمد الخير. الطهر الاكبر لا يتعمد التواضع. الشجاعة الكبرى لا تتعمد العنف. والتاو المكشوف مش تاو. الكلام الذي يحتاج يقصر عن غرضه. الاحسان الذي يؤدي باستمرار لا يحقق هدفه. الطهر اذا تظوهر به يلقي التشكيك. الشجاعة التي تتعمد العنف تفشل. هذه الخمسة، التي مثلما كانت مدورة تميل الى ان تصبح مربعة. وبالتالي فمن يحسن التوقف فيما لا يعلمه هو الكامل. من يعرف البرهان الذي لا يتطلب كلمات وان التاو لا تسمى يدعى مخزن الطبع. المخزن الذي تخزن فيه الاشياء غير مملوء، وحين تخرج منه الاشياء فهو غير فارغ وهو نفسه لا يدري لماذا هي هكذا. هذا يسمى انحفاظ التنور.

”بين ذلك حد الكيفيات المتناهية. على المرء ان ينخلع من الكيفيات. ان يوقف التجربة الخالصة حتى يقف في وعد اللانهاية“ - فونج.

قال ياو لشون: اريد مهاجمة دويلات تسنغ، كُوي، وشو أو^(٤). فمنذ

جئت الى العرش لم اتمكن من طردها عن خاطري. لم كان الامر هكذا.
اجاب شون: ان حكام هذه الدويلات الثلاثة لا يزالون يحبون حياة
بدائية في الادغال فلم لا تخرجهم من بالك؟ لقد جاءت مرة عشر شمس
في وقت واحد فأضاءت بها كل الموجودات، كم يمكن ان تضيء الفضيلة
وهي تتفوق على الشمس؟

"مع ان الشمس والقمر غير انانيين في اضاءتهما تبقى اشياء خارج
مدارهما. اما الفضيلة فلا شيء فيها غير سعيد. ان من يحاول تغيير تطلعات
الناس الذين يعيشون في الادغال وارغامهم على اتباع وتيرته ليس على وفاق
مع شمولية التاو. دع كل شيء يتمتع بطبيعته الخاصة به وقناعته الخاصة به. لا
يهم أين وكيف الاشياء تكون. اتركها لخالها، كلاً في مضمارها الملائم،
فسوف ترضى وتشملها السعادة" - كوو شيانغ

"بين هذا تساوي المدتية والهمجية. الاختلاف في طرق العيش
كالاختلاف في الاشياء. وهذه الطرق الشتى لها قيمة متساوية" - فونغ.

سأل به تشويه وانغ بي^(٥): أتدري فيم تتفق الاشياء؟

اجاب: أتى لي ان ادري.

فسأله: أتدري مالذي لا تدري به؟

اجاب: أتى لي أن ادري

فساله: هل جميع الاشياء ليس لها دراية؟

اجاب: أتى لي أن ادري. وعلى اي حال سأسعى لأقول شيئاً. كيف
اعرف ان ما اقول أني اعرفه قد لا يكون في الحقيقة هو مالا اعرفه، كيف
اعرف ان ما اقول اني لا اعرفه قد يكون في الحقيقة هو ما أعرفه واطرح

عليك هذه الاسئلة: اذا نام انسان في مكان وخم اوجعه حقوه وصار نصف جسده في حكم الميت. لكن الحال مختلف مع سمك الانكليس. اذا عاش انسان فوق شجرة يصاب بالرعب والرعدة ولكن هل هذا هو حال السعادين؟ من بين هذه الثلاثة من يعرف الطريقة الصحيحة في السكن؟ الناس يأكلون اللحم والغزال العشب. والحريش يحب الافاعي، واليوم او الغراب يحبان الفئران. من بين هذه الاربعة من يعرف المذاق السليم: القرد يقرن بالقردة وذكر الوعل بأنثاه. نظر الرجال الى ماو تشيانغ ولي تشي بوصفهما اجمل النساء لكن على مرأى منهما تغوص السمكة في الاعماق ويحلق الطير في الاعالي ويشرد الغزال (تهرب منهما - هـ) من بين هؤلاء الاربعة من يعرف المعيار الحق للجمال؟ حينما اتبصر في هذه الامور اجد ان مبادئ الاحسان والاستقامة وطرائق الصبح والغلط في غاية الامتساج والاختلاط. من اين لي ان اعرف الفارق بينها؟

وسأل به تشويه: ان كنت لا تعرف المفيد والضار الا يعني ذلك أن الانسان الكامل يخلو من هذه المعرفة؟

رد وانغ يي: الانسان الكامل باطني، حينما تحترق البحيرات الكبرى لا يشعر بالحر وحينما تتجمد الانهار لا يشعر بالبرد وحينما ترزق الجبال بالرعود وتعصف الامواج بالبحار لا ينتابه الخوف. ومن هنا يمكنه امتطاء السحب السماوية وركوب الشمس والقمر والهيام على وجهه في عرض البحار. لا الموت ينال منه ولا الحياة. ماهو دور النافع والضار هنا؟

سأل تشو تشياو تسه، تشانغ ووتسه: سمعت من السيد (كونفشيوس) ان الحكيم لا يعني نفسه بشؤون الدنيا وقليلًا ما يبحث عن المكاسب ولا يتحاشى الاذى وهو من لا يسعده البحث ولا يعتمد الانتماء للتاو. يتكلم

بدون كلام، لا يتكلم حين يتكلم وبذلك يتجول خارج هذا العالم التّربّ..
ويعتبر السيد هذا وضعاً تقريبياً للحكيم. اما أنا فأرى ان هذه هي دروب
التّاو الخفي. ما قولك انت سيدي العزيز؟

اجاب تشانغ ووتسه: انت تحير حتى الامبراطور الاصفر. وهل
لكونفشيوس من الالهية ما يمكنه من فهمها؟ اكثر من ذلك فأنت شديد
العجلة في تقديراتك، ترى بيضة وتتوقع للحال سماع الديك. تنظر الى
السفود وتتوقع في الحال ان توضع امامك حمامة مشوية. سأتكلم معك
بضعة كلمات عشوائية فهل تستمع اليها عشوائياً كذلك؟ كيف يقعد
الحكيم عند الشمس والقمر ويمسك الكون بذراعيه؟ الحكيم يحيل كل
شيء إلى كلي متجانس. يرفض اختباط التمايزات ويتجاهل الفروق في
المراتب الاجتماعية. يكدح الناس ويكدون والحكيم عديم المعرفة بدائي.
يطوي عشرة آلاف سنة معاً ويقف عند الواحد، الكل، البسيط. جميع
الاشياء هي ماهي وتقتفي مجراها بالتقاء. كيف لي ان اعرف ان حب
الحياة ضلال؟ ان اعرف ان من يخاف الموت لا يشبه انساناً كان خارج
منزله في شبابه فلم تكن له نية العودة اليه؟ لي تشي ابنة حارس الحدود أي
لما أخذتها دويلة تسين لأول مرة بكّت حتى تبلل ثوبها بالدموع ثم لما
وصلت الى المأوى الملكي وشاركت الملك سريره الفاخر وتذوقت الطعام
الزاكي تأسفت لبكائها. ما يدريني ان الميت لن يندم على توقه للحياة؟ ان
من يحلمون بوليمة في الليل قد يأتيهم الصباح فيكون ويعولون. والذين
يكون ويعولون في المنام قد يخرجون صباحاً للصيد. وهم حين يحلمون لا
يدرون انهم يحلمون. وانما يعرفون بعد ان يستيقظوا.. وشيئاً فشيئاً تجيء
اليقظة الكبرى وعندها ندرك ان الحياة نفسها هي حلم كبير. يظن المعتوهون

في كل لحظة انهم في نقطة وانهم من اهل المعرفة، وبتميزات لطيفة يفرقون بين الامراء والسؤاس. يا للبلاهة. كونفشيوس وانت كلاكما في حلم. وحين اقول انك تحلم فأنا ايضاً احلم. هذا القول يسمى مفارقة. لو أننا لقينا بعد عشرة آلاف سنة حكيماً يعرف كيف يشرحها لنا لكننا كما لو أننا لقيناه في وقت قصير جداً.

لنفرض انك حاججتني: لو غلبتني بدلاً من ان اغلبك هل انت بالضرورة على حق وأنا على باطل؟ هل احدهنا محق والآخر مبطل؟ او هل كلانا محق او كلانا مبطل. لا انا ادري ولا انت. وغيرنا اشد ظلاماً. من نسأل ليعطينا القرار الصحيح؟ قد نسأل احداً يتفق معك ولكن مادام يتفق معك كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل احداً يتفق معي ولكن مادام يتفق معي كيف يمكنه وضع القرار؟ قد نسأل احداً يختلف معنا كلانا ولكن مادام يختلف معنا كلانا كيف سيضع القرار؟ وهكذا لاننا ولا أنا ولا غيرنا قادرون على الفهم المشترك والمتقابل فهل نبقي ننتظر اخر (يصنع لنا القرار)؟

"- سواء كانت الاصوات المتغيرة نسبية من واحد لآخر ام لا فإننا نموفقها داخل حدود الطبيعة. ونتركها وحدها في سيرورة الارتقاء الطبيعي. هذه هي وسيلة استكمال العمر. ما المقصود بموفقة الاشياء داخل حدود الطبيعة؟ بالاحالة على الصواب والغلط، الكائن كذا والغير كائن كذا نقول: ان كان الصواب صواباً بالفعل فلن نحتاج الى المنازعة حول ما يختلف فيه عن الخطأ ولو ان الكائن كذا هو بالفعل كائن كذا فلن نحتاج الى المنازعة حول ما يختلف فيه عن الغير كائن كذا... لننسى الحياة.. لننسى التمييز بين الصواب والخطأ ولنأخذ متعتنا في مملكة اللانهاية ونبقى هناك." - فونغ

سأل الظل الناقص الظل التام: تتحرك في لحظة وتستريح في اخرى،
تقعد في لحظة وتنهض في اخرى. لم هذا التقلقل في الغرض؟
فأجاب: اهو حتم علي ان اتكل على شيء آخر لكي أكون ما أنا عليه؟
ليس ذلك الشيء الذي اتكل عليه يتكل بدوره على شيء آخر حتى يكون
ما هو عليه؟ أيتعين علي الاستناد الى حراشف افعى أو اجنحة زيز؟ كيف لي
ان ابين لم انا هكذا ولم انا على العكس.

"يوضح ذلك ان كل شيء هو ماهو بالتلقاء. يحتاج المرء فقط الى اقتضاء
طبيعته لا أن يسأل لم هو هكذا وليس العكس" - فونغ.

ذات يوم رأى تشوانغ تشو^(٦) نفسه فراشة في المنام. كانت الفراشة تحوم
وتتمتع ولم تعرف انها تشوانغ تشو. وفجأة استيقظ فاذا هو تشوانغ تشو
نفسه. نحن لا ندري ان كان تشوانغ تشو قد حلم بأنه صار فراشة ام ان
الفراشة حلمت بأنها تشوانغ تشو. ينبغي ان يكون بين تشوانغ تشو والفراشة
بعض الفارق. ان هذا يسمى تصيرات الاشياء.

"- يوضح ذلك انه مع وجود فوارق بين الاشياء بالمظهر العادي، ففي
الدوخان او في الحلم ايضاً/ يصح ان يكون غيره. "تصيرات الاشياء تظهر ان
الفروق بين الاشياء ليست مطلقة" - فونغ.

الهوامش

- (١) يو المقدس ملك حكيم في المأثورات الصينية
- (٢) ون - بكسر الواو. شيه بكسر الشين. كوانغ بسكون الكاف. هوي بسكون الهاء وكسر الواو
- (٣) يشير الى احد براهين هوي بوصفه من أئمة المناطق الصينية. وتشوانغ تسه يضيّق بهذه المباحكات ويعتبرها خروجاً على الطبع وتعاطياً على الطبيعة هـ.
- (٤) تسنغ: سكون التاء وضم السين. كوي: سكون الكاف وفتح الواو
- (٥) يه: بفتح الياء، تشويه: سكون التش وفتح الواو وامالة الياء
- (٦) تشوانغ تشو هو الاسم الاصلي لتشوانغ تسه

الفصل الثالث

اساسيات تهذيب الحياة

حياتنا لها حدود ومعرفتنا بلا حدود. ومتابعة ما هو غير محدود بما هو محدود معضلة فادحة. ومن خلال هذه الحقيقة نواصل البحث في زيادة معرفتنا، ذلك المأزق الذي لا سبيل الى نكرانه.. في عمل ما يراه العرف حسناً نهرب من الشهرة. في عمل ما يراه العرف رديئاً نهرب من الوصمة او العقوبة متبعين المجرى الأوسط دوماً. هناك وسائل لحفظ البدن، لإدامة حياتنا، لمساعدة ابويننا، لاستكمال ترمنا من السنين.

كان طباح الامير ون هوي يقصب ثوراً: كل ضربة من يده، كل رفعة من كتفه كل دوسة من قدمه، كل لوية من ركبته، كل صوت من اللحم المقصوب وكل دقيقة من دقائق حركة القصاب كانت تجيء في توافق تام موزونة كأنها رقصة "أخدود التوت"، تلقائية مثل اوتار تشينغ شُوو^(١).

قال الامير: مدهش. هكذا فنك الكامل يكون.

فالقي الجزار ساطوره وعقب: ما يحبه خادملك هو التاو، الذي هو اكثر تقدماً من الفن. لما بدأت لأول مرة تقصيب الثور كان ما رايت به ببساطة هو الثيران كلها. وبعد ثلاث سنوات من العمل لم ارى المزيد من الثيران. وانا

اليوم اشتغل بذهني لا بعيني، توقفت وظائف احساسني وتغلبت روحي...،
متبعاً عروقي الطبيعية ينزل ساطوري خلال التجايف الكبرى، والفتحات
الكبرى مستفيداً مما هو حاصل بالتمام. لا اتقصى العروق المركزية وتفرعاتها
والترابطات ما بين اللحم والعظم ناهيك عن العظام الكبرى. الطباخ الجيد
يدل ساطوره مرة في العام لانه يقطع. الطباخ العادي يبدله كل شهر لانه
يحزز. وساطوري مر عليه تسعة عشر سنة. وجزرت به عدة الوف من
الثيران وماتزال حافته حادة كأنما جيء به من المسن توأ. تحتوي الاوصال
دائماً على صدوع وحافة الساطور بلا سمك إن أولجنا ماليس فيه سمك
فيما فيه صدوع تكن له فسحة كافية للتحرك. على اني اذ أصل الى شلو
معقد وأجد بعض الصعوبة اواصل بحماس وبلا حذر. اثبت عيني فيه.
اتحرك على مهل ثم، وبحركة في منتهى الرفق من ساطوري، ينفصل الشلو
بسرعة مثل تراب يتفتت فوق الصعيد. بعدها اجيل النظر واقعاً والساطور
في يدي مفعماً بنسيم الرضا والفوز، ثم امسح ساطوري وأضعه في قرابه.
عقب الامير: هائل.. لقد تعلمت من كلمات هذا الطباخ وسائل تهذيب الحياة.

تحكي القصة عن الوسائل الطبيعية لعمل الاشياء، عن الحلول الطبيعية
للمعضلات. لو استطعنا العمل تبعاً للطريق الطبيعي لأنجزنا المطلوب بلا إرباك
لاذهاننا.. ستكون اذهاننا حيوية مثل ساطور الطباخ" - فونغ

لما رأى كونغ ون شين^(٢) سيد الحق جفل وقال: من هو؟ كيف تكون له
رجل واحدة فقط؟ هل هذا من فعل الطبيعة ام الانسان؟

اجاب سيد الحق: من فعل الطبيعة لا الانسان. الطبيعة توجد الرجل
وتجعلها واحدة. ان مظهر الانسان متوازن جداً ومنها تعلمت انه من فعل
الطبيعة لا الانسان.

"ما هو متوازن راجع للطبيعة. واذا انوجدت رجل واحدة فليس عن غلط بشري وبالتالي فمن يدرك حقيقة الحياة لا يفعل مالا ينفع. والذين يعرفون ضروريات القدر يتبعون تعيناته. يتمسكون ببساطة بما هو طبيعي" - كروشيانغ.

التدرج في الاهوار يحصل على نقرة واحدة في عشر خطوات ويشرب مرة واحدة في مئة خطوة. ومع ذلك لا يحب الطعام في القفص. ان روحه معافاة في الاهوار ومن ثم ينسى العافية.

* * * *

لما توفي لاوتسه ذهب تشين شيه للنوح عليه. وهناك اطلق ثلاث صيحات ثم رجع. فسأله احد المريدين: الم تكن صديقاً للسيد؟ اجاب نعم.

قال المريد: ان كان ذلك فهل من اللائق ان تنوح عليه بالشكل الذي فعلته؟

اجاب تشين شيه: ظننت اولاً ان النائحين كانوا من رجاله وعرفت الآن انهم ليسوا كذلك! رايت هناك رجالاً كباراً يكون كما لو أنهم فقدوا اولادهم وشباناً كأنهم يكون على امهم، تجمعوا يرددون كلمات ويذرفون الدموع. وفي هذا ما فيه من خرق لنواميس الطبيعة وزيادة في الانفعالات ناسين كم اخذنا من الطبيعة. هذا يسميه الغابرون عقوبة خرق المبادئ الطبيعية.. لما جاء السيد فلأنه وجد المناسبة لأن يولد ولما رحل فلأنه اتبع ببساطة مجرى الطبع. ان المتماسكين امام الحدث الموافق والمقتفين مجرى الطبع لا ينالهم لغب او طرب. اولئك الذين قال عنهم الاولون انهم من اتباع الآلهة المتحررين من القيود.

"فيما حصلنا من الطبيعة كمية مناسبة لا سبيل لزيادتها او انقاصها بجهد بشري . ومن يسترسل في الانفعال يخرق مبادئ الطبيعة سائحاً في ساحات الحزن والفرح وهذا بذاته عقوبة له على الخروج مما هو ملائم للطبع. الحزن والفرح ناتجان عن الفقد والكسب. ومن شأن الانسان اذا تعمق وفكر وتمهوى مع التغيرات ان يتطامن في أي منعطف ويتبع اي مجرى، متوحداً مع الارتقاء حاضراً في كل مكان لا خسارة عنده ولا ربح، ولا موت ولا حياة، يأخذ مايلقاه دون حزن او سرور. حينما تكن آصرة تكن قيود وتنفك القيود اذا انسلست الاواصر (مع الاشياء) وبانفكاك القيد تكون السعادة. هذا هو جوهر تهذيب الحياة" - كوو شيانغ.

* "السعادة هي الخلو من الحزن والسرور عند التاوين. وعند المسلمين هو الزهد. عن علي بن ابي طالب: الزهد بين آيتين في القرآن: لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم" - هـ

"العقاب على خرق ناموس الطبيعة هو ما دعاه سبينوزا القيد البشري، المتسبب عن فرط الانفعال. ومعرفة حدود الطبيعة البشرية يعني التزام ما سماه سبينوزا الحرية البشرية، "الانفكاك من القيود" ويتخلص الانسان من الانفعالات عندما يتوصل الى تصور الاشياء في صيغتها الابوية، حسب عبارته "فونغ.

قد لا تستطيع الاصابع تجهيز الوقود كله. لكن النار تتحول ولا ندرى متى تبلغ الغاية.

هذا هو تصور تشوانغ تسه للخلود وهو لا يفترض عالماً روحياً لا دخل فيه للعلم او فلسفة الطبيعة. ان بدن الفرد لا بد أن يزول، وكذلك الروح التي هي وظيفة البدن. لكن العالم ككل يبقى ابدياً، ومعه يبقى اولئك الذين يمهون

انفسهم مع الكل. قال تشياو هونغ، من شراح تشوانغ تسه في اسرة مينغ، :
مع ان الامواج قد تزول فالبحر باق. البحر لا موت ولا حياة (بل وجود - ه).
في الفقرات الاخرى من هذا الفصل تكلم تشوانغ تسه عن تهذيب الحياة.
وفي هذا الجزء يقول ان الموت والحياة سواء. ولا تناقض بينهما فمن يدرك ان
الحياة والموت سواء يحصل على تهذيب افضل للحياة - فونغ.

الهوامش

- (١) اخدود الثوث وتشينغ شوو معزوفتان. يقرأ شوو بفتح الشين وسكون الواو
الواو الاخيرة زائدة اضفتها لاشباع لفظ الواو الاولى - ه.
(٢) ش: شين ساكنة وياء مفتوحة مشبعة قليلاً

الفصل الرابع

العالم البشري

"لأننا نعيش مع الناس لا يسعنا الانفكاك عنهم لكن دنيا الناس دائبة التغير، جيل يختلف عن جيل. والقادرين على مجاراة التغير دون معاناة هم المتزهنون عن التحامل، الذين لا يحومون حول ذواتهم" - كوروشيانغ.

توجه بين هوي ليرى كونفشيوس ويستأذن للسفر. فسأله السيد: الى أين؟ فقال الى دولة وي^(١). فسأله لاي حاجة؟ فقال: سمعت ان اميرها في عز الشباب وانه صمصام في افعاله يتصرف كما لو ان الدولة لا اهمية لها ولا يرى في نفسه اعوجاجاً، قليل التفكير بهلاك رعيته حيث يتناثر الموتى في انحاء البلاد ولا يدري الناس الى أين يتوجهون. سبق لك يا سيد ان قلت لي: اترك الدولة المحكومة بالحسنى واقصد الى الدولة المضطربة الأحوال. على باب الطبيب يتكدس الاعلاء. ومن وراء ما سمعته منك فكرت في عمل قد يمكّني من ردع الشرور في وي.

رد كونفشيوس بدهشة: اخاف عليك ان توفق فقط في جلب العناء والعذاب لنفسك. الطريقة المثلى لا تتحمل التخليط لأن التخليط اذا حصل يتعدد وحيث تتكاثر الطرق يقع الاختباط واذا وقع الاختباط حصلت الحيرة

ومع الحيرة يتعذر انقاذ الوضع. الانسان الكامل عند الغابرين كان مطلوباً منه الاعتناء بنفسه أولاً. ومع الاعتناء بالنفس يتبقى شيء غير مكتمل. اي راحة يجدها المرء في مسلك الاشرار؟ ثم هل تعرف أين تفسد الفضيلة واين تبدأ المعرفة؟ تفسد الفضيلة بالتوق الى الشهرة وتبدأ المعرفة مع الخصام حيث يتصادم الناس على الشهرة فيدمر بعضهم بعضاً وتُتخذ المعرفة سلاحاً في الخصام. وكلاهما ادوات للشّر يلزم النزوع عنها. في الناس من لديهم فضيلة راسخة، اخلاص وطيد، وعزوف عن الشهرة والسمعة ولكن بلا معرفة للطبيعة او ذهن الانسان. وهم مع ذلك يفرضون بالاكره تعليم الاحسان والاستقامة والتحكم في الاشرار وتكون عاقبتهم المقت من الناس، تماماً بسبب انهم اخيار . هذا يسمى "ايداء الغير" ومن يؤدي الغير يأتيه الاذى من الغير وقد تكون هذه هي نهايته.

ثم، اذا كان الامير يحب الخير ويكره الشر فما غرضك من دعوته الى تبديل نهجه؟ وان لم يكن كذلك فلن يسعك الا السكوت. فإن لم تفعل هذا وطفقت بالاعلان عن نظراتك فسينتهز الامير الفرصة للتصادم معك على النصر. ستنهر عيناك وتمتلىء بالحيرة. تعايرك ستضمحل. فمك سوف يلوك الكلمات لمعذرة نفسك.. وستعبر حالك عن اختباطك الداخلي . سينشغل ذهنك بتوكيد ماقال. وسيكون هذا مثل كبح النار بالنار والماء بالماء، زيادة الشر شراً. ان تبدأ بالتراجع تستمر الى مالا نهاية. وإن تصر على كلماتك الطيبة التي لا يعتقدها تموت بيد الطاغية.

في الماضي قتل تشييه كوان لونغ بانغ^(٢) وقتل تشو بي كان. وكان هذان الضحيتان من اهل الفضل الذين التزموا بتأمين الرعاية للناس. ومن

موقع الدون حيث هم هاجموا المافوق. فحظهم حكامهم بسبب غلوهم في الفضيلة. الجميع يناضلون من اجل الشهرة.

كذلك هاجم ياو دولتي تسونغ تشي وشو آو، وهاجم يو دولة يوهو. استؤصلت هذه الدول وقتل حكامها . كانوا قد انزجوا في حروب لا نهاية لها بسبب نهمهم الفاحش بالكسب الحقيقي. كان هؤلاء الرجال موزعين بين الشهرة والكسب ألم تكن قد سمعت بهم من قبل؟ حتى الحكماء يصعب عليهم التغلب على الرغبة في الشهرة والكسب الحقيقي. فهل يمكنك النجاح؟ ومع ذلك ينبغي ان تكون لك خطتك الخاصة بك فقل لي ماهي؟

اجاب ين هوي: الرصانة في السلوك وعدم الانفعال، طاقة وواحدية الغرض، اليس لهذه فعل؟

رد كونفشيوس: كلا لا فعل لها ان أمير وي مملوء بروح السيادة وشايف نفسه، ومزاجه غير ثابت. وما من أحد يجراً على معارضته. وهو لذلك يتلذذ بالدوس على مشاعر الآخرين. واذا كان قد عجز عن الفضائل العادية فهل توقع ان يكون مستعداً للتخلي بما هو ارقى؟ سوف يستنكف ويرفض الاهتداء بك. قد يتفق معك ظاهراً وباطنه بأيى الادانة. أننى لك ان تغلح معه؟

قال ين هوي: حسناً، بينما يحتفظ باطني بالاستقامة فإن ظاهري سيبدو مخدوعاً سوف اجسد ما اقول بالرجوع الى الغابر. محتفظاً باطني بالاستقامة ساكون تابعاً للطبيعة. ومن يكون تابعاً للطبيعة يعرف أنه والأمر سواء. كلاهما أبناء الطبيعة.

ألا يهيمه ان يستحسن او يستهجن كلامه؟ مثل هذا الرجل يعتبره الناس

صبيّاً. ذلك ما ادعوه ان تكون تابعاً للطبيعة. في المظاهر الخارجية أبدو ملتويّاً، سأكون تابعاً للناس: الانحناء، السجود، الركوع هي من الزامات الوزراء. ما يفعله الناس لن يلومني احد إن فعلته.. هذا ما أدعوه أن تكون تابعاً للناس.. (لكنني) مجوهرّاً قولي بالرجوع الى الغابر سأكون تابعاً للغابرين. ومع أن كلماتي التي أقولها بناءً ومحملة بالادانة فهي كلمات الغابرين لا كلماتي. بهذه الطريقة ورغم المصارحة ساكون بريئاً من الملام. هذا ما أدعوه أن تكون تابعاً للغابرين. الا تراها مجزية؟

قال كونفشيوس: كلا غير مجزية ان لديك العديد من الخطط الصائبة انما الغير حاذقة. ومع عسرها فهي تنجيك من الاذى. لكن هذا فقط، فهي ليست الأكثر كمالاً. مازلت تتخذ دليلك هواك.

قال ين هوي: لن اذهب بعيداً واغامر بسؤالك عن حل.

رد كونفشيوس على عجل: اقولها لك... ان يكن لديك هوى هل تعتقد ان من السهل ان تتعامل مع الاشياء. ان من يعتقد ذلك يلقي الاستهجان من السماوات النيرة. استطرد ين هوي: عائلتي فقيرة، مرت علي شهور لم أذوق خمراً ولا لحماً ايكن اعتبار ذلك صوماً؟

اجاب كونشيوس: هذا هو الصوم الملائم للقربة وليس هو صوم الذهن.

قال ين هوي: اغامر بسؤالك عن معنى صوم الذهن

اجاب كونفشيوس: تمسك بوحدة ارادتك. لا تستمع بالاذنين بل بالذهن. لا تستمع بالذهن، بل بالروح. وظيفة الاذن تنتهي عند السماع. وما يخص الذهن فهو رموز او افكار لكن الروح فارغة وجاهزة لاستقبال جميع الاشياء. التاو يقيم في الخلو، الخلو هو صوم الذهن.

قال ين هوي: ان امتنعت عن صوم الذهن استبقي فرديتي ومتى حاولته
فقدتها. ايمكن لهذا ان يسمى خلواً؟

اجاب كونفشيوس: بالضبط. دعني أقول لك: ادخل في خدمة هذا
الرجل ولكن لا تتخاصم على الشهرة. واذا لمست بعض الموافقة يمكنك
اسماع صوتك والا فالزم الصمت.

"يجب أن يكون الكلام كالنغمات الموسيقية المنطلقة بلا جهد من الذهن
الصاحي. الكلام يعني اسماع صوت. والاستجابة بدون ذهن صاحي تعني ان
تدع الاشياء لوحدها ولا تفرض عليها شيئاً" - كوشيانغ.

لا تُظهر طريقة منافية. لا تعرض منافياً. عش مع واحدة وتوقف حين
تعجز عن التدبير.

"ما نعجز عن تدبيره هو ما هو ضروري في العقل" - كوشيانغ.

وعندها تقترب من الفلاح. من السهل عليك التوقف عن المشي لكن
الاصعب ان تمشي ولا تمس الصعيد.

"من السهل أن لا تفعل شيئاً. لكن الاصعب ان تفعل شيئاً ولا تؤذي
الروح" - كوشيانغ.

تصرف على شاكلة الانسان تكن مصطنعاً بسهولة. تصرف على
شاكلة الطبيعة يصعب عليك ان تكون مصطنعاً. سمعت عن طيران
باجنحة ولم اسمع عن طيران بدونها. سمعت عن تعرف بمعرفة ولم اسمع
عن تعرف بدونها. انظر الى ذلك الفارغ. في الغرفة الفارغة ضوء ساطع.
سعادة. اذا لم تطلق التوقف هناك يهرع ذهنك بعيداً برغم ان جسدك في
مكانه. ان استطعت ان تحفظ اذنيك وعينيك للتواصل واغلقت باب الوعي
والمعرفة عاش معك الفوق طبيعي فضلاً عن الأنسي. هذا هو لغز الاشياء؛

المفصلة التي تحرك عليها يو، وشون. هذا هو ماقام به فوشي وتشى تشو في حياتهما. الى أي مدى يستطيع غيرهم اتباع نفس المجرى؟

تكشف هذه القصة ان الخلو الى حد التجرد عن الذات، هو السبيل الامثل للتعامل مع الانسان. السبيل الامثل للعيش مع الناس - ان تكون بلا نفس هو جوهر مذهب تشوانغ تسه "الانسان الكامل لا نفس له". من اطاق ان يكون بلا نفس في عالم الانسان لا يضير أحداً - فونغ.

لما عزم تسه كاو، الوجه في دولة ش^(٣)، التوجه في بعثة الى دولة تشى سأل كونفشيوس:

الملك اوفدني في بعثة هامة للغاية وقد تستقبلي دولة تشى كسفير في غاية الاحترام.

لكني لست في عجلة من امر هذه الشغلة. الانسان العادي لا يسعه الاندفاع ييسر فما قولك بالامر؟ انا على دراية كاملة. قلت لي دائماً ان من بين جميع المآخذ صغيرها وكبيرها، التاو وحدها تأخذ بك الى الغاية السعيدة. وفي مثل حالتي هذه إن أنا لم افلح فالمصيبة من الناس.

العقوبات من الملك - فونغ

وان افلحت فالمصيبة من الطبيعة

مكابدة الانفعال والفرح الزائد - فونغ.

وحده الانسان ذو الفضيلة هو من يكون خلياً من هذه المتاعب سواء افلح ام اخفق. انا لا أتخير الطعام وفي المطبخ لا يحتاج احد لتبريد المشروبات.

المطبخ بسيط جداً - فونغ.

على اني تسلمت في الصباح وظيفتي، وفي المساء كنت اشرب الماء الثلج^(٤). أشعر بمرارة في داخلي. لقد لقيت المصائب من الطبيعة حتى قبل الارتهاان بعمل فعلي.. وان انا لم اوفق في الوظيفة لقيت من جهتين مصاعب لا اتحملها بوصفي وزيراً. هلا بينت لي ما العمل؟

قال كونفشيوس: في الدنيا مبدآن متلازمان جليان. الأول هو القدر والثاني هو الواجب.. محبة الولد لوالديه قدر لأنها لا تنفصل عن قلب الولد. ولاء الرعية للراعي واجب اذ لا بد للرعية من راعي ولا مهرّب في الدنيا. هذان هما المبدآن المتلازمان الجليان. وبناء عليه: خدمة المرء والديه دون تعلق بالظروف التي يكون فيها هو غاية السمو البنوي. وخدمة الحاكم عن رغبة بغض النظر عما يطلبه من الرعية هو قمة الاخلاص^(٥). لكن خدمة روح المرء لا للحصول على المتعة او الخلاص من الحزن بل لاعتبار مالا بد منه بوصف ذلك من تعينات القدر والانسجام فيه، هو غاية الفضيلة. ان من يكون في موضع رعية او ابن يلزمه غالباً مالا يُعذر في عدم فعله. ومن ثم فهو يغمس في الشؤون الفعلية وينسى حياته الخاصة: فأني راحة له في حب الحياة وكره الموت؟ هكذا يا سيدي يسعك الماضي في بعثتك.

أود أن اقص عليك شيئاً سمعته.. في التجامع بين الدول ان كانت قرية من بعضها يسع اظهار الصداقة المتبادلة مع الافعال الحقيقية. وان كانت متباعدة فالسبيل الى تجديد الاواصر هو الرسائل الشفوية. وهذه الرسائل يؤديها ناس معينون. وتكون عسيرة اذا تعلق موضوعها بالسخط او الرضا. فحين يكون الطرفان راضيين يلزم تضخيم الرسالة باطراء زائد. وحين يكونان متساخطين يلزم تضخيمها بالادانة الزائدة. والتضخيم مظهر للزيف. ومظهر الزيف يحكم الصدق. وحيث يكون كذلك تقع البلية على رأس

الرسول. ومن هنا قيل في "فاين"^(٦): أوصل ما اراد الطرفان قوله من غير تضخيم زائد. وهو سبيل الآمان.

أكثر من ذلك، المصارعون المهرة يبدأون بالود ويختمون بالعداوة. ومع تصاعد الاثارة عندهم تصبح مهارتهم فوق العادة. وفي الاحتفالات يكون الشرب اولاً بمراعاة الاصول وينتهي الى التهويس. ومع تصاعد الاثارة يتصاعد الصخب. وهكذا جميع الاشياء. تبدأ بالاخلاص وتختِم بالشقاق. تبدأ باليسيط ومع اقتراب الخاتمة تصير معقدة. الكلمات تشبه الريح والموج. الافعال تقود الى غَزَر الخسارة الفعلية. الريح والموج يمكن اثارتهما بسهولة. المخاطرة قد تنقلب الى خطر حقيقي. الغضب يتسبب رئيسياً عن الكلمات المفتنة والكلام المنحاز وحين يستبد الغضب بالناس، تنفجر تعابير مثل غمغمة حيوان في سكرات الموت. تغدو انفسهم متسارعة ومسموعة. وتطفح العداوات على كلا الصوبين، وحينما يحشر احد الطرفين الآخر في زاوية تستثار الافكار القاسية من حيث لا يدري المرء. واذا صدر الفعل من دون معرفة كيف صدر من يدري ماذا ستكون النهاية؟ ومن هنا قيل في "فاين" لا تنحرف عن التعليم الاصلي الذي اخذته. لا تجادل في تسوية. عبور الحد يعني التجاوز" ان الانحراف عن التعليم الاصلي والمجادلة في تسوية خطر. التسوية المرضية تتم مع الوقت. التسوية الغير مرضية حيثما تمت لا مجال لتغييرها. الا ينبغي على المرء ان يكون حذراً اترك لذهنك ان يسيح بصرف النظر عما يحدث. ولنفسك ان تقبل ما هو ضروري ولا بد منه لأجل تهذيب الروح. هذا هو سبيل الكمال. لماذا تكون قلقاً بخصوص جواب الدولة الاخرى؟ لاشيء أحسن من ترك الكل الى القدر ولو أن ذلك ليس بالأمر اليسير.

تبين هذه القصة ان في العالم اموراً لا بد منها ولا نملك الا الاتيان بها..
لنلجأ الى مالا بد منه ولنكن متضامين امام اي شيء يقع ولنترك الكل للقدر.
وانه لضروري ايضاً ان ينسى المرء نفسه فلا يحب الحياة ولا يكره الموت
فالنجاح او الفشل في الدنيا ليس بذى اهمية - فونغ.

أريد من أين هو^(٧) ان يكون مؤدباً للابن الاكبر للوجيه لينغ في دولة
وي فاستشار تشو بو يو^(٨) قائلاً: ها هنا رجل سلوكه الطبيعي من نمط
واطيء. اذا انا سمحت له ان يتصرف بدون مبدأ تعرضت دولتنا للخطر
واذا اكدت على وجوب ان يسلك سلوكاً مبدئياً تعرضت انا للخطر. أن
لديه من الفطنة ما يكفي لرؤية عيوب الناس دون عيوبه. ماذا يجب ان افعل
في حالة كهذه؟

رد تشو بو يو: سؤال كيس في الحقيقة. عليك ان تكون حذراً وتبدأ
بالاصلاح الذاتي ففيما يخص وضعك الخارجي لا شيء افضل من التكيف
والتطابق. وفيما يخص ذهنك الباطن لا شيء افضل من السلم والانسجام.
وثمت على أي حال نقطتان للاحتراس: ان لا تدع التكيف الخارجي يتوغل
عميقاً ولا الانسجام الداخلي يكشف عما بنفسه داشراً. وفي الحالة الاخيرة
تسقط، تخرب ذاتك، تنهار، تندهور.

تكون تحت دائرة السوء وتصبح انساناً رديئاً - فونغ

في الحالة الاخيرة ستحصل على الشهرة، السمعة الحميدة وسينظر اليك
بوصفك ببعيع مخلوق للسانح الشرير.

تكون موضع غيرة الآخرين - فونغ

اذا تصرف ابن الامير كما لو كان صبياً فتصرف انت كما لو كنت
صبياً. وإن هو أطرح جميع الفروقات فافعل انت نفس الشيء. وأن أطرح

جميع التمايزات فافعل انت نفس الشيء. وعندها ستأخذ بيده الى البراءة. هل تعرف قصة فرس النبي؟ في غضبة مضرية مد ذراعيه لايقاف تقدم العربية من دون ان يعرف انه غير مؤهل لذلك. كان يعتقد ان مقدرة ممتازة. احترس! كن حذراً.. اذا انت اظهرت كفاءاتك دوماً لابن الامير لكي تهيمن عليه فربما وقعت انت نفسك في المحذور. أتدري كيف يتصرف ناظر النمر؟ هو لا يخاطر في تقديم الحيوانات العائشة طعاماً لها لانه يخشى من تهيجها حين تفترسها. ولا يخاطر في تقديم حيوان كامل طعاماً لها خوفاً من تهيجها حين تقوم بتمزيقه. هو يعرف متى تكون النمر جائعة ومتى تكون شبعانة ويفهم السبب الذي يجعلها تغضب. ان النمر من نوع آخر مغاير لنوع الانسان وهي مع ذلك تسعى لامتاع ناظرها وهذا لأنه تكيف لها. بعض الناس يتصرف بخلاف طبيعة النمر فقتلهم النمر.

ومن المولعين بالخيال من يستعمل السلال والجرار لاختد الروث والبول منها وحين يسقط البعوض او الذباب عليهم ومن ثم على الحيوان يطردها السائس بالفرشاة. وتكون النتيجة ان الحصان يكسر الشكيمة ويؤذي رأس السائس وصدره. يريد السائس ان يفعل خيراً لكنه في النهاية يخسر ما عزم عليه. الا يجب علينا ان نكون حذرين؟

الطريقة المثلى للتعامل مع الانسان هو التصرف تبعاً لطبيعته - فونغ.

كان الاسطى السمكري شبيه في طريقه الى تشي فوصل الى تشويوان^(٩). وكانت فيها شجرة بلوط استعملت مذبحاً لروح الارض. كانت الشجرة من الضخامة بحيث تحجب الثور من ورائها عن النظر. وكانت حلقاتها تبلغ المئة وارتفاع اغصانها عن الارض يزيد على ثمانين ذراع. ومن اغصانها عشرة او ما يقاربها يكفي الواحد منها لتنجير قارب .

جاء الناس ليروها في زرافات كما يأتون الى السوق. أما الاسطى فلم يلق عليها نظرة ومضى دون توقف. لكن صناعه وقفوا ينظرون اليها حتى كلّوا ثم ركضوا وراء معلمهم وقالو له: منذ اشتغلنا في معيّنك بفؤوسنا وشفراتنا لم نشاهد خشباً في جودة هذه. لماذا لم تنظر اليها يا معلمنا وواصلت طريقك دون توقف؟

اجاب الاسطى: اتوقف؟ ذلك الخشب لا نفع فيه. القارب الذي ينجر منه يفرق. التابوت او الهيكل يتفسخ بسرعة. أي قطعة اثاث تتفكك حالاً الى قطع. الباب يغطيه الصمغ المستحلب، والاعمدة ينخرها السوس. عديم الفائدة ولا يصلح لشيء. ولهذا السبب احتفظت الشجرة بهذا العمر الطويل.

بعد عودة الاسطى الى المنزل جاءته الشجرة في المنام وقالت له: مع أي شجرة اخرى تريد مقارنتي! أتريد مقارنتي مع اشجار الزينة؟ هناك الزعرور البري، الكمثرى، التارنج، الليمون الهندي، واليقطين وماليها، كلها تنشق ثمارها عند النضج وتتهك، تكسر اغصانها الكبيرة وتمزق الصغيرة. ان حياة هذه الاشجار الصغيرة معمودة بالبؤس بسبب انتاجيتها. ولذلك لا يمكنها استكمال ترمها الطبيعي في الوجود وتنتهي الى نهاية سابقة لأوانها في منتصف عمرها متحملة المعاملة التدميرية من المجتمع. وهكذا الامر في جميع الاشياء. لقد تعلمت من وقت مديد ان اكون عديم الفائدة. مرت بي عدة مناسبات كدت اتدمر فيها والآن توصلت الى أن اصبح بلا نفع، والذي هو نفع عظيم لي. لو كنت نافعة اكنت ساصح بهذه الضخامة؟ الاكثر من ذلك نحن كلانا من الاشياء كيف يجوز لشيء ان يحكم على شيء آخر؟ انت بدورك رجل عديم الفائدة وتدنو من الموت. من أين لك ان تعرف الشجرة العديمة الفائدة؟

قص الاسطى حلمه على صناعه فسأله: ان كانت ارادت ان تكون
عديمة الفائدة فلمذا صلحت لتكون مذبحاً لروح القاع؟

اجاب الاسطى: على مهلكم لا تنفوهوا بكلمة - فهي قد أرادت ان
تكون مذبحاً لتحمي نفسها من اذى من لا يعرف انها عديمة الفائدة ولو
انها لم تكن مذبحاً لبقيت عرضة لخطر القطع. زد على ذلك ان ما تحظى به
هذه الشجرة يختلف عن الاشجار العادية. ومن ثم فإن اطراءها وفق
الاخلاقية المتعارفة لا مناسبة له هنا.

قال نان بوتسه تشي وقد رأى وهو يجوس خلال مرتفعات شانغ،
شجرة ضخمة وفوق عادية، يمكن ايواء الف عربية تحتها ويغطيها ظلها
جميعاً: اية شجرة هذه؟ يجب ان نجعل منها قطعة خشب مذهشة. ثم
صعد نظره الى افنانها الصغرى فرآها ملتفة ومتكسرة ولا تصلح رافدة ولا
عارضة. وصوبه الى جذورها فرأى الساق مقسماً الى اجزاء مدورة بحيث
لا يصلح لتايوت ولا هيكل. ولحس ورقة منها فشر بحلقه يتشقق
وينجرح.

ثم شمها فتهيج جسده وبقي كالمسموم ثلاثة ايام فقال: شجرة لا
تصلح لشيء ابداً. ولهذا السبب طال عمرها آه! ان الانسان الروحاني يعيش
هذا الشكل من اللاجدوى.

كان في سونغ ناحية تسمى تشينغ شيه تنمو فيها اشجار الكتلية والتوت
والسبريس. وكان الناس يقطعون منها ما يتألف من حلقة او حلقتين لعمل
اوتاد تربط بها السعادين. وما يتألف من ثلاثة أو اربعة يقطعها من يريد عمل
عوارض لمساكنهم. وما يتألف من سبعة او ثمانية يقطعها الاشراف والتجار
الاعنياء الذين يرغبون في صنع تواييتهم من لوح واحد ثخين لكل جانب.

وبالنتيجة لم تتمكن الشجرة من بلوغ عمرها الطبيعي بل انتهت قبل الاوان تحت الفؤوس والمحزات وهي في منتصف نموها. وهذه معضلة جدارتها.

في القرابين للنهر الاصغر لا تستعمل الثيران ذات الجباه البيضاء والخنازير ذات الفطيسة المقلوبة والرجال المصابون بالبواسير^(١٠) وهي أمور يعرفها المعزومون الذين يعتبرون هذه المخلوقات غير محظوظة! ولكن في هذا الحساب بالضبط يعتبرها الانسان الروحاني من ذوات الحظ العظيم.

كان هناك رجل مشوه يدعى شو. كان ذقنه يختفي تحت سرته، واكتافه اعلى من قوفة رأسه وعموده الفقري متوجه نحو السماء وجميع فتحاته الخمسة مقلوبة الى فوق وعظام فخذه تشبه الاضلاع. وقد عاش على شحذ الإبر وغسل الملابس. كما اشتغل في جرش الشلب^(١١) وتنقيته وكان قادراً بذلك على اعادة عشرة افراد. ولما كانت الحكومة تعلن النفير كان يمشي بين الجنود دون ان يخفي نفسه وحين تحتاج الحكومة الى مهام جلية لم يكن يكلف بشيء منها بسبب علله المستدime. وحين تقدم الحكومة الحبوب للمرضى يستلم ثلاثة تشونغ وعشر ربطات حطب. فان يكن هذا الرجل الاخرق البدن قادراً على تأمين عيشه وإكمال ترم وجوده فكم سيكون في مقدور من هو أخرق في فضيلته ان يفعل؟

”الانسان الكامل عديم النفع للغير لكن كل شيء نافع لنفسه وذلك يترك الانسان الكامل كل شيء يتمتع بانجازته واسمه بينما هو نفسه يزاول الاشياء بلا تمييز، وبذلك يتعد عن اذية عالم الانسان ويحصل دائماً على فوائد حقيقية. وهذا هو الاخرق في فضيلته - كوو شيانغ.

لما ذهب كونفشيوس الى تشو تلقاه البهلول تشيه يو وقال له: او ياعنقاء او ياعنقاء ايش انت فاعل مع هذي الدنيا المتداعية؟ المستقبل لا يمكن

انتظاره. الماضي لن يعود. وحينما يسود نظام خيّر في الدنيا يبحث الحكيم عن انجاز. ولما يسود الاضطراب فهو يصون حياته فقط. وفي هذه الايام احسن ما يفعله الواحد هو الافلات من العقاب. السعادة اخف من الريشة ولكن ولا واحد يقدر على حملها. الشدائد اثقل من الارض ولا واحد مع ذلك يقدر على تجنبها. يجب ان تتوقف مساعيك لجلب الناس الى فضيلتك. سلوكك الموسوم بالنظام خطر خطر. انني اتجنب سوء السمعة لئلا ينقطع علي الدرب. امشي منحنيًا لئلا تتأذى قدمي. اشجار الجبل تسبب القلع لنفسها. الشحم يجلب لنفسه النار. شجرة الكئون تؤكل فتقطع شجرة البرنيق نافعة فيشقون جذعها. جميع الناس يعرفون منفعة النافع لا منفعة الغير نافع.

- الاشجار العديمة النفع لا تنفع الاخرين لكنها بعيدة عن الاذى. وهذا مثال على منفعة اللا نافع لكن تشوانغ تسه على أي حال لا يريد بالضرورة ان يكون كل انسان عديم النفع بالمعنى العادي للكلمة ففي الفصل العشرين المعنون "شجرة الجبل" ترد هذه القصة.

كان تشوانغ تسه يمشي في جبل حين رأى دوحة شامخة باغصان ضخمة وعُبل باذخ وكان خشاب يستريح بجنبها من دون ان يمسه ولما سئل عن السبب قال ليس من سبب فقال تشوانغ تسه، هذه الدوحة لانها عديمة النفع فهي قادرة على استكمال ترمها الطبيعي في الوجود. وبعد مغادرة الجبل آوى تشوانغ تسه الى منزل صديق. ففرح به الصديق وأمر غلامه ان يذبح بطة ويسلقها فقال الغلام: واحدة من بطاتنا تقوي والاخرى لا تستطيع فأياها تريدني أن اذبح؟ فأجاب: اذبح التي ما تقوي.

في اليوم التالي سأل تلميذ تشوانغ تسه استاذة: بالامس راينا الدوحة الجيلة القادرة على استكمال ترمها الطبيعي في الوجود لعدم نفعها والآن

ولنفس السبب دُبِحت بطة مضيفنا. اي حالة من هذين تفضلها يا مولاي؟ ضحك تشوانغ تسه وقال: افضل ان اكون في موضع بين النافع والغير نافع. ويبدو لي هذا هو الوضع السليم لكنه ليس كذلك في الحقيقة. ومن هنا لم اسلم من الاشكالات لكن من يقوم برحلة في التاو وال تي لا يتعرض لاي اشكال. ويكون خارج متناول المدح والذم. الآن كالتين، الآن كالحية، يتبدل مع الوقت ولا اصرار عنده. هو الآن عالي والآن واطي جاعلاً من الانسجام مقياساً يمتع نفسه بيسر مع مؤلف الاشياء. يعامل الاشياء كأشياء. ولا يعامل هو كشيء من طرفها. فما الذي يوقعه في المتاعب!

يعيدنا ذلك الى ما ورد في الفصل الأول من ان الانسان الكامل لا يتكل على شيء ويترحل في اللا نهاية، الانسان الكامل لا نفس له، الانسان الروحاني لا انجاز له والحكيم لا اسم له وهم كانوا كذلك لانهم تركوا كل شيء يفعل تبعاً لقدرته الخاصة به متخذاً اسمه الخاص به.

لأنهم كذلك فهم دائماً يكونون، أو يبدو انهم يكونون، عديمي النفع، عديمي التمييز. وبهذا السبب كانوا أبعد عن المتاعب. وكما يقول كوشيانغ: هذا هو من هو أحرق في فضيلته" هذا هو النفع العظيم لعدم النفع.

تبين القصة الاخيرة في هذا الفصل خطر اظهار مزية المرء الخاصة به للآخرين، خطر محاولة مد المرء معياره الخاص به الى الغير.. حين يكون العالم في سلام اتركه لوحده. وحين يكون مضطرباً اتركه لوحده ايضاً. بامكان الناس ان يدبروا خلاصهم بانفسهم. واذا المرء لم يتصرف تبعاً لهذا المبدأ واختار الاصرار على معياره الخاص به وتقويم الآخرين اصطناعياً بموجه فلا بد من وقوعه في المأزق. لكن هذا ما يفعله الناس في المعتاد لانهم يعرفون منفعة النافع ولا يعرفون منفعة العديم النفع - فونغ.

الهلوامش

- (١) ين هوي: مرسد لكونفوشيوس. يلفظ بكسر الياء وسكون الهاء وكسر الواو
وي: بفتح الواو
(٢) تشيه وتشو من طغاة سالف الاوان قتلا وزيريهما الكفوءين كوانغ لونغ بانغ و
بي كان.
يلفظ تشيه بكسر التش وإمالة اليائين. يانغ: يلفظ بصوت باء باريس وكذلك بي
كان.

- (٣) ش: شين مفتوحة
(٤) شرب الماء البارد عند الصينيين كناية عن المعافاة - هـ.
(٥) كونفوشية فاقعة ترجح الشك في نسبة هذا النص الى تشوانغ تسه - هـ.
(٦) فا ين : مأثور في الاخلاق والقانون - هـ.
(٧) عارف من دولة لو
(٨) وزير في دولة وي.
(٩) شيه بكسر الشين ومد الياء. يوان بتسكين الياء
(١٠) لعلها اشارة الى القرابين البشرية التي كانت تقدم للانهار الكبرى كالنهر
الاصفر والنيل. وقد استمرت في النيل حتى الفتح الاسلامي عندما منعها عمرو بن
العاص فاتح مصر في القرن السابع م. ومنعت في الصين قبل هذا التاريخ، الا انها
استمرت في التبت حتى العصر الحديث ومنعت رسمياً بعد فتحها من قبل جيش التحرير
الصيني عام ١٩٥١ .
(١١) الشلب مصطلح عراقي للرز الغير مجروش، الرز الخام، بكسر الشين.

الفصل الخامس

دليل الفضيلة الكاملة

الغرض الارأس لهذا الفصل تبيان معنى الفضيلة الكاملة وشدة نفوذها -
فونغ.

وانغ تاي رجل من ابناء دولة لُو كان قد فقد احدى قدميه وكان له
اتباع بقدر اتباع كونفشيوس. ومرة سأل تشانغ تشي كونفشيوس: ان وانغ
تاي رجل ابتر ومع ذلك يقاسمك التعليم في دولة لُو.. هو لا يعظ ولا
يناقش لكن الذين يقصدونه يكونون فارغين والذين يخرجون منه يكونون
ملأى. هل حقاً يوجد ما يسمى تعليم بدون كلمات؟ وبينما الجسد مشوه،
أيمكن للذهن ان يكون كاملاً؟ أي صنف من الرجال هو؟

اجاب كونفشيوس: هذا السيد حكيم. وأنا نفسي لم اذهب اليه لانني
ببساطة كنت متأخراً. أنني أعدده شيخاً ولا أقول شيئاً عن الذين يساونني.
سأقود العالم كله لاتباعه، ولا أقول شيئاً عن دولة لُو.

قال تشانغ تشي: انه الرجل، ذلك الابتر المشوه الذي يتفوق عليه رغم
ذلك. ينبغي ان يكون شديد الاختلاف عن الناس العاديين. ما هي هذه
الطريقة التي يشتغل بها ذهنه؟

قال كونفشيوس: الموت والحياة اعتبارات عظيمة، لكن ولا واحد منها يقدر على النيل منه. ولو ان السماوات انطبقت على الارض لبقى في مكانه لا يتحرك. هو يرى الكمال بوضوح تام ولا تؤثر فيه الاشياء. وهو يدرك ان ارتقاء الاشياء يرجع الى القدر ولذلك يحفظ ما هو ضروري.

وهنا سأله تشانغ تشي: ماذا تقصد؟

رد كونفشيوس: اذا نحن راينا الاشياء من جهة اختلافها وجدنا حتى الكبد والصفراء بعيدين عن بعضهما بعد تشو عن يويه. واذا رأيناها من جهة اتفاقها فهي جميعها سواء. وهذه الاخيرة هي ما يتمسك به هذا الرجل وبذلك فهو يعرف ليس فقط ما هو موافق لاذنيه وعينه بل ويداعب في خياله انسجام الفضيلة. هو يرى وحدة الاشياء وليس خسارته الخاصة ويعتبر فقدان قدمه مثل تراب كثير يتساقط.

قال تشانغ تشي: وفي تهذيب نفسه بالمعرفة فهو يحرز عقله وباحراز عقله يحرز العقل الابدي ولكن لماذا تتجمع الاشياء من حوله؟ اجاب كونفشيوس: ان الناس لا ينشدون رؤية انفسهم في الماء الجاري بل الراكد. والراكد وحده هو ما تتجمع الاشياء من حوله. أما بخصوص الاشياء التي تتلقى تأثير الارض فإن الصنوبر والسريس وحدهما يخضوضران في الشتاء والصيف. واما الذين يتلقون تأثير السموات فإن شون وحده هو المصيب. ولحسن الحظ هو يستطيع تقويم حياته الخاصة به ومن ثم حياة الآخرين. وعن طريق ضغط القوة الاصلية وازالة الخوف فإن انساناً بمفرده يمكن ان يشق طريقه بنجاح مخترقاً تسعة جيوش. وحين يتوصل رجل شجاع الى نتيجة كهذه فمن سيضحى بنفسه في البحث عن الشهرة؟ اي دور سيؤديه من يسيطر على السموات والارض ويحتضن جميع الاشياء؟ من يرى بدنه

موقتاً كالمبيت وعينييه واذنيه مجرد صور، من يوحد كل المعرفة التي تعلمها ومن لا يموت عقله ابداً. هذا الانسان هو من يختار يوم رحيله ويتبعه الناس في النهاية فما الذي يجعله مهماً بشؤون الدنيا؟

شن توتشيا رجل فقد احدى قدميه. درس على بو هون ووجن مع تسه تشان من دويلة تشنغ^(١). قال الاخير له: ان ترتب علي المغادرة اولاً فهل ستمكث بعدي قليلاً؟ ان ترتب عليك المغادرة اولاً فسأبقى بعدك .

تسه تشان، كبير وزراء دولة تشنغ غير لتمشييه مع رجل مشوه - فونغ

في اليوم التالي كانوا جالسين في نفس المكان. فقال تسه تشان: اذا ترتب علي المغادرة اولاً فهل لك ان تبقى بعدي قليلاً؟ لو ترتب عليك المغادرة اولاً فسوف ابقى. والآن حان وقت انصرافي. فهل تبقى ام لا؟ اكثر من ذلك، اذا رايت وزيراً لدولة فلا تحاول الابتعاد عن طريقه. هل ترى نفسك كفتاً له؟

قال تشن توتشيا: في مدرسة شيخنا أيمكن يوجد هكذا وزير؟ انت من يفتخر بمنصبه ويعتقد انه ارقى. سمعت انه اذا كانت المرأة تامة النضوج لا تتجمع عليها الاتربة والاساخ، ولو حدث ذلك فقدت المرأة لمعانها. ان من يقارن العاقل لوقت طويل يكون خلواً من الخطأ. والآن فالرجل العاقل الذي اخترته ليجعلك عظيماً هو استاذنا ومازلت مع ذلك تتلفظ كلمات كهذه، اليست تلك هي غلطتك؟

قال تسه تشان لقد كنت (في البدء) ما انت عليه لكنك مازال تسعى لمضاهاة طيبة ياو. هل لتقدير ما عن فضيلتك ان لا يقودك بكفاءة الى امتحان نفسك؟.

قال شن تو تشيا: ان الذين يجلبون سوء السمعة لانفسهم كثيرون في الناس. وبخلانهم اولئك الذين يترفعون عن ذلك ويعتقدون ان عليهم ان لا يحتفظوا بشيء فهم قلائل. ان الاقرار بالمحتم والاذعان له بصمت كإرادة من القدر هو فعل الفضلاء فقط.. حينما يتجول الناس داخل مرمى سهم بي^(٢) فإن وسط الحقل هو المكان الذي يضربون فيه واذا لم يتم ضربه فهذا فعل القدر.

”بسبب تصادم مصالحهم يتصارع الناس دائماً ولذلك نجد بي حاضراً في كل مكان. ومع استثناء اولئك الذين لا نفس لهم ولا معرفة فيتبعون مجرى الطبيعة، يقع كل انسان في مدى سهم بي. القدر وحده يقرر من تناله الضربة. لكل انسان حال لكن ليس كل الناس يعرفون ان كل حال مقدر ولذلك نجد الذين لا تنالهم الضربة يحسبون انهم مهرة ويغتبطون لها. ولكن حينما تصيبهم ضربة في وقت ما يأسفون لاطيائهم ويؤذون بذلك ارواحهم. وهذه لانهم لا يعرفون شيئاً عن القدر. نحن نمتلك الحياة ليس لاننا اردناها ان تكون لنا. وفي دورة حياتنا المئة سنة جلوس وقيام، مشي ووقوف، فعل وراحة، كسب وخسارة، شعور، غريزة، معرفة، وقابلية. جميع ما عندنا وجميع ما ليس عندنا، وجميع ما نفعله، جميع ما نلقاه، لا يكون هكذا لأننا أردناه. فهي ماهي بسبب الطبيعة. ويبقى العديد مع ذلك لا يفهمون الحال ولذلك نراهم واقفين ضد الطبيعة وكثيري الخطأ. كووشيانغ.

الذين لهم قدماں ويضحكون علي لأن لي قدم واحدة هم كثيرون. كنت في الماضي اغضب عليهم جداً. ولكن من يوم جئت الى شيخي كفت عن الانزعاج بسبب ذلك. لعل شيخي قد طهرني بالخير. انا معه منذ تسعة عشر عام ولم افطن يوماً الى ان لي رجل واحدة. والآن قمت انت وأنا برحلة في دنيا الباطن ولا تزال تولي اهتمام بيديني الخارجي، ألسنت على خطأ في ذلك؟

شعر تسه تشان بعدم ارتياح فبدل عباراته الموزونة وقال: سيدي. اتضرع اليك ان لا تذكر المزيد عنها.

* * * *

رجل من دويلة لو كان ابتر يدعى شو شان العديم اصابع الرجل. مشى على كعبيه لكي يرى كونفشيوس الذي قال له: لم تكن حذراً فجلبت هذا البلاء لنفسك. مجيئك لرؤيتي متأخر جداً.

قال العديم اصابع الرجل: من وراء جهلي بالسبيل القويم وعدم اتخاذي الاحتياطات المطلوب فقدت قدمي وقد جئت الآن لاني مازلت املك ما هو اقيم من قدمي وما احرص لذلك على صونه تماماً. ليس من شيء لا تظله السماء، ليس من شيء لا تحمله الارض. وقد اعتقدت فيك يا سيدي انك مثل السماء والارض ولم اتوقع ان تستقبلني بهذه الطريقة.

رد كونفشيوس: انا غبي. لماذا لا تدخل حتى أقص عليك ما تعلمته؟

ولما انصرف العديم اصابع الرجل قال كونفشيوس: هذا العديم اصابع الرجل قد تشوه لكنه ما يزال تواقاً لتعلم كيف يعالج الشر في تصرفه السابق. كم يتعين اذن على اولئك المكملي الفضيلة ان يفعلوا؟

مضى العديم اصابع الرجل ليرى لاوتسه وقال: اعتقد ان كونفشيوس لم يصبح بعد انساناً كاملاً فلماذا هو دائماً يسعى لتقليدك! هو يبحث عن السمعة في ان يكون فوق العادة وخارق من غير ان يعلم ان الانسان الكامل يعتبر هذه كالقيد والغل.

وعقب لاوتسه: لماذا لم تجعله يفهم ان الحياة والموت شيء واحد وان الصبح والغلط سيان فتحرره بذلك من قيوده واغلاله؟

قال العديم اصابع الرجل، هو قد نال العقاب الطبيعي^(٣) فأنى له ان يتحرر؟

سأل الامير آي، من دويلة لو، كونفشيوس: رجل دميم في دولة وي اسمه آي تاي تو. فكر فيه الناس الذين عاشوا بقربه الى حد أنهم لا يستطيعون ان ينأوا بأنفسهم عنه. والنساء اللواتي رأينه، عشرة او اكثر قلن لآبائهن: اننا نفضل ان نكون سراري له على ان نكون زوجات لغيره. اما هو فلم يسمع عنه التصدر بشيء غير اتباع الآخرين. لم يكن في وضع حاكم حتى يكون قادراً على تخليصهم من الموت ولا مال له حتى يكون قادراً على ملء بطون الناس. والأزيد من ذلك انه كان من الدمامة بحيث يفزع العالم بأسره. كان يتبع الآخرين ولا يتصدرهم. معرفته لم تتجاوز جيرانه الاقربين. ومع ذلك فقد التم حوله الرجال والنساء. ينبغي في الواقع ان يكون مثل هذا الرجل مختلفاً عن الناس العاديين. وقد أرسلت عليه رأيته فإذا هو بالفعل من الدمامة بحيث يفزع الدنيا كلها. ولما عاش معي اقل من شهر شرعت التفت الى شخصيته. وقبل ان يمضي علينا عام كامل وثقت به بعمق. واذا كانت دولتي في حاجة الى وزير اكبر عرضت عليه الحكومة فرد علي بهدوء وانسجام مشعراً أياي بالرفض. فخجلت من نفسي وسلمت الحكومة اليه اخيراً. لكنه بعد وقت وجيز تركني وراح. واحزنني ذلك وشعرت أنني حصدت الخسارة حيث لم يكن في الدولة من يشاركها في بهجتها. اي صنف من الرجال هو يا ترى؟

قال كونفشيوس: مرة وكنت في بعثة الى دويلة تشو رأيت بعض الخنايص ترضع امها الميتة. وبعد لحظة تركنها مجفلات. لقد شعرن انها لم تراهن وانها لم تعد شبيهة بهن. ما احبته الخنايص من امهن ليس جسمها

بل هو ما جعل الجسم على ما هو عليه. حين يموت رجل في معركة يدفن بدون تزيينات عسكرية. وحين يكون رجل ما عديم القدم لا يهتم بالحذاء. وفي كلتا الحالتين نراهم قد فقدوا ما هو اساسي.

زوجات الملك لا يقصصن اظافرهن أو يثقبن اذانهن. حين يكون رجل حديث عهد بالزواج يبقى خارج البلاط خلياً من واجباته الرسمية. وذو البدن الكامل يمكنه ان ينجز بعض النتائج. كم ينجز اذن من يملك الفضيلة الكاملة؟ والآن لم يقل أي تاي تو شيئاً لكنه مصدق. لم يفعل شيئاً لكنه محبوب. لقد حمل رجلاً على اعطائه الحكومة وكان خائفاً فقط من أن يرفضها. ينبغي ان يكون في الحقيقة رجلاً مكتمل الطباع وفضيلته مكتومة.

وهنا سأله الأمير آي: ماذا تقصد بالطباع المكتملة؟

فرد كونفشيوس: الموت والحياة، الوجود والقرّر، العلة والحظ الحسن، الثروة والفقر، الجدارة وعدمها، الثناء والعدل، الجوع والعطش، البرد والحر. هذه تبدلات الاحداث وعملية القدر. وهي تتعاقب تعاقب الليل والنهار ولا يعرف احد أين تبدأ. وينبغي على المرء ان لا يسمح لمثل هذه الاشياء ان تكدر انسجامه. لا يسمح لها ان تلج الى ذهنه. يجب ان يبقى الذهن منسجماً راضياً ومكتملاً. وان يبقى المرء على الدوام مرحاً وريقاً مع الاشياء. الذهن يتبع تبدلات الاحداث. هذا يُسمّى الطباع المكتملة.

وماذا تريد بالفضيلة المكتومة؟

اجاب كونفشيوس: الميزان الأتم هو فضيلة الماء الراكد. هذا هو غرارنا. السلم الداخلي مصون ولا تكديرات من الخارج. الفضيلة هي الانحفاظ الأكمل للانسجام. الانسان الكامل له فضيلة لكن مظهره لا يشي بها. مثل هذا الانسان لازم لجميع الاشياء.

بعد أيام قص الامير آي هذه المحادثة على مينغ تسه^(٤) وقال:
سابقاً لم استويت على العرش حتى احكم الدنيا والامساك بالزمام
والاعتناء بالشعب اعتقدت انها الكمال الاوفى. والآن وقد استمعت الى
اقوال الانسان الكامل، يتتابني الخوف من ان لا تكون لي فضيلة حقّة وانني
باستعمال نفسي في لا مبالاة واستخفاف قد اخرب دولتي. كونفشيوس
وانا لسنا أمير ورعية بل اصدقاء فضيلة.

رجل عديم الشفتين ساقاه مطويتان إلى حد أنه يستطيع المشي فقط على
اصابعه كان قد بعث بمشورته الى لينغ امير وي. واستبد الفرح بالامير
بحيث نظر الى الرجل الحسن الهيئة وكأنه يملك اصغر واليق رقبة. رجل
آخر كانت له غدة بحجم الجرة بعث بمشورته الى هوان، امير تشي، وفرح
الأمير الى حد أنه نظر الى الرجل الحسن الهيئة وكأنه يملك اصغر واليق
رقبة .

يرينا ذلك ان الفضيلة الراقية تغطي عيوب الجسد. وحيث لا ينسى
الناس ما وجب عليهم نسيانه وينسون مالا يجب عليهم تكون لدينا حالة
نسيان حقيقي.

من هنا يكون للحكيم مكان آخر لترحله. هو يرى في المعرفة لعنة، وفي
التقاليد غراء، وفي الاخلاق فن التجامع البشري وفي الفنون العائدة لفصيلة
واحدة تجارة. هو لا يعمل خطة فلا يحتاج الى معرفة. لا يقسم الاشياء فلا
يحتاج الى غراء. وليس في طباعه عيب فلا يحتاج الى الاخلاق. ولا يريد
بضاعة فلا حاجة فيه الى التجارة. وفي هذه السبل الاربعة يتغذى بالطبيعة
والاغذاء بالطبيعة يعني العيش عليها. وحيث انه يعيش بالطبيعة فما فائدة
الفن؟ ان لديه صورة بشر ولكن دون تأثير بشري. وحيث ان له صورة بشر

فهو انسان بين الناس. واذ لم يكن له تأثير بشري يقف فوق التمييز العادي بين الخطأ والصواب. ويأتي من انتمائه للبشرية صغره ولا اهميته اما العظمة والجبروت فمن تمهويه الفذ مع الطبيعة.

سأل هوي تسه تشوانغ تسه: هل في الدنيا اناس لا تأثير لهم؟
أجاب: نعم.

فقال هوي تسه: إن لم يكن لانسان تأثير كيف نسميه انسان؟
اجاب: التاو يعطيه المظهر والطبيعة تعطيه الصورة. فلماذا لا يمكن تسميته انسان؟

قال هوي تسه: اذا كنا نسميه انسان كيف يكون بلا تأثير؟
اجاب تشوانغ تسه: ليس هذا ما أعنيه بالتأثير. حينما اقول عن انسان انه بلا تأثير فإنما أعني من لا يلحق الأذى بنفسه من المرغوبات والمكروهات، من هو دوماً في اتفاق مع الطبيعة ولا يفعل شيئاً لزيادة مصطنعة على ما هو حاصل عنده. وسأل هوي تسه: ان كان يفعل شيئاً لزيادة مصطنعة على ماهو حاصل عنده فكيف يمكنه الادامة؟

قال تشوانغ تسه: التاو تعطيه المظهر والطبيعة الصورة. ولا يلحق الاذى بنفسه. لكنك تكرس نفسك للبراني وتهلك بذلك حيويتك. تسند نفسك الى شجرة وتغمغم او تتكئ على منضدة وتنام. لقد اختارت لك الطبيعة صورتك البدنية وانت تهذي بمناقشة "الصلب والايض"^(٥)

الهوامش

- (١) شن بفتح الشين. جن بفتح الجيم. تشنغ بفتح التش. بو : باء باريس
- (٢) بي قواس مشهور في الغابر - فونغ. والكناية هنا عن الحروب - هـ.
- (٣) العقاب الطبيعي: يقصد انه نال الشهرة والمكانة وهذا عقاب الطبيعة على التمييز بين الموت والحياة والصح والغلط - هـ.
- (٤) من مريدي كونفوشيوس
- (٥) يشير الى مفارقات هوي تسه المنطقية - هـ.

الفصل السادس

المعلم العظيم

يتضمن هذا الفصل وصفاً للانسان الكامل أو "الانسان الصادق" الذي يمكنه ان يكون المعلم الاكبر للعالم - فونغ.

من يعرف عمل الطبيعة وعمل الانسان هو من يعتبر في العادة كاملاً. من يعرف عمل الطبيعة يعيش تبعاً للطبيعة. من يعرف عمل الانسان يغذي ماهو غير معروف في معرفته بما هو معروف.

الغير معروف للمعرفة هو عمل الطبيعة مثل دوران الدم، اشتغال الاحشاء وغيرها. المعروف للمعرفة هو عمل الانسان مثل القراءة والكتابة فونغ.

ويمكنه بذلك استكمال ترمه الطبيعي من السنوات ولا يصل الى نهاية غير موقوته وهو في منتصف العمر. هذه هي المعرفة في ذروتها.

وتبقى بعض المشكلات. هنا يترتب على الانسان ان يعتمد على شيء ما هو المعرفة. والمعرفة أبعد ما تكون عن اليقين. وهو يعرف ان ما يدعوه طبيعة ليس هو الانسان وما يدعوه انسان ليس هو الطبيعة.

حيثما كانت المعرفة كان الاختباط. فالسبيل الأقوم هو في تجاوز المعرفة. ذلك ما قد نوقش بتمامه في الفصل الثاني. المعرفة الصادقة للانسان الصادق

هي معرفة ما نسميه تجربة خالصة. هذا ما سنراه في الوصف التالي للانسان
الصادق - فونغ.

الانسان الصادق له فقط معرفة صادقة. ماهو الانسان الصادق؟ الانسان
الصادق قديماً لم يكن يعارض حتى الاقلية. لم يبحث عن انجاز بطولي. لم
يضع خطة ومن ثم كان لا يأسى على الفشل ولا يفرح بالنجاح. وبذلك
كان يمكنه صعود المرتفعات بلا خوف، والدخول في الماء دون ان يتبلل
وفي النار من غير شعور بالحرق... مثل هذا هو من ترتقي معرفته الى التاو..
الانسان الصادق من السلف كان ينام ولا يحلم ويستيقظ ولا يقلق.
يأكل بدون تخيير، يتنفس بعمق وتنفسه يأتي من عقبه بينما يتنفس الناس
العاديون من حناجرهم، بعيداً عن الذين تنقذ كلماتهم مثل القبيء.

الانسان الصادق هادئ، ساكن، متطامن، بينما عموم الناس مستغرقون في
الاختباط والقلقلة - فونغ.

من كانت شهواته في العمق فينبوع طبيعته ضحضاح.
الانسان الصادق من السلف لا يعرف حب الحياة ولا كره الموت.
يعيش فلا يشعر بالاغتراب، يموت فلا يقاوم. يروح غير واعٍ، ويجيء غير
واعٍ. لا يحاول ان ينسى بوعي كيف كانت بدايته او يبحث عن نهايته
كيف تكون. يتلقى بالجور اي شيء يأتيه ويترك اي شيء يكون قد نسيه
فلا يعبأ به. لا يؤثر الذهن الصاحي على التاو او الطبيعة المكملة للانسان...
مثل هذا هو من نسميه الانسان الصادق.

وفي كينونته هذه يتحرر ذهنه من جميع الافكار. حركته راسخة صافية. جبهته
تشع بالبساطة، بارد كالخريف دافئ كالربيع. انزعاجه وارتياحه يأتيان عفواً
كالفصول الاربعة. في انسجام مع الاشياء كلها دون معرفة أي معيار ثابت. ومن

هنا يمكن للحكيم في ادارته للحرب ان يدمر بلداً من غير ان يفقد ثقة الناس به. ان نفعه قد يمتد الى عشرة آلاف جيل من غير أن يكون "محب الانسان".

من هنا ليس حكيماً من يحاول لغرض ما ان يعرف جميع الاشياء. ومن يتوخى اظهار تأثراته ليس من اهل الاحسان. ومن يرقب التغيرات في الوقت عن غرض ليس من اهل الحكمة. ومن لا يستطيع توحيد النافع والضار ليس من اهل الفضائل. ومن يعمل للشهرة ويفقد بذلك طبيعته الخاصة به ليس من اهل المعرفة ومن يفقد طبيعته الخاصة ويضل بذلك عن سواء السبيل لا يمكنه ان يستقل عن الغير. ومن هذا الغرار البشري كان هو بو تشيه، وو كوانغ بو يي، شو تشي، تشي تسه، شو يو، تشي تو، شُن تو تي^(١).

- من اخلاقي الازمنة الغابرة - فونغ.

الجميع تصرفوا تبعاً لمعيار الآخرين وليس لطبيعتهم الخاصة بهم. الجميع عملوا لاسعاد الغير، وليس لانفسهم.

مظهر الصادق من السلف كان يشبه شيئاً ما سامياً لكن بعيداً عن خطر الهبوط. شيئاً ما غير كافي لكن لا يحتاج الى الاضافة. يتصرف باستقلال لكن غير قاطع. خلوه يبرّ لكن لا يستعرضه. يتسم ويبدو جذاباً. يستجيب تلقائياً كما لو انه لا خيار له. يراكم الجاذبية الظاهرة في تعبيره. فراغيته تثبت تبعية الانسان للفضيلة. تساميه يبدو غير قابل للسيطرة. وخفياته غير مكشوفة. ولكونه دوماً غير واعى ينسى ما يقول. يعتبر القانون تمظهراً برانياً للحكومة والاحتفالات اجنحة والمعرفة مطلوب الوقت والفضيلة هادياً. اعتبار القانون تمظهراً برانياً للحكومة يعني أنها من عادات عالم الانسان. اعتبار المعرفة مطلوب الوقت يعني اتباع المجرى المحتوم للاشياء. واعتبار الفضيلة هادياً يعني العودة الى المنزل السابق.

الطبيعة - فونغ.

مع هؤلاء القادرين على المشي، يفعل تلقائياً والناس يعتقدون انه يذل جهداً خاصاً. وبهذه الطريقة فإن ما يحبه هو الانكفاء الى واحد. وما لا يحبه ايضاً هو الانكفاء الى واحد، فما ليس واحداً عنده هو ايضاً واحد. هو من يعرف ان الواحد من أتباع الطبيعة وليس من أتباع الانسان. لا الطبيعة ولا الانسان ينبغي لهما إسقاط الآخر. هذا هو الانسان الصادق.

الصادق يوحد الطبيعة بالانسان ويساوي بين جميع الاشياء. لا وجود عنده للتعارض بين الاشياء ولا تفاهر بين الطبيعة والانسان وهو لذلك فارغ كما هو كل شيء. غير واعى وفي كل مكان ومن يوحد باطنياً بين نفسه والآخر- كروشيانغ

هذا ما يسميه تشوانغ تسه إتباع مجريين في آن. كما ذكر في الفصل الثاني - فونغ

الحياة والموت يعينهما القدر. تعاقبهما كتعاقب النهار والليل هو تحولات الطبيعة. ثمت شيء ما يخرج عن يد الانسان. وكذلك هو واقع الاشياء. وفي الناس من يعتبر السماء أباً له ويداوم على حبها - كم يجب عليهم اذن ان يحبوا ما هو اعظم من السماء؟

يقصد التاو - فونغ.

وفيه من يرى حاكمه فوقاً له ويضحى لذلك بحياته من اجله - كم يجب عليهم اذن ان يفعلوا مع من هو اكثر حقيقة من الحاكم.

يقصد التاو - فونغ

حينما تجف الينابيع ينحشر السمك في الياوس ليأتي بعضه بعضاً بما حوله من الرطوبات ويُبقى على نداوته بتقاسم الزوجة في جلده.

الاخلاقون الذين يصلحون العالم بالاحسان والاستقامة - فونغ
انما الافضل له - السمك - أن ينسى بعضه بعضاً في الانهار والبحيرات.
الناس ينسى بعضهم بعضاً في التاو - فونغ.

يمدح الناس ياو ويذمون تشيه لكن الأفضل لهم أن ينسوهما ويتمثلوا طرائقهم
المختلفة. يحملنا العالم في ابداننا، يكدح بنا طيلة العمر، يعطينا السكينة في
شيخوختنا ويتركنا نستريح في الموت. ذلك ما يجعل حياتنا طيبة وموتنا
طيب ايضاً. الزورق يمكن ايداعه في شاخه^(٢) والشبكة في البحيرة. ويعتبر
ذلك اسلم بما يكفي لهما. لكن في منتصف الليل قد يأتي رجل شديد
الأسر فيحملها على ظهره. الجاهل لا يرى ان المسألة لا تكمن في كيفية
الحفظ، /الشيء الصغير في الكبير/ حيث يكونان دائماً عرضة للضياع.
ولكن اذا انت خزنت العالم في العالم لا يبقى مجال لفقدانه. هذا هو
الصدق^(٣) الاكبر للاشياء.

ذاك هو الصدق العظيم للاشياء. ان التمسك بالصورة البشرية مصدر
للمتعة. لكن هناك في المجرى اللانهائي الوف الصور المساوية في الصلاح،
وانه لنعيم لانظير له ان تقع تحت هذه التحولات التي لا تحصي. ومن هنا
يقوم الحكيم برحلاته داخل ما لا يخشى عليه الفقدان ويبقى معه حتى
النهاية.

"يقوم الحكماء بالترحل في دروب التحولات ويتبعون مجرى التجديد
اليومي. الاشياء تتبدل معهم والتبدل لانهائي وكذلك الحكماء لا يتأهون فهم
يفقدون الحياة ويدومون في الموت. ومعنى ذلك انهم باقون على الدوام" -
كوو شيانغ.

أولئك الذين يعدون الموت المبكر، العمر الطويل، البداية والنهاية حسنات

كلها يجب ان يكونوا هم المتبوعين. ما أوسع ذلك الذي ترجع اليه جميع الاشياء ويعتمد عليه الارتقاء العظيم!

تبين هذه الفقرة ان رحلة الصادق تعتمد في الواقع على اللاشيء كما ورد في الفصل الاول - فونغ

للتا واقع ودليل ولكن لا فعل ولا صورة. وهو قد يتحول ولكن لا يمكن تلقيه. يسع الامساك به ولا تسع رؤيته. يوجد بواسطة /ومن خلال/ نفسه. ووجوده سابق للسموات والارض، بل هو موجود على مدى الابدية - هو الذي يمنح الآلهة الوهيتها والعالم وجوده.

"التا لا يمنح الآلهة الوهيتها، إنما هي الالهة بذاتها. وبذلك فهو يجعلها الالهة بعدم جعلها كذلك. التا لا ينتج العالم فالعالم ينتج نفسه وبذلك فالتا ينتج العالم بعدم انتاجه له" - كرو شيانغ.

هو فوق السميت لكنه غير عالي. هو تحت النظر (نجم) لكنه غير واطيء. سابق للسموات والارض لكنه غير قديم. هو أقدم من أقدم الغابرين لكنه غير قديم.

"يبين ذلك ان التا هو في كل مكان، ومن هنا فهو في اعلى مكان لكنه غير عالي. وفي اوطأ مكان لكنه غير واطيء. هو في الازمنة السحيقة لكنه هو نفسه غير قديم... موجود في كل مكان، ومعدوم في كل مكان" - كرو شيانغ.

[صيغة أخرى من ترجمة نيدهام :

للتا واقع ودليل ولكن لا فعل ولا صورة. ينفذ خلال الاشياء ولا يمكن تلقيه. يتحقق ولا يُرى. وجد نفسه وبواسطتها قبل السماء والارض. هو الذي اعطى الارباب الوهيتهم ومكن العالم من الظهور. ليس عالياً مع انه

في السمّ، ولا واطئاً مع أنه في الحضيض. ورغم سبقه للسمّاء والارض فهو غير قديم. ورغم انه اقدم من كل الحكماء فهو غير قديم.]
حصّله شي وي^(٤) فعادل به السمّاء والارض. وحصّله فو شي^(٥)
فتوغل في اصل المادّة وحصّله الدب الاكبر فلم ينحرف عن مداره قط
والشمس والقمر فلم تتوقف حركتهما قط. وحصّله كان بي فدخل به الى
جبال كون لونغ (قلب العالم) وفنغ بي فقام برحلته الى النهر العظيم،
وتشين وو فاتخذ منزله في جبل تاي والامبراطور الاصفر وبه ارتقى الى
السمّاء السديمية وتشوان شو^(٦) فأقام في القصر المعتم. ويوشيانغ فحاذى
القطب الشمالي. وحصّله شي وانغ مو^(٧) فأعطيت مقعدها في جبل شاو
كوانغ ولم يعرف احد بدايتها ولم يعرف احد نهايتها. وحصّله الجد بنغ شو
فعاش من زمان شون الى زمان الامراء الخمسة، وحصّله فو يويه^(٨) فصار
كبير وزراء ووتونغ وتحكم في الامبراطورية كلها، وبعد ان مات امتطى
كوكبة تجرها كوكبة اخرى ووضع نفسه في مدار النجوم.

هذه الفقرة تقدم وصفاً شعرياً للتاو ومحصليها - فونغ

سأل نان يوتسه كُوي، نيوتشو كيف يكون له وجه طفل وهو الشايب؟

فأجاب: لأنني تعرفت على التاو

فساله نان بو: أيمكنني معرفة التاو؟

رد نيوتشو: كلا من أين لك. لست ذلك الانسان المؤهل لفعله. اذكر
لك بوليانغ بي الذي كانت له عبقرية حكيم ولكن ليس التاو. أنا عندي
التاو ولست عبقرياً. فاردت ان اعلمّه حتى يصبح حكيماً بحق. ان تعليم
تاو الحكيم الى انسان ذو عبقرية يبدو امراً ميسوراً. ولكن كلا، لقد واصلت

تعليمه، وبعد ثلاثة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار جميع المواد الدنيوية. وبعد ان صار عديم الاعتبار لجميع المواد الدنيوية واصلت تعليمه وبعد سبعة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار الاشياء البرانية. وبعد ان صار قادراً على عدم اعتبار الاشياء البرانية واصلت تعليمه وبعد تسعة ايام بدأ يصبح قادراً على عدم اعتبار وجوده الشخصي. واذ توصل الى عدم اعتبار وجوده الشخصي صار متتوراً. واذ صار متتوراً صار قادراً على تحصيل رؤية الواحد. واذ صار قادراً على تحصيل رؤية الواحد صار قادراً على تجاوز الفرق بين الماضي والحاضر. واذ صار قادراً على تجاوز الماضي والحاضر صار قادراً على ولوج المملكة التي يتعادل فيها الموت والحياة. وهي الحالة التي يكون فيها تدمير الحياة ليس موتاً وزيادتها ليست حياة. واخذ عندها يتبع كل شيء ويتلقى كل شيء وصار كل شيء في نظره تحت التدمير وكل شيء تحت الانبعاث. وتسمى هذه الحالة: "السكينة في الاضطراب" وهي التي تعني الكمال.

برغم وضعه الروحاني الموصوف اعلاه لا يزال يتكيف طبعياً للحياة مع الناس. ان انسحاب الناسك ليس ضرورياً لاستكمال الانسان الصريف - غايلس.

[صيغة اخرى للنص عن الاستاذ هيوز :

بوليانغ بي له مواهب حكيم وليس له تاو حكيم. وانا عندي تاو حكيم وليس المواهب.. اردت ان اعلمه على امل ان يصير حكيم حقيقي: امسكته ثلاثة ايام في التعليم صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى عالم الانسان. واذ بلغ هذا الطور امسكته سبعة ايام صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى الاشياء البرانية من كل ضرب. واذ بلغ هذا الطور امسكته تسعة ايام

صار بعدها قادر على عدم الالتفات الى وجوده هو. وبعد ذلك حصل له التنور وبحصوله في طور التنور صار قادراً على رؤية الاحدية. واذ صار قادراً على رؤية الاحدية صار قادراً على ان لا يكون له ماضي وحاضر. واذ صار بلا ماضي وحاضر صار قادراً على الوصول الى اللاموت واللاحياة ، الحالة التي لا يكون فيها تدمير الحياة موتاً والزيادة في الحياة حياة. وبوصفه شيئاً فقد كان على الدوام في صحبة مع الاشياء وعلى الدوام يرحب بها. على الدوام يتدمر وعلى الدوام يتكامل. ان اسم هذا الطور هو طفل شبيه بالسلام والانسان الذي في هذا السلام هو طفل في طريق الاكتمال (اكتمال الطفولة)

سأل نان بوتسه كوي: من أين تعلمت هذا؟

رد نيو تشو: الكتابة من التعلم، التعلم من الفهم، الفهم من الادامة، الادامة من الانكباب، الانكباب من التمتع، التمتع من الخفي، الخفي من اللاتسمية، اللاتسمية من اللامتناهي.

تصف هذه المحاور مساق تحصيل التاو - فونغ

قال تسه سَو، تسه يو، تسه لي، وتسه لاي لبعضهم بعضاً:

من هو القادر على ان لا يجعل رأس وجوده شيئاً، والحياة عموده الفقري والموت ذيله، من هو الذي يعرف ان الموت والحياة، الوجود واللاوجود، شيء واحد - ذلك الانسان سيكون صديقنا.

ابتسم الاربعة واتفق بعضهم مع بعض وصاروا بذلك اصدقاء.

لم يمر وقت طويل حتى مرض تسه يو وذهب سَو لعيادته. قال المريض: ما أعظمه صانع الاشياء. بفضلته صرت على هذا الجانب من التشوه.

كان ظهره قد احدودب واحشاؤه في اعلى بدنه، وكفاه اعلى من رأسه، وعظام رقبته طالعة في السماء، وبالجملة فكل تفاصيل بدنه تقع خارج النسق. ومع ذلك كان ذهنه يأسراً وسليماً. تطلع الى بئر ونظر الى منعكسه وقال: أوه ... صانع الأشياء جعلني على هذه الصورة الشائنة.

فسأله تسه سو: وهل تنفر منها؟

اجاب: كلا. لماذا انفر منها. لو تحولت ذراعي اليسرى ديكاً لجعلتها دليلي على ساعات الليل. ولو تحولت اليمنى قوساً لاصطدت بها طيراً وشويته. ولو تحول ردفي عجلة وروحي حصاناً لامتطيته ولم تبق لي حاجة الى جواد. لما جئنا فلأنها كانت المناسبة لولادتنا وحينما نرحل فنحن نتبع ببساطة مجرى الطبيعة. ان من يكون رابط الجأش في الحدث الموافق ويتبع مجرى الطبيعة لا يحيك فيه الحزن والفرح. اولئك هم الناس الذين اعتبرهم القدماء احراراً من القيود... والذين لا يقدرّون على فك انفسهم يتردون في شباك الاشياء. زد عليه ان حقيقة ان الاشياء الجزئية لا تغلب على الطبيعة هي حقيقة معترف بها من وقت طويل. فلماذا انفر من حالي؟

ثم مرض تسه لاي وتفاقم مرضه حتى اقترب من الموت. ولما جاءه تسه ليعوده وجد زوجته واولاده يبكون من حوله فصاح بهم: هص! تنحوا عنه لا تشوشوا مسيرة الطبيعة. ثم اتكأ على الباب وقال: الطبيعة اكبر. ماذا ستصنع منك؟ هل ستجعلك في كبد فأرة؟ هل ستجعلك في ذراع حشرة؟ اجاب تسه لاي: حيثما يطلب الولد من والده ان يذهب شرقاً أم غرباً، جنوباً أم شمالاً فهو يطيع الامر ببساطة.. الطبيعة، الين، اليانغ ليست الا والدي الانسان. اذا عرضت علي الموت بسرعة ولم ألّبي وكنت مستنكفاً وعاصياً، فالخطأ ليس منها. العالم يحملني في يدي يكدح بي طيلة عمري،

يعطيني السكينة في الشيخوخة، والراحة في الموت. ما يجعل حياتي حسنة يجعل موتي حسناً. هنا سبائك جليل يسبك معدنه. لو ان المعدن نظ وقال: يجب ان تجعلني سيف مويه^(٩) لاعتبرها السبائك الجليل نقصان براعة. والآن لو أنني، وقد اتخذت الصورة البشرية مرة، قلت: يجب ان أكون انساناً يجب ان أكون انساناً لاعتبرني صانع الاشياء عديم الذوق. لو افترضنا العالم مصهراً والطبيعة سبائكاً جليلاً فأَي مكان فيها غير ملائم لوجودنا فيه؟ نموت في صمت ونعيش في سكون.

هذه القصة تترسم باللموس نظرية اخفاء العالم في العالم ونظرية استقلال الانسان الكامل التي وردت في الفصل الاول - فونغ.

كان تسه سانغ هو، ومَنع تسه فان، وتسّه تشين تشانغ^(١٠) اصدقاء. قال بعضهم للآخر: من بوسعه ان يرتبط في الارتباط ويتعاون في التعاون؟ من بوسعه ركوب السماوات والتجوال في السحب مبحراً في اللانهاية ويصبح ذاهلاً عن الوجود دوماً والى الابد من غير نهاية؟ نظر الثلاثة الى بعضهم وابتسموا. وبصمت اوماؤا بالموافقة وصاروا اصدقاء.

بعدها بقليل مات تسه سانغ هو. وقبل دفنه سمع به كونفشيوس فارسل (مريده) تسه كونغ للمشاركة في التأين. ومضى تسه كونغ فرأى احد الاصدقاء يردد اغنية والآخر يعزف على المزهر. كانوا يغنون معاً في تناغم:

الا، الا سان هو

سان هو لقد عدت

للحق يا سان هو

ولم نزل نحن

بعدك في الناس

الا الا سان هو

واسرع تسه كونغ اليهم ليقول: اخاطر بالسؤال ان كان من اللائق الغناء
في حضرة الجثمان؟

نظر الرجلان الى بعضهما ثم قالوا: ماذا يعرف هذا الرجل عن معنى
اللياقة! وعاد تسه كونغ من فوره ليخبر كونفشيوس ثم يسأله: اي صنف
من الناس هؤلاء؟

خلوا من الثقافة يعتبرون اجسامهم غريبة عليهم. يغنون في حضرة
الجثمان من دون تغير في الوجوه. لا ادري ماذا اسميهم. أي صنف من
الناس هم؟

رد كونفشيوس : هؤلاء يسافرون خارج عالم الانسان. وانا اسافر
داخله. وليس بين هذين السبيلين خطوط مشتركة. لقد اخطأت اذ ارسلتك
لتشارك في التأين.

انهم مرافقو صانع الاشياء، يترحلون مع وحدة العالم، يعتبرون الحياة
ملحقاً الصق بهم، وافرازاً زائداً عليهم، ويرون الموت انفصال الملحق وطرحاً
للمفرزات. وبهذه النظرات أتى لهم ان يفهموا فوقية الحياة ودونية الموت؟
اجسادهم عندهم تركيب من عناصر شتى مستعارة وهم يسكنونها مؤقتاً.
ينسون اكبادهم ومراراتهم ويتجاهلون آذانهم وعيونهم. يتنهون ويبدأون من
غير ان يدروا لا نهاية ولا بداية. ينزّون بلا وعي خارج العالم الوسخ
متجولين في مملكة اللافعل. كيف يتأتى لهم اطلاق انفسهم بالعريفات من
اجل الناس العاديين؟

وسأله تسه كونغ:

ان كان الأمر هكذا فلماذا تهتم انت يا معلمي بالعريفات؟

رد كونفشيوس: انا مدان من الطبيعة. وعلى اي حال فهذا امر مشترك بيننا. قال تسه كونغ: اخاطر بالطلب منك ان تقدم لي شرحاً اضافياً فقال كونفشيوس: السمك ينعم بالماء والناس ينعمون بالتاو. والسمك تألف البرك فيكون اغتذاؤها ملائم لها. والناس إذ ينعمون بالتاو لا يفعلون شيئاً فتكون حياتهم "اكتفاء ذاتي". وهكذا قيل: السمك ينسى بعضه بعضاً في الانهار والبحيرات والناس ينسون بعضهم بعضاً في التاو.

وسأل تسه كونغ: هل لي ان سأل عن الانسان غير السوي؟

قال كونفشيوس: الانسان غير السوي غير سوي عند الناس، سوى عند الطبيعة. ولذلك قيل: الانسان الدون تجاه الطبيعة هو الفوق بين الناس والانسان الفوق تجاه الطبيعة هو الدون عند الناس.

سأل ين هوي كونفشيوس: لما توفيت ام منغ سون تساي^(١) بكى من غير دمع، لم يشعر فؤاده بالمصيبة. وفي مدة الحداد لم يظهر جزعاً. ورغم ذلك فهو معدود النائح الافضل في دولة لو. أترى الانسان قادراً على كسب السمعة بدون أساس؟ امر يدهشني حقاً.

قال كونفشيوس: منع سون تساي من الكئيل. هو اكثر تقدماً من المعرفة. بعض الناس يقيسون الموت بالحياة ولا يرون الفارق بينهما. حسنٌ هذا الامر، لكن تبقى مقارنة. منع سون لا يعرف ما الحياة وما الموت. ولا يدري أيهما يفضل على الآخر. فهو يتبع التصيرات ويتنظر مالم يقع بعده.. زد عليه اننا الآن في تصوير فمن اين لنا ان نعرف مالم يقع بعد؟ اننا نتحول

الآن الى مالم يقع بعد فكيف نعرف ما هو واقع وشيكاً؟ قد تكون انت وأنا في حلم لم نستيقظ منه بعد. عند منغ سون يوجد تحول في الصورة ولكن بلا معضلة في الذهن. تبدل في الاقامة ولكن ليس موت حقيقي. كان ييكي ويتبع ببساطة مثال الآخرين. كان يرى في كل شيء نفسه، من أين له ان يعرف ان شيئاً من بين اشياء اخرى هو بالخصوص ما يدعى نفسه الخاصة به؟ انت ترى نفسك في المنام طيراً وتحلق في الجو، تراها سمكة وتغوص في الماء. لا يسعنا ان نقول ان كان المتكلم الآن يقظان ام حالم؟ الشعور الرائق يسبق الابتسام. البسمة بالاكراه مش طبيعية. بالبقاء مع الطبيعة والمضي مع سيرورة الارتقاء ستلج في الخواء، الطبيعي ، والواحد. توجه لي أر تسه لرؤية شويو^(١٢) . قال شويو: كيف استفدت من ياو؟ اجاب: ياو قال لي ان علي التحلي بالاحسان والاستقامة وان أميز بوضوح بين الصح والغلط. قال شويو: اذن ماذا تريد هنا؟ ان كان ياو قد وسمك بدعوة الاحسان والاستقامة وثبتك على التفريق بين الصح والغلط كيف يسعك التجوال في درب الحرية واليسر، درب المنعة الغير منتظمة والغير هادفة، درب الارتقاء الدائب في التغير؟

قال يي أر تسه: قد يكون. الا اني اميل الى الطواف حول المسورات. رد شيو: كلا. حين يكون الانسان اعمى لا يعنيه تقييم جمال الصورة البشرية. او سحر الالوان. ان استهانة وو تشوانغ بجمالها وليانغ بقوته ونبد الامبراطور الاصفر لمعرفته - كل هذا انما كان بواسطة سيرورة اللف والدق المتواصلة. من أين لك ان تعرف ان صانع الاشياء لم يطمس معالم هيئتي او يسبب تفكيك اوصالي الى حد اني قد اتبعك، وقد استرجعت كمال صورتني، لتكون معلمي؟

رد شويو: آه ذلك مالم نعرفه بعد. إلا أني أوجزه لك. آه يا سيدي! آه يا سيدي! يمزق كل الاشياء الى قطع وهو لم يعدل بعد. تصل بركاته الى جميع الاجيال لكنه غير محسن. هو اقدم كثيراً من الاشياء لكنه ليس قديماً. يغطي السماوات، يدعم الارض ويصمم شتى الصور بجميع الاشياء الا انه غير حاذق. وانا فيه اقوم برحلي.

تقدم هذه الفقرة وصفاً لطبيعة التاو. التاو يترك كل شيء يقوم بفعله الخاص به. نجاحه او فشله هو نتاج فعله الخاص به. وبسبب ذلك قيل ان التاو يفعل كل شيء بعدم فعل شيء - فونغ.

قال ين هوي: لقد احرزت بعض التقدم

فسأله كونفشيوس: ماذا تقصد.

اجاب: انا قد نسيت القلبية الانسانية والاستقامة.

عقب كونفشيوس: حسن جداً لكنه غير كافي.

وفي يوم آخر رآه كونفشيوس فقال له: لقد احرزت بعض التقدم.

وسأله كونفشيوس: ماذا تقصد؟

اجاب: نسيت الطقوس والموسيقى

عقب كونفشيوس: حسن جداً لكنه غير كافي.

وفي يوم آخر رآه فقال له : لقد أحرزت بعض التقدم

فسأله: ماذا تقصد.

فأجاب: انني اقعد في النسيان الكلي.

عند هذه النقطة بدّل كونفشيوس قَسَماته وقال: ماذا تقصد بالقعود في

النسيان الكلي؟

اجاب: اوصالي عديمة الاعصاب وزكاتي في العتمة. انا قد نبذت بدني وانخلعت من معرفتي فصرت مع اللامتناهي. ذلك ما ادعوه بالعودة في النسيان الكلي.

وسأله كونفشيوس: ان كنت قد صرت واحداً مع اللامتناهي فلم يبق لديك تمييز او استهجان شخصي. ان كنت قد صرت واحداً مع الارتقاء العظيم فأنت اذن تسير تبدلاته. وان كنت قد حققت هذا بالفعل فعلي ان اقتفي خطاك.

وصف آخر لحالة التجربة الخالصة - فونغ.

كان تسه يو وتساه سانغ صديقين. وحدث ان امطرت الدنيا لعشرة ايام حسوماً فقال تسه يو: اخشى ان يكون تسه سانغ في ورطة. وأعدّ له بعض الاطعمة ومضى اليه وعند وصوله الى الباب سمع شيئاً ما بين الغناء والعويل مصحوب بصوت مزهر يقول: "أو أي. أو يا إنسان! وبدا ان الصوت يخرج بالكاد والتلفظ بالكلمات كاللهاث. فدخل تسه يو وقال: لماذا تغني بهذه الطريقة؟

اجاب تسه سانغ: احاول ان افكر. من الذي جاء بي الى هذا الترم؟ لكنني افكر عبثاً. ابي وامي يصعب عليهما ان يرياني فقيراً. السماوات تغطي كل شيء بالتساوي، الارض تمسك جميع الاشياء بالتساوي ايضاً. فكيف تجعلني في هذا الفقر؟ انني أتساءل لكي اعرف ماهو ولكن بلا جدوى. لعله القدر على اي حال ذاك الذي القاني في هذه الحافة.

الهوامش

- (١) هو بو تشيه: ضم الهاء وسكون الواو. بو : باء باريس ، تشيه بامالة الياء . بو بي : باء باريس . شن توتي: فتح الشين.
- (٢) شاخه: ساقية فرعية من نهر او جدول. مفردة عراقية من أصل صيني يعني النهر الصغير
- (٣) الصدف مقابل (تجن) وآمل ان لا يفهم من الصدف والصادق حيثما ورد في هذه النصوص معناهما العامي واليومي. فالفلسفة الصينية تستعملهما لما هو حقيقي ومتأصل - تجن: يادغام التاء بالميم مع كسرة خفيفة ونون ساكنة مؤكدة في النطق.
- (٤) شي وي، فوشي : نجمان.
- وي: بفتح الفاء
- (٥) كان بي: هو روح الجبال . وفنغ بي روح الانهار.
- بي: باء باريس. فنغ بفتح الفاء
- (٦) تشوان شو حاكم خرافي
- (٧) شي وانغ مو: روح خرافية
- (٨) فو يويه (سكون الياء وفتح الواو واشمام الياء حركة فتح تنتهي بالسكون في الهاء) كبير وزراء في أسرة شانغ. ووتونغ من ملوك الاسرة (شانغ ثاني الاسر في تاريخ الصين في الالف الثاني ق.م.)
- (٩) مويه: سيف مشهور في الصين كسيف ذو الفقار عند العرب.
- (١٠) هو بضم الهاء. فنغ بفتح الميم وسكون النون والنير عليه بقوة. تشين بسكون الشين وفتح الياء.
- (١١) منغ سون تساي: فتح الميم، تساي: سكون التاء
- (١٢) أر بفتح الهمزة. شو يو بمد الواوين

الفصل السابع الملك الفيلسوف

لإقامة (حكومة) الملوك (الحقيقيين)

الى ان يكون الفلاسفة ملوكاً، او يكون للملوك والامراء روح وسلطان الفيلسوف وتجمع العظمة السياسية والحكمة في واحد... لن تصحو المدن من العلل - ولا الرس البشري كما اعتقد. ومن ثم ستكون لدولتنا امكانية الحياة ومشاهدة ضوء النهار. كانت هذه فكرة افلاطون وكذلك معظم فلاسفة الصين. ويبدو ان عناوين وانساق "الفصول الداخلية" السبعة لكتاب تشوانغ تسه تحمل نفس الهمية.. ان الفصل الاول يتحدث عن حالة الحرية المطلقة، والثاني عن المساواة المطلقة. ومن يحصل على هذه الحالات يسعه تهذيب حياته والعيش مع الآخرين في عالم الانسان. وتكون فضيلته مكتملة. وبهذه الفضيلة يؤثر طبعياً في الناس. ويصبح بالتالي معلماً عظيماً، والمعلم العظيم يكون ايضاً هو الملك. ان "العظمة السياسية" ينبغي ان تكون تاج الحكمة والفلسفة حكمة في المبدأ وملوكية في الممارسة - فونغ.

تقابل به تشويه^(١) مع وانغ يي وألقى عليه اربع اسئلة لم يجب على اي منها. وفي هذه كان يسه تشويه شديد الارتفاع ومضى يقفز ويتلوى الى بو يي تسه ليخبره.

قال بويي تسه: هل عرفت ذلك من قبل؟ الامبراطور شون ليس كفاً

للامبراطور تاي^(٢)؟ شون لا يزال يلزم الاحسان لتوجيه الناس. وقد كسبهم. ولكن لا يزال في رأسه ما يميز به بين ماهو انسان وما هو ليس كذلك ولم يتخلص قط من هذا التمييز. الامبراطور تاي ينام في سكينه ويستيقظ في بساطة قاعة. مرة كان يرى نفسه حصاناً ومرة ثوراً. معرفته كانت صادقة، فضيلته اصيلة ولم يغرق ابداً في التمييز بين ماهو انسان وما هو ليس كذلك.

'يظهر ذلك انه في عالم اللاتمايز تتجهر التاوية - فونغ.

ذهب تشين وو لكي يرى البهلول تشيه يو^(٣) الذي سأله: ماذا أخبرك تسونغ شيه منذ وقت مضى؟

اجاب تشين وو: قال لي ان الحاكم يجعل من نفسه قدوة وينظم الناس بالقوانين والمعايير. وبهذه الحالة لا احد يغامر بالعصيان ويأبى التحول.

قال تشيه يو: هذا مفسد للفضيلة. عندما يسعى الحاكم لحفظ نظام العالم بهذه الطريقة يكون كمن يخوض في البحر، يشق طريقاً في النهر او يجعل البعوضة تحمل جبلاً على ظهرها. حينما يعمل الحكماء لتنظيم العالم لا يهمهم ما يجري خارج الطبيعة البشرية، يتركون كل انسان يساير سجيته الخاصة الموافقة له. كل واحد يفعل ما يقدر عليه فعلاً. الطير يحلق عالياً حتى يتفادى الشراك والسهم. الفارة تتخذ جحرها تحت مكان القرايين لتجنب خطر الاختناق بالدخان او الحفر عليها. هل تعرف الحقائق المتعلقة بهذه المخلوقات؟

هذه القصة تبين ان كل شيء له قابليته الطبيعية. حتى الطير الصغير والفأرة الصغيرة لديها طريقها الطبيعي في الاحتماء وتدبير الامور. الطريقة المثلى في الحكم هي ان تدع الاشياء لوحدها، تتركها تفعل ما تقدر عليه - فونغ.

كان تيان كُن مسافراً الى جنوب جبل يين. وكان قد وصل الى نهر لياو عندما التقى مع حكيم لا اسم له فقال: اسألك ان تدلني كيف يُحكم العالم.

اجاب العديم الاسم: اغرب عني انت من الدون. أي سؤال مزعج تلقي علي؟ انا في صحبة صانع الاشياء وحينما اشعر بالارهاق اركب على طير اليسر والفراغ جاريّاً خارج العالم، اتجول في قاع اللامكان واعيش في سلطان اللاشيئية. لماذا تأتي لتزعجني بمشكلة وضع العالم في انتظامه؟

كرر تيان كُن سؤاله فأجاب العديم الاسم:

قم برحلة في البساطة الخالصة. مهوي نفسك مع اللاتمييز. ساير سجية الاشياء ولا تعترف بتحيز شخصي وعندها سيكون العالم في سلام.

ذهب يانغ تسه تشو لرؤية لاوتسه وقال له: هنا رجل نبيه متين، واضح الرؤية، وزكين، وكدود في معرفة التاو أيمن عده حاكماً عاقلاً؟

اجاب لاوتسه: بالمقارنة مع الحكماء يكون مثل هذا خادماً او صانعاً حقيقياً، فهم يكدحون بعضلاتهم ويُيهكون اذهانهم. ان النمر والفهد يصادان لجمال جلودهما وذكاء القرد والكلب يؤدي بهما الى السلاسل ايمن لهذه المخلوقات ان تقارن بالحاكم العاقل؟

بدا يانغ تسه تشو جازعاً وهو يرد: ايكنني المغامرة بالسؤال عن حكم الحاكم العاقل؟

اجاب لاوتسه: في حكومة الملك الفيلسوف تكون انجازاته هي الاعظم في الدنيا لكنها تبدو ليست انجازاته هو. نفوذه يمتد الى جميع الاشياء ولكن لا احد يعتمد عليه.

الروحاني لا انجاز له، كما قيل في الفصل الاول، فهو يدع كل انسان يقوم بعمله تبعاً لقابلياته - فونغ.

لا احد يستطيع اعطاءه اسماً لكن كل واحد يتمتع بما لديه.

"الحكيم لا اسم له" كما قيل في الفصل الأول - فونغ.

الملك الحكيم هو من يقف في الخفاء ويقوم برحلته في اللاموجود.

"الانسان الكامل لا نفس له. كما ذكر في الفصل الاول - فونغ.

كان في دولة تشنغ عزّاف عجيب يدعى تشي شين^(٤) يعرف كل شيء من ولادة وموت الناس، المكاسب والخسائر، النكد والسعادة، العمر المديد والعمر القصير - يتنبأ بالسنة والشهر واليوم في دقة فوق طبيعية... وكان اهل تشنغ يلوذون به. فذهب اليه ليه تسه فلما رآه انوخذ به. وفي عودته قال لصاحبه هُوتسه: لقد تعودت ان اعتبر مذهبك يا سيدي كاملاً وأنا الآن اعرف ما هو اكثر كمالاً.

تبين هذه القصة تبعاً لكون شيانغ، الوجوه المختلفة للانسان الكامل. ان الانسان الكامل "ساكن في المضطرب" كما قيل في الفصل الاخير. بكلمة اخرى انه ساكن في النشاط. فتكون هنا اربع وجوه : السكينة، النشاط، توازن السكينة والنشاط ثم السكينة في النشاط - فونغ.

قال هو تسه:

كنت قد علمتك صفة مذهبي ولكن ليس جوهره. انتظن انك قد تمكنت منه؟ بدون ديك في مدجنتك اي بيض سيضع دجاجك؟ انك تكشف مذهبك للناس للحصول على الثقة. هذا هو السبب في قدرة هذا الرجل على تأويل فراستك. خذه معك وأريه اياي.

في اليوم التالي توجه له تسه مع تشي شين لرؤية هوتسه فلما رأهم هتف تشي شين: الا! ان معلمك موات، لن يعيش اكثر من عشرة ايام. انا ارى امراً غريباً من حوله فهو يبدو كالرماد المبلل.

دخل له تسه واخذ ييكى حتى ابتل رداؤه. ثم ابلغ هو تسه ماقاله العراف فقال هوتسه: لقد أريته نفسي في صورة التراب. كنت عديم الحركة مثل الجبل، قد يكون رأني ووظائفي الطبيعية متوقفة. حاول أن تأتي به مرة اخرى.

هذا أحد مناحي الانسان الكامل - فونغ

في اليوم التالي جاء له تسه ومعه العراف مرة اخرى لرؤية هوتسه. ولما خرجا. قال العراف لليه تسه: لحسن الحظ ان معلمك جاءني الآن. هو اليوم احسن. حي تماماً. واعتقد ان توقف وظائفه الطبيعية هو شيء مؤقت. ودخل له تسه فأخبر هو تسه فقال الاخير: لقد أريته نفسي في صورة السماء. الشهرة والكسب الحقيقي لا يدخلان في عقلي. إن وظائفي الطبيعية تنبع من اعماق كياني. لعله رأني ووظائفي الطبيعية في كامل نشاطها. حاول أن تأتي به مرة اخرى.

هنا منحى آخر للانسان الكامل - النشاط فونغ.

في اليوم التالي جاء له تسه مرة اخرى ومعه العراف لرؤية هوتسه. ولما خرجا قال العراف معلمك غير متماثل ابداً. لا يمكنني فهم فراسته. لنتنظر الى ان يصير سوياً حتى اعيد فحصه.

دخل له تسه على هو تسه وابلغه فقال: أريته نفسي في الانسجام العظيم حيث لا شيء متفوق على اي شيء. لعله رأى ميزان وظائفي الطبيعية. اينما

دار الماء من حول الأطوم فثمت دردور (سورة) واينما دار من عائق مجراه
فثمت دردور واينما اندفع خارجاً فثمت دردور هناك تسعة اشكال من
الدردور بأسماء مختلفة ذكرت ثلاثة منها فقط. حاول أن تأتي به مرة
اخرى.

هذا منحى اخر للانسان الكامل - توازن الهوادة والنشاط. ان عقل
الانسان الكامل يقارن هنا بالدردور. قال كرو شيانغ: يعني تشوانغ تسه
بالدردور تساوي الهوادة مع الصمت. ليس للماء عقل وهو يتبع دوماً طبيعة
الاشياء. ومن ثم، ومع وجود فارق بين الجريان والتعويق، بين حركة الأطوم
ورقص التين فإن الماء نفسه هو ما هو في حالة الصمت دوماً. ولا يفقد ابداً
هوادته وصمته. وهكذا الانسان الكامل: حينما يطلب منه ان يفعل شيئاً فهو
ناشط. واذا لم يطلب منه فهو ساكن. ومع الفارق بين النشاط والسكون فهو
على الدوام في هدوء باطني. ولتوضيح ذلك ذكر تشوانغ تسه الاوضاع
المختلفة للماء. مقررأ ان وجود تسعة اوضاع مختلفة للماء مع اختلاط النسق
واللانسق هو غرار لما يجعل لكائن في الاعلى دائماً بسيط، يتمتع بنفسه،
وينسى الفعل. فونغ.

في اليوم الثاني جاء له تسه بصحبة العراف لرؤية هو تسه. ولكن قبل
ان يستقر في مكانه فقد العراف السيطرة على نفسه وهرب. قال هوتسه:
الحقه. فلحقه له تسه ولم يظفر به فعاد وقال لهو تسه: اختفى ضاع.. لم
اظفر به.

قال هو تسه: اريته نفس متغيرة بدون ان تفقد جوهرها. تابعت بالفراغ
في مرونة. لا ادري من هو وماذا هو تبعاً للاشياء اتغير. تبعاً للاشياء اجري
ولذا فقد هرب.

هذا وجه آخر للانسان الكامل - النشاط في الهوادة. قال كورو شيانغ: حين يكون الانسان الكامل ناشطاً يشبه السماوات، وحين يكون في الهوادة يشبه الارض. واذا يفعل شيئاً ما فهو كالماء الجاري، وحين لا يفعل شيئاً فهو كالدردور الصامت. ومع الفارق بين الماء الجاري والدردور الصامت، بين حركة السماوات وعدم حركة الارض تبقى كل هذه طبيعية لا مصطنعة. ومن هنا حين رأى العراف الانسان الكامل جالساً وقد نسي نفسه ظن انه موات. ولما رآه ناشطاً كالسماوات ظن انه عاد الى الحياة. وفي الحقيقة ان الانسان الكامل يستجيب للاشياء البرانية بذهن غير واعى ويتطابق باطنياً مع العقل. هو يمضي ضُمداً وُصَباً مع التحولات وتبعاً للتغير في الوجود، فتكون له من ثم القدرة على التصرف في الاشياء والسير مع الزمن حتى النهاية ولذلك تعذر فهمه على العراف - فونغ.

هنا اقتنع ليه تسه انه لم يحصل بعد على تعليم حقيقي. فانقلب الى بيته ولم يخرج منه ثلاث سنوات. كان يطبخ لزوجته ويطعم الخنازير كما لو كان مختصاً باطعام الناس.

نسي الفارق ما بين المواقع الاجتماعية، والفارق ما بين الناس والحيوانات.. فونغ

لم يكن لديه ولع خاص بأي شكل مخصوص من العمل.
اعتبر جميع الاشياء متساوية - فونغ.

خلع المصنوع وانكفأ الى المطبوع. وقف في العالم كأنه كتلة من التراب. وفي وسط الاختباط والاضطراب بقي مع الواحد حتى النهاية. لا تكن صاحب شهرة. لا تكن ممثلاً بالخطط. لا تكن منشغلاً بالشغل. لا تكن سيداً للمعرفة.

دع كل شيء يعتسي بنفسه - فونغ.

مهوي نفسك مع اللامتناهي. قم بالرحلة في الخواء. مارس بالتمام ما تستلمه من الطبيعة. ولا تأخذ شيئاً في المقابل. بكلمة واحدة: كن خاوياً. ذهن الانسان الكامل يشبه المرأة. لا يتحرك مع الاشياء ولا يستبقها. يستجيب للاشياء ولا يتحصلها. ومن ثم فهو قادر على التعامل بنجاح مع الاشياء، من دون ان يتأثر بها.

حاكم البحر الجنوبي يسمى التغير. حاكم البحر الشمالي يسمى اللايقين. اما حاكم المركز فاسمه البدائية. التغير واللايقين يلتقيان دائماً في اقليم البدائية، الذي يعاملها على الدوام باللطف مصمماً على شمولهما بالشفقة. وقد قالوا: كل انسان لديه سبعة ثقب للرؤية، والسمع، والأكل، والتنفس. البدائية وحدها لا تملك شيئاً منها. لنحاول تثقيب شيء منها (البدائية) فثقبوا له كل يوم فتحة وفي اليوم السابع ماتت البدائية.

[صيغة اخرى للنص الاخير مأخوذة من ترجمة هيو:

سلطان البحر الجنوبي يسمى اللاقاعة (مع الاشياء كما هي). سلطان البحر الشمالي يسمى الدورة. سلطان المركز يسمى الشواش. بين الوقت والآخر يتلاقى اللاقاعة مع الدورة في اقليم الشواش، الذي يعاملها بروح الضيافة العالية. خطط السلطانان لرد اللطافة الى الشواش فقالوا: الناس لهم سبعة ثقب وصديقنا هنا ليس له شيء منها. فلنحاول ان نثقب له بعض الثقب. فأخذوا يثقبان في كل يوم ثقباً وفي اليوم السابع مات الشواش.

الهوامش

- (١) يه تشويه: فتح الياء. تشويه: سكون التش وامالة الياء
(٢) امبراطور خرافي
(٣) تشين: سكون التش وفتح الياء. تشيه: سكون التش وامالة الياء. شيه: كسر الشين. والهاء صامته
كن: بفتح الكاف.
(٤) شين: سكون الشين وفتح الياء
تشنغ: بفتح التش. هو: بضم الهاء

زيادات ليست في ترجمة فونغ يولان

من الفصل الثاني عشر

[يرجح الاستاذ إي. آر. هيوز. ان هذا الفصل وما يليه من الفصول التي اقتبسناها من ترجمته هو من تحرير الكتاب التاوين في اوائل اسرة الهان (الأول ق.م) ولو اننا نجدها تحمل في نفس الآن تأثيرات تشوانغ تسه ولغته ومنهجه العام. ولعل محرريها قد اضافوها الى الفصول السبعة التي حررها تشوانغ تسه بنفسه لهذا الاعتبار - ه.].

شاسعة كالسما والارض هي التغيرات التي تعمها على السواء. ان العديد مما هو بحكم الاشياء يهيمن عليها واحد مفرد. وان الكبير الجليل كمجموع السواد الاعظم يكون الحاكم عليه هو السيادة.. تنبع السيادة من سلطان^(١) الشخصية في انسان وتكامل في السماوات. ومن هذا التوكيد نجد ان في الماضي كان السلطان السري في حكم جميع الناس هو اللافعل، اللافعل الذي ليس سوى القدرة المميزة للسماوات.

استعمل الكلام الذي يعكس التاو وستكون السيادة الحاكمة على الناس سيادة صادقة: لها مراتب في المجتمع تعكس التاو ويكون العدل بين الملك والرعية واضح منطقياً: استعمل القدرة التي تعكس التاو ينتج الموظفون في كل مكان السلم والانتظام. لانه بالتاو والصورة المحوثة لها تستجيب جميع

المخلوقات لبعضها البعض. وبنفس المعنى يكون ما يتخلل السماوات والارض هو سلطان الشخصية وما هو ناشط في جميع المخلوقات هو التاؤ. ان سؤس الناس من فوق يتم من خلال جملة واجبات والقدرة على ملاءمتها مع العدل هي المهارة المتحصلة. والمهارة تتجارى مع جملة الواجبات، وهذه الواجبات مع العدل، والعدل مع السلطان الروحي في انسان، وهذا السلطان الروحي مع التاؤ والتاؤ مع السماء. وبنفس المعنى يكون الافراد الذين يغذون مجتمعهم كله ليس لديهم رغبات وهكذا يكون المجتمع باكملة مليئاً: ذلك انهم يمارسون اللافعل فتتغير جميع المخلوقات، ذلك انهم راسخو البقاء، والاواصر بين جميع الاسر منتظمة. وكما جاء في "السجل" - "كن متوغلاً مع الوحدة تتحقق جميع الواجبات بتمامها: لا تفكر في النجاح الفردي تخدمك الاسماء والارواح.

قال السيد (كونفشيوس). هذه التاؤ التي تعمل باقبال وادبار في جميع المخلوقات كم هي شاملة في هيمنتها. لا يملك الانسان المبدئي الا ان يفتح قلبه لها. اننا نقول "سماوات" حينما نفكر في الفعل بدون فعل، كما نقول "سلطان روحي" حينما نفكر بقول اشياء من دون اي شيء، كما نقول "احسان" حينما نفكر في محبة الناس ونجعل الاشياء لحسابهم، كما نقول "عظمة" حينما نفكر في ايجاد الانسجام بدل التنافر، كما نقول "أناة" حينما نفكر في فعل شيء لازعاج خصومنا، كما نقول "ثورة" حينما نفكر في احتياز جميع ضروب الاشياء ، كما نقول "ابتداء" حينما نفكر في انسان متمسك بفضيلته، كما نقول "واطد" حينما نفكر في تقدم فضيلته نحو الاكتمال. او "معصوم" حينما نفكر به في وفاقه مع التاؤ، أو "كامل" حينما نفكر في كونه لا يستعمل القسر ضد اي شيء. اذا كان الانسان المبدئي

واضحاً في هذه النقاط العشرة جعلته يؤدي واجباته بالتمام ووسعت من افقه الذهني: وسوف تنهمر بكليتها في افعاله وتستظهر الطبيعة جمعاء^(٢) [؟]

ان انساناً من هذه الشاكلة هو من يدفن الذهب في الجبال ويرمي اللثاليء في البحر. فهو لا يرى فائدة في هذه البضاعة الدنيوية ويبقى بعيداً عن الابهة والاحتفال. ولا يفرح بالعمر الطويل ولا يحزن بالموت في غير اوانه. لا يفخر بالرخاء ولا يخجل من الفقر. ويوصفه ملكاً فهو لا يحتجج مكاسب جبل كمنحة له. ولا يعني عرشه عنده جلال الشهرة بل جلال الفهم بأن الوجود كله هو مستودع مفرد يتماثل فيه وجه الموت ووجه الحياة^(٣).

في البداية الكبرى كان اللاشيء. واللاشيء لا اسم له. في نقطة الشروع للأحدية (أحدية الكون) كان هناك أحدى فقط ولا صورة ملموسة. هذا الطور يمكن وصفه بالسلطان الروحي (في العمل) ثم اخذ العديم الصورة يتشعب ويستمر في ذلك. هذا يمكن اعتباره "مقدار الجزئي". (بهذين السلطانين) كان هناك سيل غير متقطع من التأثير عند العمل هو ماجعل الاشياء الجزئية تعيش وتستظهر خواصها المميزة. وهذا ما نعتبره "صورة". اطار الصورة يحمي الروح فيها. ولكل روح غرار لا بد من اتباعه. وهذا ما نعتبره (طبيعتها). وحين تتطور طبيعة الشيء الى الكمال تكون عودة الى السلطان الروحي (الذي يأتي الوجود من خلاله). والآن فهذا السلطان حين يكون في ذروته يتساوى مع نفسه عند البداية. وحيث يكون سواء فهو غير مشروط (بالمكان والزمان) وان يكون غير مشروط يكون جلياً وينتج "الاتحاد ما بين منقار الطير وغناؤه" والاتحاد ما بين منقار الطير وغناؤه هو

جزء من الاتحاد مابين السماوات والارض^(٤) وهذا الاتحاد يعم المنظومة
بأكملها: شيء ما غير واعى تحت السطح يمكن اعتباره سلطان (الهي)، هو
ما يجمع (كل شيء) في استجابة كبرى.

ألقى السيد (كونفشيوس) سؤالاً على لاوتان (لاوتسه): ناس يتعاطون
على التاو كما لو كانوا ينتقدون بعضهم بعضاً قائلين عن شيء انه ممكن
وعن اخر غير ممكن او هذا حق وهذا باطل، كما يفعل الجدليون^(٥)، الذين
يقولون ان الصلابة والبياض لا يجتمعان كما لو انك تستطيع فصل الاشياء
ميكانيكياً! ايجوز ان نسمي مثل هؤلاء الناس حكماء؟

اجاب لاوتان: انهم قليلو الشأن. ايدي ماهرة في المشغل، تكدح في
حالة من عدم الطمأنينة، ولهم شبه بالكلاب التي تلقيها مهارتها في اصطياد
الثعالب وغيرها في متاعب، وبالسعادين في الاعيها الذكية التي تلقي بها
خارج الجبل والغابة (محيطها الطبيعي) ياتشيوي^(٦) سأخبرك شيئاً لا تطيق
فهمه او الكلام بشأنه. هناك فقام من الناس لهم رؤوس واقدام وليس لهم
اذهان او آذان. ولكن بين الكائنات لا يوجد واحد فرد يمكنه العيش من غير
بدن منظور من نوع ما. فحركات هكذا كائن وسكناته، حياته وموته، كلها
متناقضة مع ماهو بواسطته موجود^(٧).

ان لدى الانسان بعض الضوابط للسيطرة (على نفسه)، ان يكون غير
واعى للاشياء (بوصفها خارج ذاته)، ان يكون غير واعى للسماوات
(بوصفها خارج ذاته) فهذا يعني عدم وعي الذات. والانسان الغير واعى
لذاته هو من يوصف بولوج السماوات.

قال تشي تشه (الحاد الذكاء في إبانه) ان حكومة الحكيم العظيم في المجتمع العظيم توجد احتياجات كبيرة في قلوب الناس - ممكنة اياهم على اجراء المباديء المتنورة، وتبديل عاداتهم لازالة الذهن السراق عنهم. ولدى كل واحد منهم ارادة فردية للمضي من عزم الى عزم، بحيث يبدو كما لو أن طبيعة الفرد تفعل لنفسها ولا يعرف الناس مصدر التأثير. مثل هذا الحكيم يرتقي بلا شك الى مقاس ياو أو شون في الهام الناس: لماذا يجب عليهم ان يكونوا خدماً مثل الزوجة - البنت^(٨)؟ رغباتهم متوافقة مع السلطان الروحي فيهم وقلوبهم راسخة.

هيوز

الهوامش

(١) سلطان: مقابل الصيني تشون لي والانجليزي power واللفظ الصيني حاصر في دلالة على مجموع القدرة والدليل والحجة التي يتضمنها اللفظ العربي. انظر الآيات، ٧١/ اعراف ، ٦٨/ يونس ، ٩٦/ هود ، ٤٠/ يوسف ، ١٠/ ابراهيم، ١٥/ الكهف، ٤٥/ المؤمنون، ١٥/ صافات كمثال على المعنى المحدد هنا لكلمة سلطان.

(٢) عبارة ملتبسة وضع هيوز امامها علامة استفهام

(٣) ليس هذا ولا ما تقدمه في الفصول من كلام كونفشيوس ولا مذهبه وانما استنطقه الكاتب التاوي لتعزيز افكاره. كما سيفعل المتصوفة المسلمون مع النبي محمد في جيلهم - هـ.

(٤) يستند هذا النص الى خفية الترابط ما بين شكل منقار ما والتفريدة الصادرة عنه

- هيوز

(٥) لاحظ الاستاذ هيوز ان الجدلين لم يكونوا في عهد كونفشيوس من غير ان يشكك في هذا الحوار بينه وبين لاوتسه. وقد يتنا في الهامش الاسبق ان التاويين استنطقوا كونفشيوس لاغراضهم وان مايرد عنه في كتاب تشوانغ تسه لا يصلح للتوثيق - هـ.

(٦) الاسم الشخصي لكونفشيوس - هـ.

(٧) لاحظ مخاطبة لاوتسه لكونفشيوس باسمه دون اللقب مما يعزز عدم الثقة

بالرواية التي يظهر فيها لاوتسه في مظهر المتفوق المتسيد على كونفشيوس!

(٨) الزوجة - البنت، من عواقب الفقر في الصين القديمة. كانت العائلة التي تعجز

عن اعالة بناتها تقدم البنت لموائل موسرة وهي صغيرة لتخدم العائلة بوصفها كنة المستقبل. وعندما تكبر تزوج من ابن العائلة التي خدمتها لكنها تكون زوجة من الدرجة الثانية في مقام يشبه مقام الجواني - هـ.

من الفصل الثالث عشر

تاو السماوات، تاو امبراطور ما، تاو حكيم ما، تفعل كسيرورة لكن ليس بتكتيل كل شيء دونما تمييز. ومن هذه الحقيقة تأتي الى الوجود المخلوقات الشديدة التنوع، والاختلاص لامبراطورية امبراطور ما، والبيعة الكونية المقدمة لحكيم ما. الانسان الذي يفهم السماوات والمتضلع في موهوبات الحكماء كما في القوى الطبيعية الفاعلة في فضيلة السيادة، مثل هذا الانسان يفعل من ذاته، بعدم وعي، في هودة كلية. هودة الحكيم ليست تلك التي قيل عنها انها "الكينونة في السلم" وهي ان تكون صالحاً وبالتالي في سلام. كلا، فليس في الطبيعة ما يشده ذهنه فهو في حال الهودة المبتغاة. اذا كان الماء في حالة سكون يُظهر الشعر في ذقن الانسان واجفانه، وبمنسوبه الميت يستهل على النجار الاسطى ان يتخذ غراراً. اذا الماء بقي صافياً (في سكونه) فماذا نقول عن قضايا الروح في صلتها بذهن الحكيم؟ هو انعكاس السماوات والارض، مرآة جميع المخلوقات. ان تكون في حالة سكينه، قانع، منسجم، خامل، فهذه هي حالة التوازن في السماوات والارض وفي قلب السلطان التمييزي للتاو. من هنا يكون الاباطرة والحكماء في راحة. في راحة، ثم مطلق السراح، ثم مخلص. مخلص، ثم شديداً المعاناة.. وبذلك يتأكد لي انه لا شيء اكثر ألوهة من

السموات، لا شيء اغنى من الارض، لا شيء اعظم من الامبراطور^(١)، وهكذا ينبغي التأكيد ان السلطان الروحي للامبراطور يكافئ السموات والارض.

(في المجتمع) تكون الجوهريات من اختصاص وفعل الحاكم واللاجوهريات للمحكومين، مثلما ان القرارات الهامة (كمثال) هي من اختصاص وفعل السيد والتفاصيل من اختصاص وفعل وزيره. استعمال القوة المسلحة غير جوهري للسلطان الروحي. المكافآت والعقوبات، نشدان الريح والخوف من الخسارة، قوانين العقوبات الخمسة، هذه كلها هي اللاجوهري لمبادئ البلاد. انماط الطقوس والاوزان والمقاييس، الحسابات، التصنيف، وتعريف النقاط الصغيرة، هذه كلها هي اللاجوهري للحكومة.. اصوات الآلات وارتداء الحلل، هذه هي اللاجوهري في الموسيقى والرقص. مدة الحداد المعينة والتميز في ملابس الحداد هي اللاجوهري في الحزن على الموتى. هذه اللاجوهريات الخمسة تتطلب اهدار الطاقة الروحية وارهاق الذهن. والناس الذين يمثلون لها في الوقت هم بالضبط تلاميذ اللاجوهريات. كانت هذه الامور لدى الغابرين لكنهم عارضوا اي اتجاه لتضخيم اهميتها.

ان الغابرين الذين توصلوا الى فهم التاوا الاكبر كانوا قد توصلوا قبلها الى فهم السموات. وجاء سلطان التاوا تالياً على ذلك. وبالتوصل الى فهم سلطان التاوا جاءت القلبية - الانسانية والعدالة ثم جاءت ادامة التمايز الاجتماعي وتصنيف الاشياء... ثم الاستعمال المسؤول لها^(٢) ثم اختبار الجيد والردىء، ثم التمييز بين الحق والخطأ ثم المكافآت والعقوبات، ثم تحدد لكل من الجاهل والمتكلم مكانه الصحيح، وللنبيل والعامي مواقعهم

الملائمة، والفاضل والشرير يتصرف كل منهما تبعاً لقدرته. هذا هو ما يوصف بأنه التوازن الاكبر، وذروة الحكم^(٣).

الهوامش

- (١) نبه العلامة هيوز الى تداخل كونفشيوس شديد في ذهن كاتب الفصل. ويتجلى ذلك في اعلاؤه شأن الامبراطور. لكن الفصل بمجموعه يصدر عن كنفشة متؤاة - هـ.
- (١) علامة الاستفهام من وضع الاستاذ هيوز
- (٢) كنفشة صارخة وسط عدمية تاوية! - هـ

من الفصل الثامن والعشرين

حكايات يفهم منها

انها تدور حول ابطال خرافيين

الهرب من الامرة:

اراد (المملك الحكيم) شون ان يتخلى عن العرش لصالح شان تشوان.
فقال الاخير: انا أقف في وسط العالم. في الشتاء ارتدي ملابس فرو وفي الصيف ملابس منسوجة من الحشائش. وفي الربيع اكرّب وأبذر حيث يلبي جسدي متطلبات العمل. وفي الخريف اقوم بالحصاد حيث يلبي جسدي مطلوباتي من الاسترخاء والطعام. عند الشروق اخرج للشغل واعود عند الغروب. اتجول طليقاً ما بين السماوات والارض وقلبي مطمئن. لماذا ازعج نفسي بالمجتمع العظيم؟ قد خيبتني بعدم معرفتك اياي. وهكذا رفض العرض ومضى بعيداً الى قلب الجبال ولم يعرف احد الى أين ذهب ليعيش.

ملك حكيم:

كان تاي وانغ شان فو يعيش في بين . ولما هاجمه الهمجيون من قبيلة

تي عرض عليهم فدية من الفرو والحريز. لكنهم لم يقبلوها. فعرض عليهم خيلاً وكلاباً فلم يقبلوا. فعرض لثالي ويثب فلم يقبلوا، فما كانوا يريدونه هي اراضيهم. وعندها قال لشعبه: "لن يسعني العيش مع انسان سببت الموت لأخيه الاصغر وابنه. كذلك كنت قد سمعت ان على المرء ان لا يستعمل وسائل تغذية الحياة لاجل الاضرار بها". وانصباحاً لهذا المبدأ ومعتمداً على اعوانه(٩)(١) خرج من مكانه وجرى الناس خلفه. وانتهت مسيرتهم الى اقامة دولة جديدة عند قدمي جبل تشي.

يمكن القول بشأن تاي وانغ شان فو ان قدرته اتسمت بتبجيل الحياة. والانسان الذي يتمكن من تبجيل الحياة برغم موقعه العالي وثروته لا يسمح لما يغذي الحياة ان يضر بشخصه. وهو ايضاً برغم الفقر والموقع الواطي لا يسمح للحصول على مكسب ان يضع قيداً على بدنه. وعلى العكس من هذا اهل عصرنا من المسؤولين الاكابر وابناء النبالة الذين فشلوا فشلاً مزدوجاً في ذلك. فما ان يحصلوا على مكسب لا تهمهم المخاطرة بابدانهم.

العرش الذي لا يسوى ذراعاً:

تخاصمت اقطاعيتا هان و وي وغزت احدهما الاخرى فجاء الحكيم تسه هوا تسه الى تشاوشي صاحب اقطاع هان فألفاه مثيراً للنغم فقال: لنفرض ان جميع اصحاب الاقطاعات وقعوا اتفاقاً بحضورك مقررين ان قطع اليد اليسرى يسبب مرضاً قاتلاً لليد اليمنى وان قطع اليد اليمنى يسبب مرضاً قاتلاً لليد اليسرى لكن الشخص الذي يقطع يده هو الذي يحكمهم جميعاً. هل عظمتك مستعد لقطع احدى يديك؟ اجاب تشاو:

كلا. فعقب تسه هوا تسه: حسناً. من هذه النقطة تكون ذراعان اهم من تملك بلاد بأكملها. وبالطبع فإن البدن بأجمعه أهم من الذراعين وحدهما، بينما اقطاعه هان اقل اهمية من البلاد ككل. ومع ذلك فأنت تعرض بدنك للخلل وتلحق الاذى بحياتك لخوفك من الفشل^(٢).

العزف على العود من داخل الازمة:

كان كونفشيوس محصوراً في مضيق بين اقطاعتي تشن وٲساي^(٣). مرت عليه سبعة ايام دون طعام سوى ضبة اعشاب من دون اي رز. وظهر الاعياء على محياه لكنه انسدح في الدار يداعب اوتار مزهره. وكان ين هوي^(٤) في الخارج يلتقط الاعشاب الفاخرة. فجاء تسه لو وتسه كونغ وتكلما معه قائلين: ان السيد قد ائترع من موطنه وانهم ازالوا كل اثر له في وٲي وقطعوا شجرته في سونغ... وهو الآن نهب لكل الايدي في تشن وٲساي. معروف انه ليس من الجرم ان يقتل سيدنا وانه لا حاجز يمنع من اغتياله ومع ذلك فهو يواصل العزف والغناء دون توقف. ترى الا يشعر الانسان المبدئي بالاساءة التي تلحق به؟

لم يرد ين هوي وانما توجه الى كونفشيوس لابلاغه، فألقى مزهره وقال متنهداً: هذان الاثنان صغيرا العقل. اذهب وجئ بهما الي لأني اريد ان اتحدث معهما. ولما وصلا قال تسه لو: "مثلما هي الاشياء الآن قد يقال عنا باننا قد بلغنا الحد".

رد كونفشيوس: ماذا تقول؟ ان التكثر بالتاو هو معنى التكثر. ان تستقيم مع التاو هو معنى ان تكون مستقيماً. وانا هنا لكي اؤكد تاو القلبية -

الانسانية والعادلة، اواجه معضلات عالم مضطرب. ماذا فعلت حتى اكون مستقيماً؟ على هذه الشاكلة، تفحص فؤادك. ولا تكن محبطاً بشأن التاو. عندما تأتي الصعوبات لا تضيع سلطان التاو الروحي. في الشتاء فقط حيث الصقيع والجليد تكون لدينا وسائل لمعرفة قيمة الصنوبر والسبريس. وهذه الازمة في تشن وتساي هي فرصتي السانحة. أليس كذلك؟ وادار ظهره بالتحية منقلباً الى ساباطه ليواصل العزف فيه.

هيوز

الهوامش

- (١) علامة الاستفهام من هيوز - هـ
- (٢) قال فقيه الخليفة: اترى لو احتبس بولك اكنت تفديه بملكك؟ قال: نعم. قال: فما قيمة ملك لايسوى بولة؟
- (٣) تشن: بفتح التش. تساي بسكون التاء
- (٤) ين هوي: كسر الياء من ين وسكون الهاء من هوي

من الفصل الثالث والثلاثين

فن الحكم بالتاو

"نظرية المجتمع العظيم"

في المجتمع العظيم يوجد الكثير من انصار فن الحكم، وكل واحد يعتبر ما لديه شيئاً لا يسمح بزيادة. السؤال هو: أي من كل هذا يأتي فن التاو الذي تكلم عنه حكماء الغابر؟ الجواب: ليس من مكان... مرة أخرى يجب ان نسأل: كيف ينزل الاله (في الانسان) عليه؟ كيف يظهر نور العقل؟ (الجواب هو ثمت شيء ما هو ما يستدعي [يجلب] الحكماء [الصادقين] الى الظهور وينتج الملوك [الصادقين]. ومصدر هذا كله هو في الواحد. أن تكون على صلة لا تنقطع مع الارومة الأبوينية (لكل الحياة) هذا هو ما يراد به "الانسان السماوي". ان تكون على صلة لا تنقطع مع القوة المنشئة (في كل الطبيعة) هذا هو ما يراد به "انسان فوق طبيعي". ان تكون على صلة لا تنقطع مع الحقيقية [الصادقية] (عن الحياة) هذا هو ما يراد به "الانسان الكامل". ان تجعل السماء هي الأرومة الابوينية (لكل الحياة؟) وجذر (الخير كله) هو قوة الشخصوة، والتاو هو الباب (لكل الحكمة؟) مثلما ايضاً ان يساوق [يتابع] التغيرات والتصيرات وهي تجري (في الوجود) هذا هو ما

يراد به "أن تكون حكيماً". وإن تجعل القلبية الانسانية رقيقة، والعدالة مبدأ، و(روح) الطقوسية العالية ديدناً يومياً، والموسيقى قوة الانسجام في المجتمع، وإن تكون كذلك شقيقاً بكل خلوص نية، انسان لانسان، هذا هو ما يراد به "أن تكون انسان مباديء" وهكذا، عن طريق الاحكام العامة يصنع التفرقات، وعن طريق الاسماء يصنع الدلائل (كمعرفة ماهي طبيعة الشيء) وعن طريق الخبرة الشخصية يصنع التجربة، وعن طريق الاستقصاء يجعل المحاكمات في دقة حاصل الجمع. هذا هو مناط الارتباط ما بين المئة مسئول (في المجتمع) وبهذا فهم [المئة مسؤول]^(*) يحضون واجباتهم اهتماماً صارماً، يجعلون اكساء واطعام الناس مبدأهم المرشد^(**) [وهذا] مع انتاج الفائض وخزنه في مكان أمين، ويكرسون اهتماماً أخصّ للمسنين والضعفاء، للعديمي الاب والارامل. ان لديهم جميعاً نظاماً لاعزاز البشر^(***).

هيويز.

الهوامش

- *المئة مسؤول، كناية عن الكثرة وليست مقصودة للعدد.
- ** قارن مع قول عبد القادر الجيلاني، "نظرت في الاعمال كلها فلم اجد افضل من اطعام الطعام. وددت لو أن الدنيا في يدي لأطعمها الجياع".
- *** العبارات ما بين الاقواس والقوسات من النص الانجليزي. وقد وضعت لإكمال النص الذي كتب في الاصل الصيني بعبارات مختلة. وما تحته خط من الانجليزي ايضاً. وحصرت انا بين قوسين مضلعين ما استدعاه الايضاح او الاكمال او الترجيح. - شخصية، مصدر شخص. مثل رجولة من رجل ومروءة من مرء. اخترتها هنا مقابل PERSONALITY تبعاً لاستدعاءات السياق ومنحى كلام الفيلسوف.

من جوهر التاوية ومناها الاجتماعي

.. انها المعرفة المصنوعة المش - طبيعية هي التي سببت جميع الشرور في هذه الدنيا والتعاسة التي عمت اهلها.. اختراع القوس والسهم والرمح سبب الشقاء لطيور الجو. واختراع الصنارة والشبكة جلب الشقاء الى السمك في الماء. واختراع الفخ والشارك والزبية ادخل الشقاء على ذوات الاربع في آجامها. واختراع السياسة والمغالطة (السفسطة) والفنون والطقوس والقوانين جلب الشقاء للبشر.

لنرجع الى الطبيعة، نحول اليشب واللؤلؤ الى طحين حتى نقطع دابر السراق. نحرق العقود ونكسر الاختام فيعود الناس الى نبلهم. نتخلص من المقاييس والاوزان فلن تبقى حروب. نحطم بحزم جميع المؤسسات المصنوعة للحكمة يستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نلغي سلالم الاحان نكسر الآلات الموسيقية يستعيد الناس وضعهم الطبيعي. نبطل موازين الألوان واصول الاصباغ، نقلع عيون الصباغين يستعيد الناس رؤيتهم الطبيعية. نمنع استعمال الفرجار والمربع، نكسر اصابع التجارين يستعيد الناس ممتلكاتهم^(١). نطرد أهل القانون، نلجم المتنطعين. ننفي تلاميذ

كونفشيوس مع مواضعاتهم المصنوعة تعود السجايا الضائعة الى ممارسة فعلها الخفي الموحد للانسان.

اجل! لنرجع الى الطبيعة تكن نهاية جميع الفلاسفة المخادعين.
من : ليو ويغر

A History of the Reigious Beliefs

And philosophicpl Openions in china

Hsien - Hsien Press 1927.

p 199 - 200

- لاحظ جموح لغة التاوين خارج قوانين المنطق ليسهل عليك ادراك ان
تشاونغ تسه لا يريد المعنى في دعوته الى قلع عيون الصباغين وكسر اصابع
النجارين وانما الدلالة - هـ

الهوامش

(١) الاشارة هنا الى وسائل فرز الممتلكات وتعيين المقتنيات والنص ربما ينطلق في
ذلك من التمسك بالحالة المشاعية للملك - هـ

فرضية في الارتقاء

من الفصل الثامن عشر

كان السيد ليه يأكل على قارعة الطريق لما وقع نظره على جمجمة عمرها مئة سنة. فانتزع نصل عشبته واخذ يؤشر على الجمجمة قائلاً: أه انت وأنا. نحن ندرك انه لا حياة هنا ولا موت. هل انت حقاً في مرد شيء؟ وأنا حقاً في سعادة وبهجة؟ بذرة ما تحتوي على جرثومة. ولما تشرب بالماء تتجرثم(?)^(*) فاذا حصلت على بيئة ملائمة من الماء والتربة تصبح وا بين تشيه يي . واذا خامرتها الحياة تصبح ال لينغ تشياو. واذا حصل اللينغ تشياو على دمنة كافية يصبح ال وو تسو وتصبح جذور الوو تسو يرقة (دودة) بينما تصير الاوراق فراشات تتحول بعد وقت قصير الى حشرات. ولما تخامرها الحياة تحت الدفاء تكون صورتها شبيهة بالهيكل ويصبح اسمها تشو (تنويع من الجداجد؟) وبعد الف يوم يصير(الجد جد) طيراً اسمه كان يو كو. ويتحول لعاب الكان يو كو الى سَو مي، يصبح بدوره شبه سشي^(**) (ذباب الطعام؟) ويتنشأ ال يي يو من الشيه سشي وال هوانغ كوانغ من التشيو يو وال موو جوي من ال فوتشوان . واذا تطعم يانغ تشي بخيزرانة كبيرة ليس لها جذور تنتج تشينغ فينغ ينتج عنه بدوره نمر، ينتج هو

بدوره حصاناً ومن الحصان يتولد الانسان. ومع الوقت يعود الناس الى الجرثومة، اذ ان عشرات الوف المخلوقات تأتي من الجرثومة ثم ترتد اليها.

هيز

ملحوظة: أسماء الاحياء الواردة في هذا النص مجهولة من الشراح، ووضع الاستاذ هيز بعض ترجيحاته ما بين قوسين. لكن تسلسل الارتقاء واضح هنا في مفهومه العام الذي اراده تشوانغ تسه اومحررو كتابه. فهو يبدأ من الجرثومة، أدنى صور الحياة، ويتطور الى يرقات وحشرات تنتج عنها بمرور الوقت كائنات حية ارقى حتى تصل الى النمر ثم الى الحصان ومنه الى الانسان. واختياره الحصان لذكائه وقبوله التأديب كما يقول الارثقانيون المسلمون الذين وضعوا الحصان في المراتب العليا، ولو انهم جعلوه ادنى مرتبة من القرد الذي يقع في مسلسل الارتقاء الاسلامي في اعلى شجرة الحياة قبل ظهور الانسان - هـ

الهوامش

• تتجرثم: اقترح هيز لترجمة المقطع الوارد في هذه العبارة. وقد نقل عن العالم الصيني ما ششو لون ان معنى المقطع مجهول.

(**) سشي، ششو... الحرفان المزدوجان س ش مع تسكين السين وضعتهما لمحاولة اداء تقريبي لصوت صيني بين السين والشين. وهو الذي يكتب بالحرف اللاتيني في صورتين: X و Hs وهذا الصوت يتحول في لهجات الجنوب الى سين خالصة.

ضبط الاسماء الواردة في النص:

وا بين تشيه يي: الباء هي باء باريس.

سومي: بتشديد السين.

جوي: سكون الجيم وكسر الواو

من الفصل الثامن عشر

لما توفيت زوجة تشوانغ تسه جاءه فيلسوف المنطق صديقه هوي شيه ليعزيه. ولشد ما كانت دهشته لما رأى تشوانغ تسه جالساً على الصعيد وهو يغني وسأله هوي شيه كيف يكون على هذا القدر من عدم الشفقة على زوجته فأجاب.

حين ماتت لم اتمالك نفسي من التأثر أول الأمر. وفي الحال، مع ذلك، تفحصت القضية من بدايتها الحاسمة: في البداية الحاسمة لم تكن عائشة ولم تكن لها صورة ولا حتى مونة. ولكن لسبب او آخر صارت لها مونة، ثم صورة، ثم حياة. والآن وفي تغير أبعد، لاحق، ماتت. ان السيورة في جملتها تشبه تعاقب الفصول الاربعة، الربيع، والصيف، والخريف والشتاء. وبينما هي الآن ترقد في مقصورة الكون العظمى: فإن بكائي عليها وولولوتي ستجعلني جاهلاً بقوانين الطبيعة. وهكذا كففت عن التفجع لها.

- في شرح كوو شيانغ:

مع جهله شعر بالحزن. ولما فهمها لم يعد فريسة الغم.. تشوانغ تسه يعلم الانسان تبديد الانفعال بالفعل.

من ترجمة فونغ يولان خارج
الفصول السبعة

تذييل

كـوـو شـيـانـغ وـالتـقـدم فـي الفـلسـفـة

يرى كثير من الناس (من الغربيين - هـ) ان تاريخ الفلسفة الصينية لم يشهد تقدماً كبيراً. ويأتي هذا الانطباع من ان معظم فلاسفة الصين كانوا ممن ساهم تشوانغ تسه "اتباع الغابرين" وذلك انهم عبروا عن افكارهم ليس باسمائهم وانما من خلال اقاويل القدماء كما لو كانت جاهزة لديهم. وهكذا بدت كتاباتهم وكأنها شروح. لكن شراحاً من هذا القبيل كانوا في الحقيقة فلاسفة وتمتعت فلسفتهم بقيمة حقيقية. (١)

في الفلسفة الغرباوية اعتاد الفلاسفة على التعبير عن افكارهم باسمائهم. وتعطي الدراسة السطحية الانطباع بوجود تنوع كبير وتقدم كبيرين. لكن استقصاء متأنياً يظهر ان التنوع والتقدم لم يكن بالهواله التي تظهر للنظر، الغير فاحص. لقد قال وليم جيمس ان الذرائعية هي اسم جديد لفلسفة قديمة. ان تسمية فلسفة قديمة باسم جديد هي سنة جارية عند فلاسفة الغرب. بينما اعتاد فلاسفة الشرق (يقصد فلاسفة الصين - هـ) على تسمية فلسفة جديدة حيثما جاءت على ايديهم، باسم قديم. فان تكن هكذا سنة قد اتبعها فلاسفة الغرب فإن الذرائعيين لن يدعوا انفسهم اكثر من كونهم

شراح لبروتاغوراس وكتاباتهم شروح لأقواله: الانسان مقياس جميع الاشياء، وان يكن برجسون لم يعتبر نفسه اكثر من شارح ليهرافليطس وكتابات شروح للهراقليطية عن التغير، فإن المتابع السطحي يرى في تاريخ الفلسفة الغربية القليل من التقدم. والحقيقة ان الذرائعية والبرجسونية هما فلسفتان حقيقتان. انا لانكر ان الفلسفة الغرباوية لا سيما الحديثة تحت تأثير تطور العلم الحديث، هي اكثر تنوعاً وتقدماً من نظيرتها الصينية (بشرط القدم - ه). واقول ببساطة إن التنوع والتقدم ليس بالهولة ولا بالضلالة التي يدوان عليها^(٢).

يمكن ان نرى ما بين تشوانغ تسه وكوو شيانغ^(٣) تطور التاوية نحو النضج. ان التخطيطات النية واللغة الشعرية للأول يعبر عنها لدى الثاني بصيغ واضحة وتبينات مصممة. وما هو فكرة عند تشوانغ تسه يصبح عند كوو شيانغ مبدأ ناضج. من يقول ان التقدم لا وجود له في عملية نمو الدجاجة من البيضة^(٣)؟

واستظهر كوو شيانغ الى جانب ذلك افكار جديدة تأتي في تناغم مع الروح العام للتاوية لكنها جديدة بمعنى انها مما لم يقله لاوتسه او تشوانغ تسه.. وفيما يلي عرض موجز لفلسفة كوو شيانغ بالتقابل مع فلسفة الاباء..

١ - انكر كل من لاوتسه وتشوانغ تسه وجود اله. وهما على ان كل شيء في العالم انتج نفسه تلقائياً. وقد حظيت هذه الفكرة بمعالجة كاملة في "شروح" كوو شيانغ الذي اكد انه لا خالق للاشياء. وخشية من ان يأخذ بعض الناس مطلق التاو على انه شكل من الخالق، قال ان التاو هو اللاشيء. وفي شرحه على عبارة لتشوانغ تسه في الفصل الخامس ان التاو يعطي الألوهة للآلهة حيث يتم ايجاد العالم. قال كوو شيانغ.

”التاو لا شيء. فأنّى له ان يعطي الالوهة للآلهة حيث يتم ايجاد العالم؟ هو لم يعطي الآلهة الوهتها بل هي إلهية بنفسها. وبذلك فالتاو تجعلها إلهية بعدم جعلها كذلك. التاو لا يوجد العالم وانما العالم يوجد نفسه. وبذلك فالتاو يوجد العالم بعدم ايجاده.. التاو في كل مكان لكنه هو لا شيء في كل مكان.”

وفي شرحه على الفصل الثاني والعشرين قال كوو شيانغ.

”في الوجود ما هو السابق للأشياء؟ قد نقول انها الين واليانغ. لكن الين واليانغ هما نفسيهما اشياء. فما هو السابق للين واليانغ؟ قد يقال انها الطبيعة. لكن الطبيعة هي ببساطة طبائع الاشياء (طبيعتها). قد نقول ان التاو هي السابق للأشياء. لكن التاو ليست شيئاً. وحيث انها لا شيء كيف تكون سابقة للأشياء؟ نحن لا ندري ماهو السابق للأشياء، فالأشياء في خلق مستمر. ويعني هذا ان الاشياء هي ما هي تلقائياً. ليس من خالق لها.”

يرى كوو شيانغ ان الوجود ليست له بداية ولا نهاية. فهو لا يمكن ان يكون موجود اللاكائن ولا هو بالممكن له ان يتحول الى اللاكائن. قال في نفس الفصل:

”ليس فقط لا يمكن للاكائن ان يصبح كائن بل الكائن لا يصبح لا كائن. ومع ان الكائن قد يتغير بآلاف الطرق فمن غير الممكن ان يحول نفسه الى اللا كائن. وبالتالي ليس هناك زمن لم يكن فيه كائن. الكائن موجود ابدياً ”

ويسوق كوو شيانغ براهين اخرى لدعم نظرية النشوء التلقائي ففي شرحه على نص في الفصل الرابع عشر يقول: ”قد يقال اننا نعرف اسباب

اشياء معينة. ويبقى سؤال. ماهو سبب الاسباب؟ اذا استمرينا في طرح الاسئلة مرة بعد مرة فلا بد لنا ان نقف عند شيء ما وجد تلقائياً وتحدد الماهو فيه بنفسه ولا يسعنا ان نسأل عن سبب هذا الشيء. اننا نستطيع فقط أن نقول هو ذاك."

سنبقى في النهاية اذن محمولين على تبني النظرية القائلة بأن الاشياء أوجدت نفسها بالتلقاء وحددت الماهو فيها بنفسها. ومادمننا، كما يقرر كوو شيانغ، قد تبيننا هذه النظرية فلماذا لا نتبناها عند البداية الحاسمة؛ اذا نحن فعلنا ذلك فلن نحتاج الى السؤال عن سبب اي شيء. ولن نحتاج الى السؤال عن شيء لاجواب عليه. ببساطة يمكننا القول ان كل شيء هو ماهو تلقائياً. قال في شرحه على الفصل الثاني:

"يقول بعض الناس ان شبه الظل ناتج عن الظل وان الظل ناتج عن الصور الجسمانية والصور الجسمانية ناتجة عن الخالق. ولي ان اسأل ان كان الخالق ايس أم ليس؟ ان يكن ليس فكيف استطاع خلق الاشياء؟ وإن يكن ايس فمعناه ببساطة انه واحد من الاشياء فكيف يمكن لشيء ان يكون خالق لشيء آخر؟ من هنا لا وجود لخالق وكل شيء خلق نفسه بنفسه. وهذا هو السبيل السوي للوجود".

٣ - حينما يقول كوو شيانغ أن كل شيء ينتج نفسه وماهيته بالتلقاء فهو يعني عدم الاحتياج الى الخالق... ولا يتضمن هذا القول نفي العلاقات بين الاشياء. فالعلاقات عنده من الضروريات. قال في شرحه على الفصل السادس:

"حين يولد الانسان على ضعفه وضآلته فهو يمتلك الخصائص اللازمة لوجوده. ومهما تكن حياته تافهة فهو يحتاج الى الوجود باجمعه كشرط

لكينونته. ان جميع الاشياء في الوجود، كل ماهو موجود، يكون له تاثير عليه. ولو نقص شرط واحد لانتقض وجوده ولو انخرق مبدأ واحد لانتقضت حياته".

والفكرة هي انه حيثما وجدت شروط او ظروف معينة فإن اشياء معينة تنشأ لا محالة. الا انها لا تنتج عن خالق او اي "فرد" آخر. بكلمه اخرى، تنتج الاشياء عن ظروفها في العموم وليس عن شيء آخر بالخصوص. الاشتراكية مثلاً تظهر حينما تتوفر شروط اقتصادية معينة. وتبعاً لما يعرف بالتفسير المادي للتاريخ فالاشتراكية لا تنتج عن ماركس او انجلز او عن بيانها (الشيوعي). وبهذا المعنى نقول: كل شيء ينتج عن ذاته وليس عن الآخر^(٤)

على ان القول بأن كل شيء ينتج نفسه اذا فسر بهذه الطريقة لا تبقى فُضوة للارادة الحرة. قال كوو شيانغ في شرحه على الفصل الخامس:

"ان حياتنا لم تكن عن رغبة منا.. في ايام عمرنا، دورة المئة عام (ما يمكن ان يبلغه عمر الانسان - ه) فإن ما نفعله من جلوس ونهوض ومشى وقيام وعمل وراحة وكسب وخسارة، وما عندنا من شعور وغريزة ومعرفة وقدرة، كل ذلك، كل ما عندنا وما ليس عندنا، كل ما نفعله وما نلقاه لم يكن هكذا لأننا اردنا ان يكون هكذا بل بفعل الطبيعة واسبابها".

وفي شرح آخر في نفس الفصل:

"لم نأت الى الحياة بالصدفة. ولا بالصدفة كانت حياتنا ما هي عليه. الكون شديد الامتداد، والاشياء هائلة العدد. وفيها وبينها كنا تماماً ما نحن عليه. ولا يند عن هذا الحكم العام لا الدولة ولا الحكيم ولا الأشد بأساً ولا

الاكثر عقلاً. ما هو لسنا نحن لا نستطيع فعله. وماهو نحن لا نستطيع الا ان نكونه. مالا نفعله (ماليس لنا ان نفعله؟ - ه) لا نستطيع ان نفعله. ما نفعله (ماهو لنا ان نفعله - ه) لا يسعنا الا فعله. دع كل شيء يكون ماهو عليه تنعم بالسلام."

هذه الحتمية تصدق على الظواهر الاجتماعية ايضاً. يقول كوو شيانغ في شرحه على الفصل السادس "لا شيء الا وهو طبيعي... السلم أو الاضطراب، النجاح أو الفشل.. كل اولئك منتج الطبيعة لا الانسان".

ومقصده من "منتج الطبيعة" هو النتيجة اللازمة لظروف او شروط معينة. ان تأسيس حكومة روسيا السوفيتية، كما يقول الاشتراكيون، لم يكن انجازاً لافراد معينين بل هو النتيجة الضرورية لشروط اجتماعية واقتصادية محددة.. يقول كوو شيانغ في شرحه على الفصل الرابع عشر:

"ان مجرى التاريخ ملزوماً بظروف معاصرة، هو المسؤول عن الازمة الحاضرة. وليس مرجعه الى افراد معينين، بل الى العالم في كليته. ان نشاط الحكماء لا يقلق العالم بل العالم يضطرب من ذاته.

٤ - ينظر كوو شيانغ الى العالم في جريانه. قال في شرحه على الفصل السادس:

"التغيير قوة، قوة غير ملحوظة باشد ما تكون، فهو ينقل السماوات والارض الى الجديد. يسوق التلال والجبال الى نفص القديم. القديم لا يتوقف دقيقة ويأتي الجديد في الحال - جميع الاشياء تتغير في كل هنيهة.. كل ما نلقاه يمضي بعيداً في السر. نحن انفسنا لا نكون في الماضي كما نحن في الحاضر.

ونحن الآن نواصل الماضي مع الحاضر ولا يسعنا الابقاء عليها
(نفوسنا)."

المجتمع بدوره في جريان.. تتبدل حاجات البشر كل هنيهة. المؤسسات
والاخلاق الصالحة في وقت ما قد تكون طالحة في وقت آخر. قال كوو
شيانغ في شرحه على الفصل الرابع عشر: "ان مؤسسات الملوك السابقين
كانت تليي حاجة الوقت. واذا استمرت قائمة مع تبدل الزمن تكون عبثاً
على الناس وتصبح مصطنعة".

وفي شرحه على الفصل التاسع:

"ان الذين يقلدون الحكماء انما يقلدون ماكانو قد فعلوا. لكن ما فعلوه
انما هو شيء قد فات ولم يعد يلائم الوضع الحاضر. فهو عديم القيمة ولا
ينبغي اقتفاؤه. الماضي ميت والحاضر حي. ومن يريد العيش مع الميت لن
يعيش".

وفي شرح آخر على الفصل الثاني عشر قال كوو شيانغ في معرض
كلامه عن الحكيم شون والملك وو:

"كان هذان الحكيمان معنيين بوضع العالم في حال الانتظام عند
الاضطراب. وقد قام احدهما بذلك بوسائل سلمية والآخر بالقوة العسكرية
وكان اختلافهما بسبب اختلاف الزمن. ولم يكن بينهما تفاوت بين الفوقية
والدونية...".

يتبدل المجتمع مع الظروف. وعندما تتبدل الظروف يلزم ان تتغير
المؤسسات والاعراف والا كانت مصطنعة وعبثاً على الناس. وانه لأمر
طبيعي ان تنتج المؤسسات والاعراف الجديدة نفسها. ان القديم والجديد

يختلفان لان الزمن يختلف. وليس فيهما ماهو فوقى او دونى. ولم يكن كوو شيانغ ضد المؤسسات والاعراف (باطلاق) خلافاً للاوتسه وتشوانغ تسه بل هو ضد ما استنفد منها وتحول الى مؤسسات واعراف مصطنعة.

٥ - حين يقع التغير في الظروف الاجتماعية تنتج المؤسسات والاعراف الجديدة نفسها. وتركها في سيرها يعني اتباع ماهو طبيعى. قال في شرحه على الفصل السادس:

”حين يسيل الماء من عالٍ الى خفض لا يمكن مقاومته. وحين تتجمع الاشياء الصغيرة مع الصغيرة والكبيرة مع الكبيرة فلا سبيل لمقاومة الميل. وحين يكون الانسان فارغاً وبدون تحيز تشمله جميع الاشياء في حكمتها - ماذا سيفعل من يتولى قيادة الناس ويواجه هذه التيارات والاتجاهات؟ يمنح ثقته لحكمة الوقت، يعتمد على ضرورة الظروف، ويترك الدنيا تدبر شؤونها بنفسها(٥)“.

وهذا هو اللافعل بعينه قال في شرحه على الفصل الحادي عشر:

”اللافعل لا يعني ان لا نفعل شيئاً. بل ان نترك كل شيء يفعل ما يفعله ففي ذلك ارضاء لطبيعته“

وفي شرحه على الفصل الثالث عشر:

”النجار حين يحفر الخشب يكون في اللافعل، الا انه يكون في الفعل باستعماله الفأس. الامير يكون في اللافعل حين يدبر الامور الا انه يكون في الفعل بالسيطرة على الوزراء. يمكن للوزراء تدبير الامور بينما الامير يسيطر على الوزراء. الفأس يمكنها حفر الخشب بينما النجار يمكنه استعمال الفأس... لكل شيء ميدانه. العالى والواطي كلاهما يملك امكنته الموافقة. هذا هو كمال مبدأ اللافعل(٦)“.

وفي شرحه على نفس الفصل يقول كوو شيانغ:

" بمقارنة المنصب الاعلى مع الاوطأ، يكون الامير اكثر استمتاعاً والوزير اكثر انشغالاً. بمقارنة الزمن الغابر مع الحاضر كانت الامور في زمان ياو وشون ابسط وفي زمان يو وتانغ اعقد. لكن مادام كل شيء ضمن طبيعته فاللافعل هو سمة كل حالة."

ونظراً للتبدل في الظروف، فإن عقدة الحياة الحديثة تنتج نفسها بالتقاء. فهي طبيعته لا اصطناعية. ويعارض كوو شيانغ دعوة لاوتسه وتشوانغ تسه للعودة الى البدائي. قال في شرحه على الفصل التاسع:

"ينبغي على السائق الجيد ان يترك حصانه يؤدي كامل قدرته. والسبيل الى ذلك اعطاؤه الحرية. بعض الناس يدرّبون الخيل بوسائل مصطنعة ويستخدمونها الى مدى خارج قدرتها. وبهذه الطريقة يستهلكون قواها فتموت. لو اننا تركنا الخيل تفعل ما تقدر عليه غير قاسرين الحصان البطيء ان يكون سريعاً ولا السريع ان يكون بطيئاً وامتطيناها عبر العالم كله لكانت تتمتع برحلتها معنا. يظن بعض الناس حين يسمعون بوجوب ترك الحرية للخيل انها يجب ان تبقى بريّة. وحين يسمعون نظرية اللافعل يحسبونها تعني ان الاضطجاع خير من المشي. سوء فهم يتعد كثيراً عن غرض تشوانغ تسه."

نجد لدى كوو شيانغ ايضاً تأويلات اخرى للبدائي والبسيط كما في شرحه على الفصل الخامس عشر حيث يقول:

"ان كان المقصود بالبدائي عدم التحوير فالانسان الذي لم تتحور خواصه هو الاكثر بدائية حتى لو كانت له القدرة على فعل اشياء كثيرة. وان

كان المقصود بالبساطة عدم الامتزاج فان صورة التنين وسمات العنقاء تكون هي الابطسط رغم ان جمالها ساحق بالكلية. من جهة اخرى نجد انه حتى جلد الكلب او الماعز لا يكون بدائي وبسيط اذا مزجت خواصه الطبيعية او حورت بعناصر اخرى".

٦ - عارض لاوتسه وتشوانغ تسه الحكماء. ان كلمة حكيم في الادبيات التاوية لها معنيان، هما الانسان الكامل او الانسان الحائز على معرفة متنوعة متفرعة. وقد هاجم لاوتسه وتشوانغ تسه المعنى الاخير ومن يتشع به من الناس. ويلوح لنا من المقتطفات الآتية ان كوو شيانغ لا يعارض ان يصير بعض الناس حكماء وانما ينتقد من يقلد الحكماء: افلاطون ولد وهو افلاطون، وغوته ولد وهو غوته وعبريتهما طبيعية مثلما هي صورة التنين او سمات العنقاء. وهما في البساطة والبدائية شأن أي شيء آخر في الطبيعة. ومعنى ذلك انهما لم يخطئا في كتابة "الجمهورية" و"فاوست" فقد اتبعا في عمل هذا طبيعتهما الخاصة بهما - يقول كوو شيانغ في الشرح على الفصل الثالث:

"نقصد بالمعرفة لنشاط الخارج عن القدرة الطبيعية للفرد. وما ليس كذلك لا يسمى معرفة^(٧). المطلوب من الفرد ان يتصرف ضمن المجال الملائم لقدرته الطبيعية ولا يسعى لتجاوزها. ان الفرد القوي بالطبيعة يمكنه تحمل عبء ثقيل دون ان يشعر بالوطأة ومن هو حاذق بالطبيعة يدبر الامور على اختلافها ولا يشعر بالانشغال"

فالمعرفة عند كوو شيانغ لها تعريف خاص. وتبعاً له فإن "جمهورية" افلاطون و"فاوست" غوته او حتى فتوحات نابليون هي ببساطة تعبير تلقائي عن عبقريتهم، عن قابليتهم الطبيعية. لا وجود لعناصر معرفة باطلاق.

المقلدون فقط هم الذين لهم معرفة. ويبدو كوو شيانغ منكراً للتقليد لثلاثة اسباب: الاول انه غير مجدي. جاء في التعليق على الفصل الثالث عشر: "احداث الغابر توقفت عن الوجود. ومع ان بالامكان تسجيلها فليس في وسعنا استخدامها مرة اخرى. ومن ثم ينبغي الكف عن المحاكاة، والعمل تبعاً لطبائعنا والتغير مع الوقت. وهذا هو السبيل الى الكمال.

واذ يكون كل شيء سيالاً فالغابر مختلف عن الحاضر والواحد عن الآخر. ان اوضاعنا ومعضلاتنا وحاجاتنا تتبدل مع اللحظة. وينبغي ان يكون لنا في كل يوم طرائق جديدة لمواجهة اوضاعنا الجديدة. كما ان الاوضاع والمعضلات والحاجات الخاصة بالافراد المختلفين تختلف هي الاخرى في نفس اللحظة. وهكذا يجب ان تكون طرائقهم. فما جدوى المحاكاة؟
الثاني ان المحاكاة الصارمة غير ممكنة. الانسان ملزم بان يكون ماهو..
جاء في شرحه على الفصل الخامس:

"جئنا الى الحياة ليس لاننا نرغب في ذلك. يسعى بعض الناس بجهد قاصد ليكونوا فنانيين عظام الا انهم لا يفلحون ابداً. فالفنانون العظام يصبحون كذلك تلقائياً ومن غير معرفة الكيفية. ويسعى البعض بجهد قاصد ان يكونوا حكماء لكنهم لا يفلحون ابداً، فالحكماء يصبحون حكماء تلقائياً ومن غير معرفة الكيفية. على انه ليس من العسير فقط تقليد الفنانين والحكماء بل اننا لا نستطيع ان نكون معتوهين او كلاب بمجرد الرغبة والسعي الى ذلك".

كل شيء يجب ان يكون ماهو عليه. لا يمكن لواحد ان يكون الآخر.
الثالث ان التقليد ضار. قال في شرحه على الفصل الثاني:

"نجد بعض الناس غير راضين عن طبيعتهم ويتصرفون في منأى عنها محاولين ماهو مستحيل من دون ان يحققوا اي نجاح. ان الدائرة لا يمكنها محاكاة المربع وليس لدى السمكة اي فرصة لتصبح طيراً. هم قد يقلدون شيئاً جيداً او جميلاً ولكن بقدرما يحاولون البعيد تبتعد عنهم غاياتهم. ويقدر ما تزداد حصيلة معارفهم يفقدون من طبائعهم".

وفي شرحه على الفصل العاشر.

"طبيعة كل شيء لها حد. اذا الانسان زينت له نفسه ان يتجاوز طبيعته ضاعت. وعليه ان لا يقع تحت الاغراء وان يعيش تبعاً لذاته لا للآخر. وعندئذ يمكنه ان يحفظ تكامل طباعه"

ليس بالامكان محاكاة الآخرين بنجاح. هناك بالعكس احتمال ان تضيع الطبيعة في مساعي خرقاء كهذه. واذ تكون المحاكاة بلا جدوى وغير ممكنة وضارة فما الداعي اليها؟ لماذا يتوجب العيش وفقاً للذات لا للغير؟ ان العيش وفقاً للذات هو اللافعال. وهو وحده السبيل الى السعادة. ان السبب الذي يجعل معظم الناس غير قادرين على مقاومة الاغراء الخارجي هو عدم معرفتهم بتساوي الاشياء. هم لا يعرفون انه "من جهة تماثلهم تكون جميع الاشياء واحدة". وبسبب هذا الجهل تكون لهم افضليات وارجحيات باطلة في ضوء العقل.

يجب على المرء ان يرى الواحدية في الاشياء ويتمهوى معها. ومن يقدر على ذلك هو الانسان الكامل.

٧ - ثمة نقاط يمكنني اعتبارها المميزات الخاصة لفلسفة كوو شيانغ. لقد اجتازت التاوية عقبات عديدة بفضل مفاهيمه الجديدة. ومع ان افاداته

في بعض الاحيان شكلية ومتصلة بغرض عملي فقد قدم مساهمات منظورة للتاوية خاصة والفلسفة في العموم. ورغم ان فلسفة كوو شيانغ كما رأينا للتو أوغل في الطبيعاني والحتمي من لاوتسه وتشوانغ تسه فهي ليست اقل في باطنيتها. ويمكن رؤية ذلك في الاوصال المسهبة من "شروحه" والتي ترجمت مع نصوص تشوانغ تسه هنا. ان عظمة كوو شيانغ تكمن في الطبيعاني والباطني معاً.

يصعب القول الى اي مدى تآثر كوو شيانغ بالبوذية. هو تاوي على أي حال. وثمت الى ذلك العديد من الفروق الجذرية بين التاو والبوذا. فبينما ترى البوذية مثلاً ان كل شيء باطل وغلط ترى التاوية ان كل شيء حق وحقيقي. والميتافيزيقيا البوذية مثالية والتاوية واقعية. وفي البوذية تكون النوفانا حالة ميتافيزيقية. وفي التاوية يكون عالم التجربة الخالصة معرفياتي. ومن هنا ورغم باطنية التاوية العميقة فهي لا تتصادم مع العلم^(٨).

هناك اخيراً اشكال ترميخي فيما اذا كانت شروح كوو شيانغ صحيحة النسبة اليه - لقد اتهم بانتحال شروح معاصره شيانغ شيو. ولا تعنينا هذه التهمة كثيراً لاننا نتحدث عن الفلسفة لا التاريخ ولا فرق عندنا ان يكون صاحبها كوو شيانغ او شيانغ شيو فهي من قبيل ما دعاه تشوانغ تسه: ثلاثة في الصباح. او : اتباع مجريين مرة واحدة...

ملحوظة:

فيما يخص العلاقة بين شروح كوو شيانغ وشيانغ شيو، بينت البحوث اللاحقة انها كانت سيرورة تكامل بين الفيلسوفين اذ اعتمد كوو شيانغ على شروح اولية من تشيانغ شيو فوسعها واطاف اليها ما جعلها تشكل تطوراً

اساسياً لمقولات التاوين الاوائل. هنا اذن ما يصبح اعتباره دور مشترك بين الفيلسوفين وليس في الامر سرقة او اختلاس. ان بعض الرواة من الاوساط الفلسفية والعلمية في ازمنة وامكنة شتى، ينزعون الى تضخيم علاقة تكامل من هذا القبيل الى اتهام بالسرقة مدفوعين بالرغبة في اثارة ضجة حول فيلسوف او عالم او اديب مرموق - هـ.

الهوامش

(١) يشبه فلاسفة الصين في هذا المنحى افلاطون في حواراته التي استنطق بها سقراط ولكن بافكار افلاطون وفلسفته الحقيقية. وهذه سنة لدى قدماء الفلاسفة من اليونان ظهرت ايضاً في اسلوب التفلسف الصيني. ومن بعده في كلام وكتابات صوفية الاسلام الذين تكلموا في القضايا الشائكة عن طريق استنطاق رموز الاسلام والعلوم الاسلامية كمحمد والصحابة وأئمة البيت والفقهاء الاربعة - هـ.

(٢) كوو شيانغ: يلفظ كوو بكاف مضمومة مع واو ممدودة - هـ.

(٣) مثال يصدق على تطور الفكر والحضارة في عموم آسيا.. التقدم حاصل من الادنى (البیضة) الى الارقى (الدجاجة) لكنه دوراني حيث الدجاجة تعود فتنج بيضة. وكان هذا محيط الابداع الآسيوي، والذي كان في حاجة الى عمودية اوريا لكي تتطور الدجاجة الى طيارة - هـ.

(٤) كتب فونغ يولان هذا النص عام ١٩٢٨ وهو يبدو موافق على النظرية الماركسية بهذا الشأن رغم أنه غير شيوعي - هـ.

(٥) القليل من تدخل الدولة والمؤسسات - هـ.

(٦) تبدو هذه المباحكات قريبة من فكرة التوليد عند المعتزلة. ومفادها لو ان أحداً رمى آخر بسهم فمات الرامي قبل وصول السهم الى المرمى، الذي قتله السهم في نفس

الآن. فهل يعتبر الميت هو القاتل؟ الجواب ان الفعل يكون للسهم الذي تولدت فيه القدرة على القتل من حركة الرامي قبل موته. فالسهم هو الفاعل الحقيقي وليس راميهِ - هـ.

(٧) ترد المعرفة هنا كمضاد للطبيعة البشرية، كواحدة من المؤسسات المصطنعة التي فرضتها الحضارة هـ.

(٨) المقارنة بين البوذية والتاوية فيها إعضال، لأن البوذية دين والتاوية فلسفة. ويبدو على أي حال ان الاستاذ فونغ يولان راعى اشتراكهما في الباطنية مع اتجاه البوذية الى التفلسف في عصر لاحق لعصر المؤسس. والفروق التي اوردها اعلاه هي الفروق المألوفة بين الدين والفلسفة. كما ان الاشتراك في الباطنية لا يوجب التماثل. فالتصوف الاسلامي الملحد كان أكثر باطنية من التصوف المؤمن (فضلاً عن الايمان الديني) وبقدر ما ابتعد التصوف عن الدين كان اقرب الى الروحاني والباطني - هـ.

الفهرس

الاهداء	٥
التصدير	٧
مدخل الى التاوية	١٣
التاو في المجتمع	٣٤
الكتاب الأول: تاوتي تشينغ	٥٧
حول الكتاب والترجمة	٥٩
تنبيه حول الاسم	٦٠
الكتاب الثاني: تشوانغ تسه	١٣٣
حول الكتاب والترجمة	١٣٥
فاتحة للترجمة الانكليزية	١٤٥
تنبيه	١٤٧
الفصل الأول: رحلة السعادة	١٤٩
الفصل الثاني: في تساوي الأشياء	١٦٠

١٧٨.....	الفصل الثالث: أساسيات تهذيب الحياة
١٨٣.....	الفصل الرابع: العالم البشري
١٩٩.....	الفصل الخامس: دليل الفضيلة الكاملة
٢٠٩.....	الفصل السادس: المعلم العظيم
٢٢٦.....	الفصل السابع: الملك الفيلسوف
٢٣٥.....	زيادات ليست في ترجمة فونغ يولان
٢٣٦.....	من الفصل الثاني عشر
٢٤٢.....	من الفصل الثالث عشر
٢٤٥.....	من الفصل الثامن والعشرين
٢٤٩.....	من الفصل الثالث والثلاثين
٢٥١.....	من جوهر التاوية ومنحها الاجتماعي
٢٥٣.....	فرضية في الارتقاء
٢٥٥.....	من الفصل الثامن عشر
٢٥٦.....	تذييل كووشيانغ والتقدم في الفلسفة

لآءل/ء

هءا الكءاب

... وهءءا

لوم ءءولء الاءراءور

أو ءءصلب الوزراء ءالءة

لا ءبعء هءلءة من اللشب

أو ءصللاً من أربعة ءلول

بل الءم مكاءك وأظهر ءالو

ءأسلس ءءصلءة ءرة للءءفف لسلءل بها عن سلءة
ءءولة وسلءة المائل، هو الءوهر الأرقل لمءرسة ءالو منذ
بءوؤها فل القرن ءامس قبل الملاء. وفل هءا الكءاب
ءرءمة للمصلءلن الأساسلن لهءه المءرسة الكبرل اللل
ءءكامل مع ءءصوف القءبائل الالامل فل ءعاللها على
السلءللن.. ان صوء ءءكمة الشرقلءءءءابوا من على
ءرفل آسل الشرقل والغربل، ءاعلأ الانسان الى ءءروء من
أسر العوءلءة الى ءضاء ءرلءة المءلقة ءلء ءكون مرءلة
الءءفف الكونل ءءولءاً لصراع الفلاسفة مع عناصر
الانءطاط اللل بزرعها ءءكام فل أعماق الوءءان البشرب.
نصوء مجهولة ءعرض على القاربء العربل للمرة
الأولل.

الناشر

لآءل/ء

ءءولء



بلساء

ءائف 865129 - ص. ب. 13/5261 - بربوء